

إبداعات عالمية

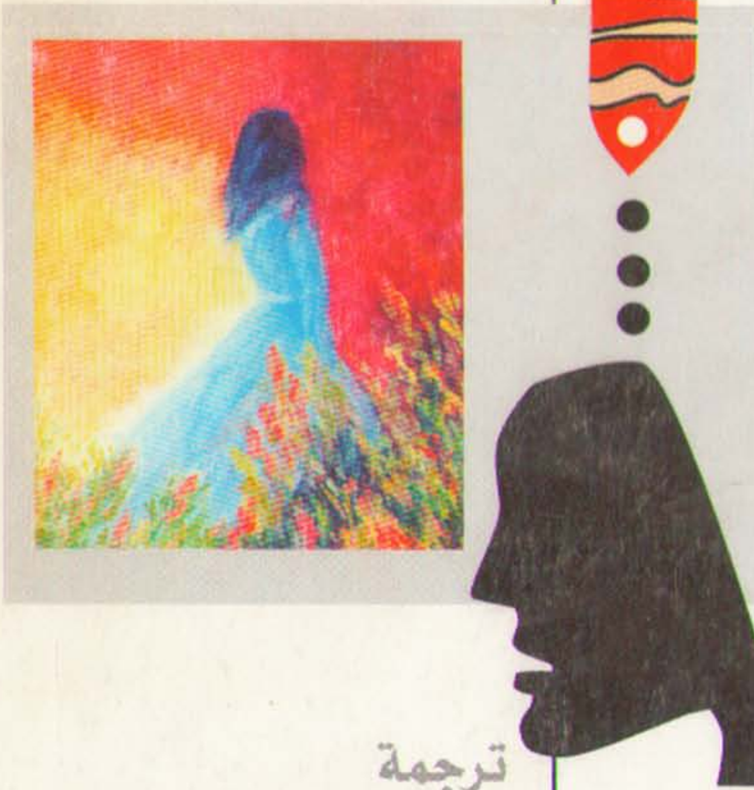


المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

328

مجموعة قصصية

من الأدب الباكستاني الحديث



تأليف
مجموعة من القاصات الباكستانيات

ترجمة
عامر الزهير

مراجعة
شاهر عبيد

فبراير 2001

سلسلة شهرية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

مجموعة قصصية من الأدب الباكستاني الحديث

تأليف: مجموعة من القاصات الباكستانيات

ترجمة

عامر الزهير

مراجعة

شاهر عبيد

العدد 328 فبراير 2001



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولاراً أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147
دولة الكويت

ردمك x - ٠٥٢ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906- 0- 052-x

مجموعة قصص من الأدب الباكستاني الحديث

HOOPS OF FIRE

تأليف : مجموعة من القاصات الباكستانيات
ترجمة : عامر الزهير
مراجعة : شاهر عبيد

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2001م
إبداعات عالمية العدد 328

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها : أحمد مشاري العدواني
(١٩٢٣-١٩٩٠)

● غلاف العدد لوحة« ريحة المشموم» للفنانة نوال كمال من دولة البحرين .

تنويه واعتذار

● اللوحة التي احتواها العدد ٣٢٧ من إبداعات عالمية للفنان الكويتي عبدالوهاب العوضي .

المحتوى

مقدمة		7
ارتحالات النوم	عذراء عباس	15
عندما تبكي الجدران	فاطمة ألطاف	21
العراب	خديجة مستور	51
وحصل له حادث	حجاب امتياز علي	53
الصحوة	ممتاز شيرين	61
الجحيم	راضية فاسح أحمد	83
الانحدار	ممتاز شيرين	125
رسائل بعناوين خاطئة	فاهميدا رياض	137
منفى	جميلة هاشمي	151
بارباتي	فرخاندا لودهي	171
خطيئة البريء	أومي يومارا	203
أطواق النار	خالدة حسين	227

مقدمة

خلال الفترة التي أعقبت تقسيم شبه القارة الهندية في العام ١٩٤٧، تطورت في الأدب الأوردي بالباكستان هوية ديناميكية خاصة به. فمن جهة أولى، بقي هذا الأدب محافظا على صلات اجتماعية لغوية مع أدب الأوردو في الهند، ومن جهة أخرى، فإنه يعكس المطالب والتقلبات التي ميزت حقبة جديدة من التاريخ الأدبي في طريقها الآن للتدوين.

إن هذا الأدب يثير أسئلة مهمة عن الهوية الحضارية المستقلة والعلاقة المتجددة على الدوام بين الفن والسياسة.

إن الأدب الباكستاني المعاصر يكشف الستر عن حالات رائعة من التوازي مع آداب مجتمعات أخرى في مرحلة حديثة بعد الاستعمار، كما أنه يتداخل بجرأة مع الأنواع والأساليب الأدبية التي تنتجها الدول المتحضرة في الغرب، والتي يعيد هذا الأدب الباكستاني تعريفها وتكييفها لتنسجم مع أهدافه. ومع ذلك، فإنه من الواجب إعطاء أدب الأوردو مكانه اللائق في سجلات الأدب العالمي.

إن كتاب آسيا الجنوبية الذين اكتسبوا أخيرًا شهرة في الغرب، هم جميعا من المتحدثين بالإنجليزية، وعادة ما يصنفون على أنهم أنجلو - هنديين. وباستثناء قلة من المرموقين منهم، فإن هؤلاء الكتاب الذين تمت ترجمة أعمالهم من اللغات الوطنية/ الإقليمية قد تم إبعادهم إلى حيز ضيق من الكتابة للمجلات والدوريات الأكاديمية.

ومع كل المجاملات والإطراء لإنجازات الكتابات النسائية، فإن الفضاء المعطى للكاتبات هو فضاء مهمل، وبخاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار مساهماتهن الكبيرة في مجال التجارب الكتابية من حيث الشكل والمضمون خلال النصف الأخير من القرن العشرين، حيث تساوت بل تجاوزت إنجازات معاصريهن من الرجال.

لم يكن في نيتي أصلا القيام بجمع مختارات أدبية متخصصة في الأدب النسائي، ولكن الناشر أشار لي، وهو على حق، إلى تلك الفجوة. وأكدت قراءاتي في القصة المكتوبة بالأوردية الأمر التالي: إن الكثير من الأدب النسائي قد عانى من عدم الاهتمام خلال النصف الأخير من القرن العشرين. وقد استطاعت رخصانة أحمد في مجموعتها الشعرية بعنوان «نحن النساء الخاطئات» أن تقدم للقارئ الإنجليزي مختارات شعرية معاصرة مترجمة لبعض شاعرات الباكستان.

وفي هذا الكتاب، وهو مختارات من القصص الروائية القصيرة المترجمة عن لغة الأوردو، حاولت أن أعيد التوازن بتقديمي لعدد من الكاتبات البارزات والأقل شهرة في مجال القصة القصيرة. إن في قصصهن سهولة، لكنها أيضا تكشف عن تحد في الشكل والمضمون. وهي قصص عامة، لكنها ذات أصول عميقة في التجربة الذاتية لأمة كاملة ولنفسيتها. هنا ربما تبزغ مسألة، تتمثل في ما تركته السنوات الأربعون الأولى من تاريخ البلاد ـ منذ التقسيم وحتى موت بوتو ـ من تأثير في خيال نسائها. وعلى رغم أن هذه المجموعة تتضمن أيضا

تجارب ذاتية محضة، فإن هؤلاء الكاتبات اللواتي لا يخضن التجارب السياسية قدر خوضهن في التجارب الشخصية، قد تحررن مع ذلك وكتبن في إطار من الوعي السياسي الذي ميز كاتبات الرعيل الأول من النساء الأديبات. هكذا، فإن عوالم أحلامهن تضاء وتظلم حسب تقلب المجتمع الذي يشكلهن وتغيره. إن أمينة في قصة فاهميدا رياض المنفية في الهند، ترى اغترابها بمنظور اجتماعي - تاريخي: فهي تكتب «عددا من الأشعار العاطفية، تكشف الفجوات الآخذة بالاتساع في النظام الديمقراطي الذي لا يزال يسمح بالمجاعة الرهيبة.»

إن كتاب الأوردو الكبار، وكذلك أيضا الناشئين من الكتاب الشباب، عليهم أن يبنوا شهرتهم، وأن يساهموا كثيرا في حوار دولي يسعى إلى التخلص من المفاهيم والنظريات الجمالية في إطار مفهوم المركزية الأوروبية.

بعض من كاتبات هذه المختارات هن أيضا روائيات، ولكن القصة القصيرة لها مكانة في أدب جنوب آسيا لا يعلوها مكانة إلا الشعر. وكتاب الأوردو، تقريبا بلا استثناء، يظهرون تمكنا عظيما من كتابة الأنواع الأدبية القصيرة: القصة والرواية والرواية القصيرة، وهم يتعاملون بيسر كبير مع الأساليب الرومانسية وغير الواقعية الموروثة عن التقاليد الماضية، ومع الواقعية الأوروبية، والكتابة الثورية المتأثرة بالماركسية، واستراتيجات ما بعد الحداثة المميزة لقرننا. لقد أظهروا

عمليا أن تطوير التكنيك للقصة هو، على الرغم من الجدل الأيديولوجي القائم، ليس مسألة صدام أو تعارض بين الواقعية والفنتازيا، أو بين الأصالة والحداثة، أو بين الفن والسياسة، ولكن في العادة هو تقابل (Juxtaposition) المتضادات في بوتقة خيالية ولغوية.

أدب الأوردو الحديث ينحدر غالبا من مراسيم حركة الكتاب المتطورة والموجهة اجتماعيا، إلا أنه مع ذلك قد احتفظ بصلاته بالأنماط المحلية الشعبية قبل ظهور الرواية. وفي الواقع، فإن هذا التعايش بين العناصر المتضادة ظاهريا، هو ما يستغله الكتاب المعاصرون استغلالا إبداعيا.

ومع أن هذه المختارات تركز بشكل واسع على نصوص كتبت بين العام ١٩٦٠ و ١٩٨٠، فإن قصتي كاتبتين هنا، واللتين لمع نجمهما في وقت مبكر (ممتاز شيرين وخديجة مستور)، قد أوضحتا بشكل فعال النزعتين المهيمنتين، وهما النزعة الجمالية - الخرافية، والنزعة الواقعية - الاجتماعية. ومع ذلك، فإن كل واحدة منهن تظهر بعضا من ملامح النزعة المتضادة في أعمالها.

إن نص ممتاز شيرين هو مونولوج مبكر، كتبته عندما كانت في سن المراهقة، ويوضح مباشرة جمالياتها المعاصرة وفهمها لحاجة المرأة للتعبير عن نفسها. خديجة مستور، كمناصرة لحقوق المرأة، ركزت ببراعة على حياة النساء المنبوذات. وقصتها هنا «العراب» تعكس اهتماماتها. وهي تستمد شخصياتها الرئيسية من نساء الطبقات الفقيرة. وعلى رغم أن قصصها مكتوبة بطريقة الواقعية المعلنة، إلا أن

الأسلوب الشعري ومواقف التشرد يجعلانها تنتمي في عملها هذا إلى الأسلوب الروائي القديم. هذا القسم يشمل أيضا إحدى قصص عميدة القصص الباكستانية، حجاب امتياز علي.

خديجة مستور وممتاز شيرين تنتميان إلى جيل «عصمت جو غتاي»، وقد اختارتا البقاء في الهند عند التقسيم، وهاجرت «كواراتيولين حيدر» إلى باكستان عند التقسيم ولكن عادت بعد ذلك إلى الهند. وقد تركت الكاتبة كواراتيولين حيدر فجوة كبيرة في عالم الأدب الباكستاني، ولكن تأثيرها محسوس في كل مكان. من هذا الجيل أيضا، من صاحبات التأثير القوي من الكاتبات، جميلة هاشمي وفاطمة ألطاف، واللتان يمكن تسميتهما بوارثتي عباءة حيدر. وجميلة هاشمي كانت في طليعة الكاتبات في الستينات، وأصرت على إعطاء مساحة متساوية من قصصها للهندوس والسيخ والمسلمين، مؤكدة عمومية تجربة ثقافية. وتطرفها نحو حقوق المرأة كثيراً ما حُدّد من خلال وجهة نظر رواة ذكور. تدمج في قصصها من خلالهم نقدها للأنماط البطريركية، وبذلك تطرح أسئلة حادة عن الطبقات والجنس (بمعنى الذكورة والأنوثة). وعلى ما هو غير مألوف ربما في السياق الباكستاني، فإنه يمكن القول إن جميلة هاشمي روائية أفضل مما هي كاتبة قصة قصيرة. وقصتها المشهورة عن الاغتصاب والنفي عند التقسيم، «منفى» واحدة من أهم القصص المفضلة عندي بجميع اللغات، وتجمع برأيي بين النسيج الاجتماعي ـ التاريخي، واندفاع رواياتها بذاتية القصة القصيرة الحديثة

وقوة الكلمات في الأغنية الشعبية العاطفية.

إن فاطمة ألطاف، التي تنتمي إلى الجيل نفسه روائية جيدة، وقد أظهرت في عشر السنوات الأخيرة تميزا في شكل القصة القصيرة، الشيء الذي يضعها في الصفوف الأمامية بين الكتاب الباكستانيين. قصتها هنا، تجمع السرد بين التقليدي وتعدد الأصوات ما بعد الحداثي تحت غطاء من الاعتراض السياسي لتحكي قصة إغراء وخيانة عالم الأنثروبولوجي الغربي لامرأة ريفية.

الجيل التالي من الكتاب، والذين ولدوا في الثلاثينيات والأربعينيات، وكثيرا ما يتنصلون من التأثير الوطني أو المحلي، ويتطابقون مع كامو وكافكا وماركيز وكونديرا. وعلى أي حال، فكلهم ورثوا عشقا للخرافة والأمثال الشعبية، ويميلون لتقديم آرائهم السياسية من خلال الحكاوي والشعرحيث إن كتاب عدة من هؤلاء هم من البنجاب، فقد أضفوا نكهة محلية وريفية قوية على لغة الأوردو، استخدموها ليصوروا الطبيعة الباكستانية المعروفة بدلا من الشمال الهندي المتمدن الأنيق، الذي كثيرا ما استحضر من قبل الجيل السابق. التقسيم يحتل جزءا أقل كثيرا في أعمالهم، وعادة ما تمثل الاستعارة أو المجاز اهتمامات راهنة مثل الاضطهاد العسكري والأعراف البطريريكية والجنس والتفرقة بين الجنسين.

من ضمن هؤلاء، فرخاندا لودهي، وراضية فاسح أحمد، وأم أمارة وخالدة حسين، وقراءة هؤلاء الكاتبات تمرين رائع في النقد المقارن لأي

حركة مماثلة في أمريكا اللاتينية أو أوروبا الشرقية أو الشرق الأدبي.

في مجال انشغالهن وتجاربهن، فهؤلاء الكاتبات اللواتي ولدن وقت الانقسام يتساوين في الكتابة بالإنجليزية مع كاتبات أي قارة أخرى، وربما يكنّ أقرب روحيا لكتابات آسيا جبار أو هدى بركات.

وحتى نكمل المجموعة، فلدينا اثنتان من هؤلاء: الشاعرة المتمكنة فاهميدة رياض، التي تحولت أخيراً لكتابة القصة، وهي إحدى أفضل كاتبات الأدب في البلاد. قصصها السياسية الجريئة، تتحدى التمييز بين الجنسين، وعذراء عباس، التي تكتب الشعر والنثر. هاتان الكاتبتان توضحان تماما تأثير السابقين في الشرق والغرب، وتحافظان على التوازن بين استمرارية ازدهار التقاليد الأدبية والمتغيرات في الاستراتيجية التي تحتّمها حالة التغير المتواصل التي تعايشانها.

ارتحالات النوم

عذراء عباس

الأقدام التي تمشي على الماء أقدامنا بكل تأكيد. وأنت تحدوك الرغبة في ملامسة الملابس التي تصدر حفيفا.

في داخلي يثور سؤال: هل تركت ألواننا الوردية على أطراف أصابعك آثارا باقية؟

هل تدرك أن الفراشات تبحث عن الألوان عينها؟ أما أنت فينبغي منك ألاّ تلمسها، فهي ستطير بعيدا حاملة معها تلك الألوان. وأقدامنا التي تمشي على الماء ستتابعها وهي تطير لكنها لن تستطيع إيقافها.

ولكن، هل ستكون تلك الأقدام حقا أقدامنا؟ في تلك الساعات، نكون منشغلين، ونحن جالسين بجانب أمهاتنا، بخياطة الثياب ذات الحفيف، تزكمنا روائح حادة بلون الغبار تنبعث من المطابخ والقدور.

وأتساءل: هل صحيح أنه في الأيام القادمة ستحاسب أجسادنا التي لوحتها الشمس الأخرى على آثامها، وأن الطيور ستطير بعيدا وفي ريشها تحمل نظراتنا المتسائلة؟ هل ذلك صحيح؟

في هذه الأيام أيدينا معطرة بعبارات أقوى من الحب. ننهض ليلا من أسرتنا، فتبدأ خلاخيلنا تخشخش لوحدها، والضوء الخافت يتدفق نوره من سواعدنا وينتشر بعيدا مثل عبق الطيوب.

إذن، أين ستقودنا الطريق؟

آه، أيها النور الذي يلاحقنا عبر الدروب المظلمة!

لماذا ونحن في عنفوان الرغبة لاجتياز البحار المسطحة، نبقى

مستسلمين دوما لطغيان المكان الذي نلبث فيه ولا يهدد استقرارنا؟ وأين خارج ذواتنا يمكن لأحلامنا أن تبتهج؟ وشكل الأصيل الساطع هذا، هل تدري لماذا يثير فينا الشعور بالاغتراب؟

(٢)

ترقد الوسائد فوق الأسرة الخاوية كفتيات مهجورات. ومع صخب الريح تحتدم الموسيقى وتغوص في الأجساد، فيما السماء تبحث عن البحر ويسرع الناس عائدين إلى منازلهم، وفي البعد، بعيدا «جدا» ، ثمة رؤوس تئن بأحلام مبهظة. جدول ماء بارد يجري في صدورنا ويثلجها، فيما ترفرف طيور بيضاء حولنا، في مناقيرها زوجان من الحمام يطارد بعضهما بعضا. وهناك، على الشواطئ ترسو سفن كانت مسافرة فيأتي أحدهما ليعابث الكتف المنقوعة في انتظار.

الأصيل بلون الدم الطازج! وأنت ستعود من تلك الشواطئ عندما يكون نور الشمس قد غطى نصف محيطات الأرض، والخطوات الحثيثة قد اعتادت الارتحالات المحدودة، وتستسلم النظرات اللاهثة بحثا، مذعنة للوحدة وبؤس الارتحال إلى الطريق الحمقاء.

وبعيدا، وسط أشجار كثيفة ذات زهور بيضاء، يتناهى وقع خطى لا تلتفت خلفها إلى محيطات غزيرة. وهنا تبدو الارتحالات بلاأصوات، وأشكال الأحلام تفر بلا توقف من خواطرنا كجذاذات القطن المندوف. المعاناة خلال الليل تزداد في الضوء المتلاشي والرغبات التي يمكن سماعها، كما تتلاشى أصوات حوافر الخيل

على الدروب المسطحة السهلية. ونحن ليس لدينا فكرة عن القادم من الأيام. ومن حولنا، تقترب عيون محدقة لا حصر لأعدادها، معلقة كحجارة سوداء متدحرجة على سفح تغطيه الأشجار المظلمة، تتحرك نحو المحيطات، وأجساد قد لوحها نصف الضوء المنتشر من الشمس، الذي يفر من بين دوامة أشجار الدغل، وظلال رياح وأصوات ولحظات لا تتوقف عن المسير، وسماوات تنطق، فاقدة القدرة على احتمال المزيد.

الصلوات المنطلقة من الأكف تتحول الآن إلى جزء من الهواء العليل.

(٣)

الشفاه المفعمة بالأوعية تلتقط أصدافا من الجدران الترابية الخالصة، تبقى ساهرة آناء الليل تنقش انطباعها على الريح العاصفة والمظلمة التي تطارد الأقدار. وكما في هدوء ساعات القيلولة الحارقة تلوح عذريتنا في لذة الاسم المثقل بالحب. المغفرة، يا إلهي!

هذه الغابة تتبعنا كظلال خفية، تزرع أغنياتها العارية في أجسادنا، وتماثل بشرا يطفئون ظمأهم في برك ملئت بالثعابين. عيون عصفور الدوري الخائف بجناحين مهيضين، ومخاوف جاثمة لاتحصى، وأول لغو للرضيع الذي لا مأوى له تبعث كأمطار السماء كلمات تتخلل الشفاه ناطقة بصلوات خاشعة. الرغبة في رحيل يوهن المفاصل تدب قبل الغسق، فلتذعن الأقدام مستسلمة للرحيل، فيما اللحظات التي تبهظ الجسد متواصلة في داخلنا. لكن الليل يطالب بتفسير لسر وحدته. وإذ نهرب نحن من السماء

اللامرئية لكي نتحمل معاناة الأيام المشؤومة، فإننا نحرر أنفسنا. أين العين الساهرة التي تبكي نصف القمر، وأين التصورات التي لا تكبلها الأحلام؟ أين كل ذلك الذي يتدثر الظلام؟

يا ضياء الوقت الذي يتدخل عبر أغنيات اللحظات، امنحني رشفة ظمأ.

أين ذلك كله، ذلك الذي يتدثر الظلام؟

عندما تبكي الجدران

فاطمة ألطاف

«سحب العربات التي تجرها الخيول من شوارع لاهور تدريجيا» (عنوان لجريدة)

«الحيونات المتوحشة ثروة وطنية ومن واجبنا أن نحميها» (ملصق على جدار)، ويقول الجدار: أنا لست ذلك الجدار الذي بناه البناء من خليط من الطين والإسمنت، أنا ذلك الجدار الذي صنعته الشمس وصنعه القمر اللذان يطلق اسميهما الناس على تلال مارغالا الجميلة. وأتمنى لو أستطيع أن أجعل صاحب المرسيدس السوداء التي صدمت طفلا كان يركب خلف أخيه على الدراجة بالقرب من مدرسة فحطمته وولى هاربا، أتمنى أن أجعله يرى ذلك الملصق.

وماذا عن ذلك الطفل الآخر، الطفل الذي ينبغي علي السفر بعيدا لكي أعثر عليه؟ ربما أنه ينتظرني.

ولكنه لا يعلم حتى بأننا كنا في طريقنا إليه. ذلك لا يهم. عيناه الزرقاوان، شعره الذهبي الخشن... لابد أنه يشعر بالوحدة هناك، وبالتعاسة.

القصة التي حكتها «غول بيبي» للقرويين هي القصة التي شاهدتها أنا، مشهدا فمشهد، طوال ستة أشهر. لكنني أقسم بالليلة الظلماء بأنني لم أسمع كلمة واحدة عنها إلى اليوم، مع أني احتفظ بها على شريط بداخلي من البدء إلى النهاية، وبكلماتها هي.

من؟ ماذا؟ متى ؟ لماذا؟

هي بنفسها ستجيب على كل أسئلتك.

ما عليك إلا أن تتذكر أنها امرأة : امرأة من الوادي، وجميع نساء الوادي - لا يهم أي واد، كشمير، كاغان أو كالاش - يذكرن المرء بالتفاح

الناضج المتدلي من غصون الشجر في حدائقهن.

جميع شخصيات هذه القصة هي شخصيات رئيسية: لا توجد شخصيات هامشية. وهذا هو التسلسل التقريبي لظهور تلك الشخصيات حسب الحبكة. أرملة لها ابنة فاتنة تزوجت حديثا. امرأة أجنبية شقراء ذات عيون زرقاء، وسائح أشقر بعيون زرقاء ، وإذا أردت أن تتجنب الشكليات، يمكنك أن تعتبره تلميذا باحثا في علم الإنسان. حسنا، لنكمل، بالاستماع إلى الشريط.

أخبرني أحدهم في السوق أن هناك عملا متوافرا في الاستراحة. سيدة أجنبية قد وصلت للتو وتحتاج إلى خادمة. كنت جائعة جدا. عشت بالقرب من المسجد عند زاوية السوق في كوخ من العيدان والقش. بعد طلاقي من حبيبي ماغول كنت أرقد بين سلالي كتفاحة فاسدة. عندما تركني ماغول، توقف عمي عن إرسال المصروف لي، وكنت جائعة. ذهبت بعد سماعي الخبر عن فرصة العمل وابتدأت العمل فورا، و لكن تلك المرأة بدت لي كأن بها مسا من الجنون. فهي غريبة الأطوار. تكتب طوال الليل وقد أشعلت النور، ثم تنام، ثم تستيقظ فجأة وتبدأ بالمشي حول غرفتها، وقبل حلول آذان الفجر تكون قد زودت آلتها الكاتبة بالورق وتبدأ بالطباعة. ثم يأتيني صوتها وهي تقوم بالطباعة. ثم توقظني وهي تنادي: غول بيبي، احضري لي بعض القهوة.

لم أستطع تحمل عاداتها تلك. خلال النهار كانت تنطلق في الأحراج لتجمع الأعشاب والجذور وأوراق الشجر. سألتني مرة: «هل يمارس أحد في قريتكم السحر الأبيض ياغول بيبي؟».

ولفترة من الزمن كنت أتساءل عن أمرها، على أي حال . وأقول لها بكل وضوح هذه ممارسات شيطانية. نحن المسلمين لا نمارس السحر.

فإذا لم تنفعنا الأعشاب والكمادات فإننا نلجأ إلى أحد رجال الدين ليعطينا تعويذة. وفي قريتنا لا يوجد (حتى رجل مقدس). بعد ذلك بدأت أراقبها. في الليل تقوم بخلع كل ملابسها وتقف أمام المرآة وهي تنظر إلى جسدها العاري. وتظل واقفة هناك وهي تحدق بالمرآة ثم تبدأ في البكاء، لكن بصوت مكتوم. أمر غريب. فتوة ماغول سلبتني شبابي ورؤية تلك المرأة أعاده لي ثانية. ظننت أن سحرها لابد وأن يكون قد أثر في، ولكن كان علي أن أهتم بطعامي. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت امرأة طيبة، ولم تنقطع عن الكتابة. في أحد الأيام تقرر الذهاب إلى البلدة ومعها كومة من أوراقها تلك، ولا تعود إلا بعد أيام.

شريط التسجيل يتوقف هنا عند هذه النقطة.

وهنا يظهر في بنطلونه الجينز وقميصه المخطط تحت معطفه «البشاوري» الفرو، والقبعة «السواتي» وحقيبة الظهر والكاميرا. ويستقر في الاستراحة. (انتظر ... لقد عدلت تسلسل الأشرطة ثانية. دعني أضبط الصوت قليلا...)

استقر وبدت عليه الراحة مما جعلني أعتقد أنه زوجها. لم أكن بحاجة لأسألها عن ذلك.

كانت هي تقضي أياما في الأحراش وهي تجمع عيدانها. أما هو، فيجثم لساعات على الصخور البيضاء بالقرب من نهر «ناران»، ويضع الطعم للسمك المختبئ في مياهه. يصطاد ما يقرب من (كيلو غرام) في اليوم من سمك التورت... (قف. عندما حاول أولادي صيد بعض السمك من نهر ناران أوقفهم الحارس الذي أثار جلبة عظيمة. وقد قلنا لا بأس، إذا لم نستطع أن نحصل على السمك فإننا سنتناول الحبوب عوضا عنها. يالحلاوتها وطراوتها هنا. حبوب الحنطة، حقول الذرة ...

أفكار تدور هنا وهناك، عند بوابات المدارس، ساعات من اللعب، خيول، صمت، حبيبات اللؤلؤ... وطفل بعينين لهما إشراقة وصفاء مياه الناران، وشعر يلمع كلمعان كيزان الذرة التي تنتظر، تنتظر ... من؟ ربما تنتظرني أنا...) قطع! المسجل ينطلق ثانية، أوتوماتيكيا، أو بفعل شيطان؟ الصوت: رجل في السوق.

بعد أن غادرت المرأة الأجنبية، فإن الرجل الذي ظنته غول بيبي حبيبها بقي في القرية أسبوعا آخر. في أحد الأيام، بحقيبته وكاميرته على كتفه، تمشّى نحو الاستراحة برجليه الطويلتين وطلب من الطباخ أن يعطي غول بيبي مفاتيح سيدتها عندما تعود.

رأيته وهو يركب حافلة « الكاغان». كانت غول بيبي مريضة ذلك اليوم. وظلت راقدة على فراشها في كوخها طوال النهار ووشاحها فوق وجهها. عندما أعطيتها المفتاح في اليوم التالي لم تصدق ذلك، وراحت تعيد على مسامع الملأ بأن السيد لم يحسن صنعا بتركه مفاتيح السيدة مع غول خان. من يدري ما أخذه من غرفتها ...

لم تكن تعرف حتى اسمه. واحد وعشرون يوما مضت منذ أن رحل، ثم ثلاثون. السيدة لم تعد بعد. «غول بيبي» لم تكن تقبض ما يلائم، وحيث إنها لم تكن تعمل، فكيف لها أن تطلب راتبا؟

هؤلاء الأجانب يطلبون منك أن تعمل عن كل قرش تطلبه. وفي أحد الأيام، لم ير أحد «غول بيبي» طوال النهار. وكان باب منزلها مقفلا أيضا.

وحتى عندما غادرت آخر حافلة إلى «كاغان»، أحضر صبيا في العاشرة من عمره اسمه سلطان رسالة إلى ابنة غول بيبي تقول: أمك

قد تزوجت من شاكور، وقد غادرت معه إلى «باتراسي» في آخر حافلة، شاكور وجد عملا في الغابة هناك. هذا المفتاح يخص السيدة الأجنبية، اعطه لها عندما تعود.

الرسـالة أدهشت الجـمـيع. لم يكن هنـاك ر جل بـذلك الاسم في قريتنا. ومضت أيام ثلاثون أخرى، بعضهم قال إنه رأى السيدة الأجنبية ومعها أمتعتها عند محطة الحافلات، فكرت في أن أخبرها عن المكان الذي يمكن لها أن تجد فيه مفتاحها، لكنها ذهبت رأسا من المحطة إلى منزل ابنة «غول بيبي» لتأخذه. ذلك أيضا، أدهشنا.

الصوت التالي، ناعم، صغير، صوت ماريا.

قابلتها عند مستودع شاحنات «بالاكوت». كانت يداها مصبوغتين بالحناء وفي رسغيها الكثير من الأساور. كانت ترتدي فستانا قطنيا منقوشا بالزهور، وكانت شرائط ضفائرها مزينة بأجراس صغيرة. بدت لي أنها حامل، ،وعندما مازحتها بذلك برقت عيناها، ثم قالت لي بنفسها إنها تركت مفتاحي مع ابنتها. يجب علي الآن أن أبحث عن امرأة أخرى لمساعدتي: سأمكث هنا لشهرين آخرين (الصوت يبدأ بالانخفاض. تنهد طويل) لم أتوقع ذلك منك ... جون؟

قطع.

صوت الرجل من السوق ثانية.

القصة كلها استمرت خمسة أشهر. حسبتها على أصابعي. الخريف كان قد بدأ. الريح الصحراوية منذرة بالثلج. تلك كانت حال الطقس حينها، عندما نزلت من الحافلة عند مستودع الشاحنات في الأيام. كانت ترتدي الأسود، ومعصماها كانا عريانين ووجهها بائسا.

شعرها كان مشعثا وبطنها كالبرميل. ذهبت إلى بيت ابنتها التي كانت تقف عند الباب وبيديها طبق من الطحين. وقعت بين ذراعيها وبدأت تبكي وتنتحب. وكان علينا جميعا أن ننبهها لأن تهتم قليلا بحالة ابنتها. ثم أخذناها من ذراعي ابنتها بصعوبة. وعندما سألتها عن مشكلتها، قالت إن شاكور قد تعارك مع الجن في الغابة وقد قتل في ذلك الصراع.

ولم يترك الجن جثته، بل أخذوها بعيدا.

ماذا سيحدث، قلنا لها، وعلى كل حال يجب أن تشكري الخالق...

الشريط يدور إلى آخره فجأة ثم ينقطع. لأنني قد استسلمت للنوم، أنا دائما أغفو عندما أكون قلقا. عندما ذهبت إلى المكتب صباح اليوم كانت الجرائد قد وصلت وأخذتها بالخطأ. بوم، بوم. من كل جانب هناك رائحة لحم محترق. رائحه الغبار المتصاعد من المنازل والمباني الساقطة. دبابات. رائحة الجثث المتعفنة. يا إلهي، كم يبالغ رجال الصحافة. هنا في ناران لا يمكنك حتى أن تصدق ما تقرؤه. يا رب، لقد خلقت الأرض جميلة جدا وقلوب الناس ... أين أذهب الآن؟ وقلوب الناس يملؤها الغضب. لن أعود. سأفقد نفسي هنا، في هذا الجمال. الأولاد يرتجفون: لكن المدارس ستفتح قريبا، هكذا يقولون. لايمكنك أن تقضي حياتك حزينا لمآسي الآخرين. وأنا إلى الآن لم أصل حتى إلى مكان الطفل ذي العينين الزرقاوين والشعر الذي كالذرة ... إذن، إلى رواية ولادته.

وهذه شهادة مولّدة عجوز لها يدان ملتويتان.

كان يشغل بال ماريا دائما عدم وجود مستشفى هنا أو حتى

مستوصف. إلى متى يستطيع الناس أن يعيشوا على الأعشاب والجذور والتعويذات؟ على أحد ما أن ينشئ مركزا للأمومة على الأقل. في الحقيقة أننا ظنناها طبيبة في بادئ الأمر، وكنا ننتهي عند بابها حاملين أوجاعنا وآلامنا وقروحنا. المسكينة كانت تبدأ بالبكاء وتقول لنا بالإشارات أنا لست طبيبة، ولكنك لا تستطيع أن تتوقع من أحد هناك أن يصدقها. النتيجة أنها كانت تتخلص من كل الأدوية التي أحضرتها معها لاستعمالها الخاص. هذه المرة راحت تتحدث إلى كل أصحاب النفوذ الموجودين، وفي آخر الأمر يقوم هؤلاء بإبداء أسفهم وهم يخبرونها بأن الأطباء لا يريدون العمل هنا. يقولون لها إن الأطباء يريدون أن يبقوا في مدنهم الكبيرة حيث المال الوفير. وتعود لماريا الدموع ثانية:

كنت أعمد لمواساتها، لا تقلقي، الرب موجود دائما.

ثم غادرت. فانظر لحكمة الله، الأم وابنتها تلدان في الوقت نفسه، وقد حاولت أن أساعدهما، هما الاثنتان أنجبتا ذكرين. وأنا غسلتهما وألبستهما. وعندما أخذت ابن غول بيبي إلى الملا وطلبت منه أن يهمس باسم الله في أذنه، فإنه ارتبك ارتباكا شديدا ووضع الطفل على الأرض كما لو أنه كان من نسل الشيطان. ثم زمجر: أي نوع من الأطفال هذا؟ شعر كشعيرات الذرة وعينان كالياقوت الأزرق. كان مرعوبا. أشرت له بأن يظل صامتا. لقد أعطي لنا من عند الله لذلك قم بعملك واهمس باسمه في أذن الطفل. وعندما رأت غول بيبي ابنها، تلاشت ابتسامتها وسقطت دموعها، ثم ماتت بهدوء.

أفضل خان، صهر غول بيبي، لا يزال يسألني كلما رآني بمفردي: هل أنت متأكدة أن حماتي أنجبت هذا الطفل؟ إذن ارفعي يدك في

اتجاه الكعبة واقسمي أن لا علاقة لزوجتي به.

وفي كل مرة ارفع بها يدي وأقول: علاقة «ماغول» بالطفل لا تتعدى كونه أتى من بطن أمها. الولد صغير السن جدا وليس باستطاعة المرأة التي حملته أمها في رحمها أن تحميه لأن زوجها يوقظها بالليل ويطالبها: اخبريني بالحقيقة، هل هذا الطفل ابن أمك أم أن القابلة وضعته بجانبها في منتصف الليل لحمايتك فقط؟ إذا كانت تلك هي القصة، فإنني أقسم بالله بأنني سأطلق عليه هذه الرصاصة، ثم يريها الرصاصة، ويقول: حتى ... حتى لا يلعب لعبة كهذه بحياة شخص آخر. لذلك توسلت ما غول جانيت التي كانت ستغادر بعد طول إقامة هناك. قالت لها: سيدتي، خذيه معك، منذ أن ماتت أمي وأنا أخاف أن أعطيه كسرة خبز. ليس لديه من يحميه.

نعم، يا «ماغول»، إنه ليس سمكة. إنه لا ينتمي إلى صنف محمي. لذلك يجب أن تصبري. كلانا يجب أن يصبر. وانتظري الوقت الذي ...

في ظروف محنتي، أتيت إلى هنا، إلى السوق. على المنحدر الذي يقود إلى السوق، هناك مسجد من الخشب، كنت أسمع صوت المؤذن القادم منه. لم يرتل قبل أو بعد النداء للصلاة، ولكنه الآن يقرأ القرآن. وعندما تسأل المرأة التي وئدت حية: ماذا كان ذنبك الذي قتلت من أجله ثم ماذا؟

تلك ستكون الساعة التي

تحجب فيها الشمس

وتفقد النجوم ضياءها

وتسير فيها الجبال

وتتحول البحار إلى لهب

ويفتح كتاب الحساب

ويتمزق جلد السماء

كل شيء في تلك الساعة.. ساعة الاعتراف، سوف يظهر.

وستبكي جدران المدينة إذ تشاهد كل ذلك، وفي داخلي سوف تتبلل جدران كينونتي برذاذ بكائي الصامت. وتعلن حروف ساطعة فوق تلال مارغالا:

الحيوانات المتوحشة هي ثروة وطنية! وحمايتها واجبنا.

العــراب

خديجة مستور

صمت منتصف الليل الشنيع بدا كأنه يهمس بقصة مهلكة. مشت «العراب» بثقة في منتصف الطريق المرصوف وكأنه ما بني إلا لها. أطلق الحراس صفاراتهم في مكان مجاور. ومن الصمت المنذر انبثق رعب غريب. العراب كانت غافلة عن صوت الصفارات. رأس عصاها المعدني يضرب الأرض، وحذاؤها الذكوري الثقيل يصدر صوتا عاليا. تقاطر اليأس من وجهها. تنهدت بعمق، مرة بعد أخرى، ثم نظرت إلى السماء بعينين متعبتين كما لو أن قفلا ثقيلا علق هناك. كانت تتمتم بشيء ما، تسب أو تصلي، من يعلم؟ الحراس كانوا يقتربون منها، لكنها واصلت سيرها بالثبات نفسه، خطوة واثقة بعد الأخرى. «من أنت؟» جاءها صوت قريب جدا. اضطرت لأن تتوقف. كان للطريقة التي وقفت بها الكثير من الأسى والحزن، ربما لم تكن تريد أن تتوقف. رمقها الحارس بنظرة وهو مندهش، امرأة بجسد قوي ضخم، وبيدها عصا، وتنتعل حذاء رجل وترتدي قميصا كبيرا فضفاضا، وسروالا واسعا جدا ولم يكن فوقه وشاح (دوباتا). العراب ظلت صامتة لوهلة وهي تراقب الجندي الأخرق، كأنها تقول: « دعني أكمل طريقي يا عزيزي.» التفت الجندي وأطلق صفارة عالية. خطوات باقي الحراس بدأت تقترب «من أنت؟ هل أنت خرساء، ولهذا لا تنطقين؟» كان الحارس يزعق وصوته يمضي ملوثاً المسافات البعيدة.

«لماذا تضايقني يا صديقي؟ اذهب واهتم بعملك»، قالتها العراب بهدوء.

قال الحارس وهو ينقض عليها: «أذهب لعملي، يا حقيرة! اخبريني من أنت».

«أنا عرابك يا ابن الزنا». عادت لها الحياة وأخذت تضرب الرصيف

بعصاها. وبدت هشاشة العالم كاللعنة تصفق وجهها كوقع المطر. تمتم الحارس بشتيمة. «تعالي إلى المخفر. تتجولين في الثانية صباحاً أيتها الساقطة».

«ستأخذني إلى المخفرأليس كذلك؟» أطبقت على الجندي مرددة، «خذني إلى المخفر، سأريك. خذني إلى المخفر.» ثم ضربت بعصاها رجله. فاستبد الخوف بالجندي، وما أن هم بعصاه حتى كانت العراب قد عاجلته بضربة قوية من عصاها على رأسه فشجته، وتناثر مخه حول المكان بفعل الرأس المعدنية. كانت تتمتم بما لا يعرفه أحد. وفي ضوء القمر الشاحب، تدفق الدم الغامق فيما خطوات الحراس تقترب أكثر.

رأت العرّاب الدم ورفعت قدمها استعدادا للهروب. وما كادت تبتعد بضع خطوات حتى حاصرها ستة من رجال الحرس. جردوها من عصاها وكبلوا يديها. تركوا اثنين منهم لحراسة الجثة وأحاط بها الأربعة الباقون، اثنان من كل جانب، وانطلقوا بها إلى المخفر القريب.

كان الحراس يتحدثون عن زميلهم القتيل ويشتمون العراب. لكنها سارت معهم صامتة لا أحد يعلم فيما تفكر. وبدا الليل وكأنه يبصق بغضب كما الجنود. وفي المخفر احتجزت العراب لمدة ثلاثة أيام. لم يكونوا بحاجة لاستجوابها، فقد سبق أن اعتقلت في السجن لأكثر من مرة. إنهم يعرفون ماضيها كله. احتجزوها ليعرفوا فقط لماذا كانت تكره الحارس المقتول، وليعرفوا منها عنوان حبيبها، ولكنها أصرت على أن ليس لها عشيق الآن، ولا حتى معارف. لم يصدقها أحد وقامت السجّانات بجلدها. في اليوم الرابع وضعوها في سيارة

عسكرية ونقلوها إلى السجن حيث تم حبسها في زنزانة إلى حين صدور حكمَ بشأنها.

عندما أحضرت العراب للزنزانة الانفرادية، لم تكن تضحك كعادتها، وهي تصف زنزانتها بأنها المنزل المحبب، لم تطلق النكات، ولم تداعب الحرس، بل ظلت صامتة تماماً. وعندما أغلق عليها باب الزنزانة الحديدي، فرشت حصيراً فوق المصطبة الطينية واضعة رأسها في الطرف العلوي منها ليكون وسادتها. كانت العراب تحدق بالسقف طوال اليوم، و هناك وضعوا إلى جوارها إناء من الألمنيوم به حساء مائي تعوم فيه بعض حبيبات العدس وخبزتان ناشفتان من الشاباتي(*) لإغرائها على الأكل. وفي الليل قاموا بإطعامها قسراً. لكن سلوكها لم يتغير كثيراً. وخارج باب الزنزانة الحديدي كان تغيير دورية الحرس قائماً: عنبر رقم ١، عنبر رقم٢ . «تمام»، «تمام». راحت أصوات الحارسات تجيب إحداهن الأخرى. وظلت العرّاب تتنهد. ربما عادت إليها اليوم ذكريات حياتها التي بدأتها ربة منزل هزيلة، عادت لتعذبها.

كان ذلك ربما ما تذكرته وهي مستلقية في الظلام تراقب شيئا ما.

تلك الأيام، عندما كان والدها يعمل كبيراً للخدم في منزل قريب ووالدتها تتذمر من شظف العيش على خمس عشرة روبية في الشهر. في تلك الأيام، كان اسمها كانيز، وليس العرّاب.

خمس عشرة روبية وستة أحياء. لم تمتلئ معدتها بالطعام قط. لذلك أصبحت مشاكسة. لم تشعر بالحياء باستيلائها على حصة أخواتها من الطعام لتملأ بطنها. وكانت أمها تعاقبها بينما تنوه بفضائل أخواتها وتحملهن، ولكن عندما يحين موعد الوجبات، فإنها تثب إلى

(*) نوع من الخبز الباكستاني والهندي.

المطبخ متناسية التحذير لتختطف كقرد نصيبهن من الطعام. وتضطر الأم الى مواساة بناتها الأخريات ثانية. كانت الأم تلعن كانيز وتتمنى لها الشر، وكانت كانيز تبكي وهي ترى أمها تسرف في عطفها على بناتها الأخريات. ولوهلة تصمت، ثم عندما تحين الوجبة التالية فإنها تعود لتثب إلى الطبخ محطمة بعض الأواني الفخارية وهي في طريقها إلى الطعام. ضربتها أمها على صدرها مرات عدة، كما أنها ضربتها بالعصي مرة أو مرتين. ومع ذلك، فعندما تنتقد بعض النسوة من الجوار تصرفات كانيز ويبدأن بإطلاق الأسماء عليها. فإن أمها تقول لهن بأنها ستكبر يوماً ما وستتغير. ولكن تصرفات كانيز ساءت أكثر. فعندما بلغت الثالثة عشرة حجزوها خلف حاجز، لكن أساليبها لم تتغير البتة. كما أن راتب والدها لم يرتفع. والآن فإنها تعلمت حيلاً جديدة. كانت ساعات طويلة تقضيها بالقرب من باب سكن الخدم، وعندما تظهر النساء من المنزل الكبير وهن مرتديات فاخر الثياب، كانت كانيز تأخذ في التصفيق عاليا وتبدأ بالزعيق.

«أرجو من الله أن يموت كل آكلي أطباق الرز مع اللحم (بوالو) والرز الحلو، أرجو من الله أن يموت كل من يرتدي الملابس الفاخرة». كانت تطلب من باعة (الباكورة) من الخضار المغطاة بالطحين والمقلية والحلويات أن يتوقفوا، ثم تهرب دون أن تشتري شيئا، مما يثير غضبهم فيشتمونها. ولكنها في أحد الأيام تجاوزت الحدود. شتمت السيدة زوجة الرجل الذي يعمل عنده والدها. سبتها لعدم إعطاء والدها زيادة في راتبه. وكاد أبوها أن يفقد عمله في ذلك اليوم. وأمر بإخلاء السكن. إلا أنه وقع على قدمي سيدته يستجديها أن تغفر لابنته غير الناضجة وقاحتها، الشيء الذي جعله يستمر في الحصول على كسرة خبزه. وعندما عاد الأب إلى بيته، ضربها بعصا غليظة ضرباً مبرحاً جعلها

غير قادرة على ترك سريرها لأيام عدة. بعد ذلك كان الباب يوصد عليها دائماً.

عندما كانت في حوالى الخامسة عشرة، رتبت لها أمها لكي تزوجها وتضعها في الطريق المستقيم. استدانت الأسرة عشرين روبية وبذلك بدأت فترة التحضير. خلال تلك الفترة، لم تتعارك كانيز من أجل الطعام وتألق وجهها على الرغم من معدتها نصف الخاوية. كانت بعض صديقاتها قد تزوجن حديثاً وأخبرنها بأن العروس، إضافة إلى حصولها على الطعام والملابس الجديدة، فإنها تحصل على نوع من الحب من زوجها لا يستطيع أحد أن يضاهيه.

بعد زفافها لمنزل زوجها. نسيت كانيز عذاباتها إلى جانب هذا الزوج الذي أحبها كثيراً، وحماتها التي كانت لشغفها بها تطعمها بيديها، ظهراً وليلاً. لكنها لما خلعت ثياب العرس للقيام بدور الزوجة في منزلها، أدركت أنها السيدة بالاسم فقط. فالأوامر تصدر من حماتها ذات الأسنان الشبيهة بأسنان الحصان، كما أن زوجها كان يسلم راتبه كاملاً إلى أمه. وبسرعة، ودعت كانيز وضعها كزوجة جديدة وحاولت أن تأخذ بزمام أمور المنزل.

لكن حماتها انقلبت وأصبحت كالساحرة الشريرة. أقفلت دونها باب الغرفة التي فيها الصناديق الثلاثة الضخمة، ومنعتها من الاقتراب من المطبخ او حتى النظر داخله. كما أنها منعتها من التصرف ولو بقرش واحد من راتب زوجها. حتى إنها منعت عنها بقايا الطعام اللذيذ الذي كان زوجها يسرقه من مطبخ سيده. وبسبب غيرتها من كانيز، فقد أصبحت تعطيها طعامها بمقادير ضئيلة جداً غير مكترثة إن عضها الجوع. وأخيراً، حاولت كانيز برقة أن تخبر زوجها، إلا أنه انزعج

وعنفها قائلا: «إذا تفوهت بكلمة واحدة عن أمي فلن تجدي من هو أسوأ مني. لقد كافحت أمي لكي تربيني، والآن كل شيء في هذا البيت هو ملكها».

ذهبت أدراج الرياح كل الجهود التي بذلتها كانيز لتوضح لزوجها صورة حماتها، ولم تنجح إلا في جعل زوجها ينفر منها أكثر. وبدأ يتجنبها. وكان هناك شجار متواصل بينهما، وأصبحت هي مصدراً كبيراً لعذاب حماتها التي لم تتوقف عن شتمها والزعيق في وجهها كل يوم، ولم يقنع حماتها تعاطف الجيران كلهم معها. وبحقد دفين، استمرت في إعطاء كانيز نصيباً ضئيلا جدا من الطعام لم يكن يكفيها. وعندما اقتحمت كانيز المطبخ ذات مرة لتأكل، تزايد طعن الحماة الشمطاء وأصبح أكثر ضراوة.

ولما لم يستطع الزوج تحمل الشجار المستمر، ضربها، وراحت هي تصب جام غضبها على حماتها. وعلى رغم موت والدها، فإنها هددت بترك المنزل بينما راحت حماتها التي بدت مسرورة بذلك تعيرها: «إلى أين يمكنك أن تذهبي؟» وكما لو أن الحماة كانت محقة، فتهديد كانيز لم يسفر عن شيء سوى التهديد.

ثم توقف الشجار لبضعة أيام حيث إنها كانت على وشك الولادة، وبعد شهر من الحجز، قامت من سريرها وصغيرها بين ذراعيها. ولكن حماتها لم تتحمل رؤية كانيز تتحصن بمشاعر القوة التي ترافق الأمومة أو وقوع ابنها الوحيد تحت تأثير زوجته بسبب ولادتها للطفل. وتحولت كانيز إلى نمرة، وما أن استعادت قواها حتى أخذت حماتها من شعرها وضربتها. وفي تلك الليلة، انتزع زوجها وحماتها الطفل الرضيع من بين ذراعيها وألقوا بها إلى الخارج.

لم تكن كانيز تعرف البلدة، ولا لمن تلجأ أو كيف تجد مأوى لها. راحت تسير بلا هدف وهي تغطي وجهها بالحجاب إلى أن رأتها زوجة سائق عربة الحصان (تونغا والا). كانت المرأة قد زارت كانيز مراراً ورفهت عنها بحديثها القذر عن ثرثرة الجيران. أخذتها إلى منزلها وأظهرت لها حناناً كبيراً. كثيراً ما ضربت كانيز على صدرها وبكت ورثت لحال نفسها وهي تشير إلى قطرات الحليب التي نضحت من ثدييها وبللت قميصها. تلك الليلة عندما أوقف سائق العربة عربته، زاره رجال السوق على غير عادتهم وهم يهمسون ويتمتمون، ثم أقفلوا الأبواب وبدأوا يلعبون القمار ويدخنون الحشيش. وجلست الزوجة على الأرض معهم ودخنت هي الأخرى ثم أجبرت كانيز على التدخين أيضا.

كانت تلك تجربة كانيز الأولى مع الحشيش. أثر الحشيش فيها ووقعت على السرير وهي تنادي على طفلها، درتها، طوال الليل. بعد أيام قليلة، ولم تكن دموعها قد جفت بعد، جاءتها زوجة السائق وأخبرتها أن أحد أصدقاء زوجها قد وقع في غرامها. البكاء لن يجدي، وإذا كانت تريد ان تستمتع بحياتها، فعليها أن تهرب مع ذلك الرجل. وكان هو يعدها بالرفاهية، لكن كانيز رفضت وأصرت على العودة إلى زوجها وحماتها. قالت إنها ستتحمل أي شيء إذا سمحوا لها بالعودة إليهم. ستجوع لكنها لن تنطق بكلمة. إذا منعوها من حمل طفلها فإنها لن تمد ذراعيها لتطلبه. وإذا منعوها من النظر إليه فإنها ستعمي نفسها بيدها. إنها تريد فقط أن تكون بقربه. وأخيراً، ذهب السائق ليقابل زوجها لكنه عاد بأوراق طلاقها. راحت كانيز تشد شعرها وتمزقه كالمجنونة. ضربت نفسها، وبكت وصرخت. عشيقها الجديد واساها بكل إخلاص وراح السائق يواسيها هو الآخر ويقوي من عزمها وهو يقذف بأبشع الألفاظ مضطهديها، لكن لا شيء من ذلك كان مواسيا. ظلت تنادي على

رضيعها طوال الليل، كلمته، صرخت صراخاً متواصلاً، ودخنت المزيد من الحشيش.

مر على تلك الحال أسبوعان حتى جاءت زوجة السائق وأخبرتها بأنه لم يعد باستطاعتها استضافتها أكثر من ذلك. فوافقت أخيراً على أن تغادر بشرط أن ترى درتها الرضيع لآخر مرة. لكنها اكتشفت أن زوجها وأمه قد رحلا إلى بلدة أخرى. بعد تلك الأخبار، لم تعد تبكي أو تنتحب، وإنما أصبحت تلتزم الصمت كما لو أنها تحولت إلى حجر. في اليوم التالي أخذها عشقيها إلى زقاق كئيب في البلدة حيث اكتشفت هناك أنه يعيش على السرقة. لم تعارض. وكان هو يلقي في حجرها بكل ما يحضره. ومع أنه بدا شديد الولع بها، لم تجد هي كلمة طيبة واحدة تقولها له. كانت تشتمه في كل مناسبة. تدخن الحشيش بكثرة وتفتر همتها في السرير. ولكن اللصوص والنصابين يريدون أي امرأة، وهذا البائس قد وجد المرأة بعد وقت طويل. ولم يكن ليتفوه بأي كلمة تغضبها، ومرت أيام كثيرة على هذه الحال.

التزمت السرير واستدعت العديد من القابلات لفحصها. وسريعاً ما اكتشفت أنها (عاقر) لا تستطيع الإنجاب، وذلك لأن حماتها لم تستعن بقابلة كفء عندما كانت كانيز تضع مولودها. بعد تلك الأخبار أصبحت كانيز أكثر غرابة من السابق. كانت تستلقي على السرير وتضرب على صدرها، تشتم، تدخن، وتأكل بشراهة، إلى أن أتلفت جسدها.

بعد سنة، ألحت بأنها ستساعد رجلها وذلك عن طريق العمل لدى إحدى السيدات الثريات. كان سعيدا بالفكرة وراح يعلمها بعض الحيل البسيطة للعمل، وكنوع من الاحتياط، علمها أيضا كيف تكسر الأقفال.

وبعد بضعة أيام تخلت عن حجابها وأصبحت تراقب المنازل لتسهل له مهمته. والآن أصبح الاثنان على اتفاق تام. وبدلاً من البكاء والرثاء، صارت تلتهم لترات من الحليب وهي تضحك. كما أنها لم تعد قاسية على عشيقها. ثم، وفي أحد الأيام، لا أحد يعلم ما الذي جرى لها، وبدلاً من سرقة ممتلكات سيدتها. اختطفت طفلها الرضيع. لكنها سرعان ما قبض عليها وهي تكتم أنفاس الطفل بقبلها المتواصلة، وتم حبسها هي وعشيقها في السجن لمدة سبعة أشهر لكل منهما مع الأشغال الشاقة.

التقت به ثانية بعد إطلاق سراحهما وعادا لعملهما في الشوارع الغامضة. لكن شريكها حذرها بأنها إذا عادت لأعمال كتلك التي تسببت في حبسهما فإنها ستقتل مقابل لا شيء. إن (العراب) الجيد لا يقع في قبضة البوليس. وعندما سألته عن معنى كلمة العراب، قال لها إن هذا الاسم يطلق على سادة الجريمة في بومبي وإنه كان قد عاش مع هؤلاء السادة لفترة طويلة.

بعد يومين أو ثلاثة طالبته بأن يناديها بالعراب في المستقبل. وإذا ناداها بكانيز فإنها ستهشم جمجمته وجمجمتها. وحاول عشيقها أن يقنعها بأن ذلك اللقب لا يلائم امرأة، لكنها تبرأت من أنوثتها. وبعد أن اتخذت ذلك الاسم، بدأت تراقب المنازل ثانية. وفي إحدى المرات حاولت سرقة أحد المنازل برعونة فما كان إلا أن ألقي القبض عليها وسجنت لثلاثين يوماً، بينما حكم على عشيقها بالسجن ستة أشهر وعندما التقيا بعد خروجهما من السجن هذه المرة، كان تصرف العراب أكثر غرابة من السابق. كان من الغرابة حيث إن عشيقها لم يعد يستطيع أن يفهمها. كانت تتجول في الطرقات في وضح النهار وهي تشهر عصاها.

عشيقها وأصدقاؤه المجرمون حذورها من أنها ستوقعهم في مشاكل هم في غنى عنها إذا استمرت هكذا، لكنها لم تكترث. استمرت في جولاتها وتدخينها ونومها. وأخيراً، هجرها العشيق بعد أن ضاق ذرعاً بها لتجاهلها تحذيراته وتوسلاته لها. وظلت مستلقية تراقب السماء وهي تعاني العطش والجوع. وفي تلك الليلة اقتحمت أحد المنازل بصخب وانتهت بالسجن لستة أشهر.

وعندما أطلق سراحها، جلست جائعة في الزقاق حيث كانت تعيش مع عشيقها. وعند المساء نهضت تعبة ثم ذهبت إلى أحد معارفها من الذين توقفوا عن الإجرام. استجدته بعض الطعام ثم سرقت العصا التي كانت في شرفته وغادرت.

حلكة الليل أصبحت أكثر بشاعة، لكنها سارت على تلك الطريق المرصوفة وهي تخبط بعصاها، ولا أحد يعلم ما يدور في ذهنها. ثم بعد ذلك كانت تقف وهي تحدق بالحارس كما لو كانت تقول له «دعني أكمل طريقي، إنني أشعر بالأسى. الحياة تبدو مفجعة الليلة. دعني أواصل سيري ...». قضت يوماً وليلة في السجن وهي صامتة. وفي اليوم التالي عندما بدأت تختلس النظر، مثل قطة، من بين القضبان الحديدية، لم يكن هناك أي أثر للحزن على وجهها. وعندما مر آمر السجن أمام زنزانتها نادت، هيه! قل شيئاً، إنك تمشي كالآلة. «لكن آمر السجن واصل سيره وهو يحدق بها، بينما راحت العراب تقهقه وتسب مثل الرجال».

كانت بحاجة ماسة إلى الحشيش بينما هي حبيسة الزنزانة الانفرادية. في المرات السابقة في السجن لم تنقطع عن تدخين الحشيش. عدم توافره الآن سبب لها خللاً في توازنها. جسدها بدأ

يؤلمها وسقطت مريضة. فحصتها طبيبة السجن لكنها أعطتها دواء مراً جداً مما جعلها تحطم زجاجة الدواء، ثم أخذت تقفز حول الزنزانة، مما أثار رعب الطبيبة.

في أحد الأيام حاولت العراب أن تلاطف السجانة المتطوعة التي كانت توزع الطعام، «هل يمكنني الحصول على بعض الحشيش يا حلوتي؟» «لا»، قالت المتطوعة. لكن الرأفة أخذتها بها فأعطتها سيجارتين من صنع محلي (بيديز).

«إذا أحضرت لي بعض الحشيش سأعطيك روبيتين»، حاولت العراب أن ترشي المتطوعة بالنقود التي تمكنت من إخفائها على الرغم من التفتيش الدقيق.

«لا. يا إلهي. لو اكتشف الأمر سأفقد فرصة العفو. يجب أن أخرج من هنا سريعاً. لدي أطفال صغار». واغرورقت عينا المرأة المتطوعة بالدموع. بعد ذلك، لم تفتح العراب الموضوع معها ثانية. بدلاً من ذلك، أخذت تضايق عاملات السجن الأخريات وتسبهن عندما يرفضن. اليوم، بعد مضي شهر، ذهبت العراب إلى المحكمة لسماع الحكم. استمعت إلى المحكمة وهي صامتة، ولكن عندما سمعت الحكم عليها بالسجن المؤبد أخذت تصرخ وتهز القيود التي في معصميها «لا أريد قضاء أربع عشرة سنة في السجن. وإذا بقيت على قيد الحياة بعد ذلك، هل سيعطيني القاضي بيتاً؟» وراحت تشتم بصوت عال بينما عاملات السجن يسحبنها بعيداً.

«هيه، أيها الوغد! أيها الكلب! لماذا أعطيتني أربع عشرة سنة فقط؟» عاملات السجن قذفن بها في السيارة وظلت تسب طوال الطريق إلى السجن. كان نصف ذلك قد انقضى عندما وصلت إلى هناك. أعطي لها

زي السجن وبطانية وقيدت إلى العنبر رقم ٢. عندما دخلت العنبر كانت السجينات الأخريات في الخارج للتمرين وهن ملتحفات بالبطانيات السوداء. رأت صفا بعد صف من الأكواب المصنوعة من الألمنيوم. أخذت تسب وتشتم في قرارة نفسها، ووجهها بدا شيطانياً وهي تتلهف إلى الحشيش. أخذت تتمشى في العنبر جيئة وذهاباً، وعندما عادت السجينات وأخذن يثرن موضوع الطعام، صرخت بهن بغضب «هيه يا بنات الزنا!. اصمتن وإلا قتلت إحداكن». وحصلت على أربع عشرة سنة أخرى.

«من تظنين نفسك يا عاهرة؟» ردت عليها إحداهن فوراً.

رفعت العراب أكمامها واضطرت السجينات الأخريات لتفريق المتصارعات. تعاركت العراب مع نساء عدة خلال الليل، وراقبتها عاملات السجن وهي تتقلب من الأرق في فراشها طوال الليل.

وعندما قدمت لهن الفاصوليا الباردة في وجبة الإفطار، وقفت في أول الصف وهي متيقظة». أعطني المزيد، هذه الكمية لا تكفي جزءا صغيرا من معدتي». رأفت المتطوعة بهذا الجسد الفارع وأضافت لها المزيد.

«وأنا أيضا»، قالت المرأة الأخرى التي تقف خلف العراب مباشرة.

«إذا أردتن الرفاهية يا عاهرات فابقين في بيوتكن بسلام» ورفعت المرأة دلوها. اشتمي واحدة أخرى ثانية وسأحطم رأسك، هددت العراب. واندفعت نحو الدلو، وعلى رغم أنها لم تحصل على الطعام، فقد تم جلدها ست مرات كعبرة للنسوة الأخريات. ثم صرفن كلهن للعمل. الجلد لم يحرز التأثير المطلوب. فالنسوة اللواتي تعاركن معها طوال الليلة الماضية أخذن يتصالحن معها الآن.

«أختاه، لماذا أنت مسجونة؟» سألت إحداهن وهي جالسة تخيط قطعة ملابس لإحدى السجينات. قالت العراب مقلدة المرأة باستهزاء «أختاه»، إياك أن تناديني بأختاه، اسمي العراب، العراب، إنني ألعن صنف الإناث! هل تعرفين من هو العراب؟ إنه سيد الإجرام. أنا لست امرأة، أنا مجرمة، أنا هنا لأقتل أحداً. «أعلنت ذلك بصوت عال ونظرت النسوة إليها برعب.

«هل هناك حشيش يا حبيبتي؟» همست العراب وهي تنحني نحو امرأة كانت تدخن السجائر المحلية بلا انقطاع طوال الليل. «يحتمل أن يوجد شيء منه لدى شابراتان» قالت المرأة وهي تشير إلى السجينة التي بسببها جلدت العراب ست مرات. «ألا يوجد أي مخدر؟» كانت العراب متألمة لعدم توافره. السجائر المحلية التي دخنتها كان لها طعم القش.

«هل لديك أي نقود؟» همست شابراتان وهي منهمكة بحياكة سلتها.

«نعم». وأخرجت العراب ورقة الروبية من تحت مئزرها ومدتها إلى شابراتان التي سحبت سيجارة حشيش من خصر سروالها وسلمتها لها.

«روبية من أجل سيجارة؟»

«نعم، يا سيدتي» أجابت شابراتان وهي تصرفها. ففقدت العراب أعصابها. «حسنا. خذي إذن روبية أخرى». وأمسكت يدها إلى شعر شابراتان وشدتها نحوها. وسادت فوضى بين النساء. ثم خطفت العراب روبيتها قبل أن يكتشف أحد سبب المشكلة وفرقت الأخريات بين المتصارعتين بصعوبة.

وسرعان ما بدأت النسوة في عنبر ٢ يشتكين من العراب ويتحولن ضدها. «إنها دائما تسعى للعراك». مرات عدة قدمن شكوى ضدها إلى

مساعدة المديرة مع طلب بنقلها. ولكن من يستمع لشكوى سجينات؟ عراكهن شيء يحصل يوميا. والعراب لم تكن سوى مشاكسة أخرى. وزادت حصتها في العمل الشاق. ولكن ما أهمية ذلك بالنسبة لها؟ لقد تعاملت مع العمل الشاق بكل يسر. وأخيراً، وليتخلصن منها، امتنعت السجينات في العنبر من التعامل معها. ولكن حتى ذلك لم يحدث أي تغيير وظلت العراب تضايق شابراتان وترغمها على تزويدها بالحشيش بالمجان. وعلى رغم أن شابراتان أقسمت بأنها لم يعد لديها المزيد، فإن العراب استمرت في الحصول على المخدر مجاناً وهي تهددها بأنها ستبلغ مديرة السجن عنها. صديق شابراتان الذي بسببه تقضي الآن حكماً بالسجن لمدة عام استطاع أن يوصل لها بالسجن كميات كبيرة من الحشيش بطرق لا يعلمها أحد. وهي بدورها جعلت السجينات يدمن عليه، وأخذت تبيعه إليهن بأسعار مرتفعة. لكن هذه العراب، اللعنة عليها، آفة خاصة بالنسبة لشابراتان. السجينات الأخريات يستقبلن زواراً يزودوهن سراً ببعض المال، لذلك راحت شابراتان تسأل العراب: «يا عراب، أليس لك أحد؟ لا عشيق، لا صديق؟ ها أنت لي، أليس كذلك؟ وستواصلين تزويدي، طبعاً؟» وتدس العراب يدها في سروالها فتنهض شابراتان جافلة. إضافة إلى الحشيش المجاني، فقد راحت العراب تستولي على نصيب من الطعام الذي تحصل عليه السجينات من زوارهن. كانت تتعارك معهن من أجله، وإذا لم تحصل عليه بالقوة، فإنها تسرقه بالليل، ثم تسمح لسجينات مثلها ليس لديهن زوار بمشاركتها الطعام.

وإذ تكتشف النسوة اختفاء طعامهن فإنهن يضربن على صدورهن ويبكين ثم يتعاركن مع العراب، إلا أن ذلك لم يحركها. مرات عدة تم جلدها وزيد عملها. ولكن مع كل ما تسببه من مشاكل ومع كل ما تسرقه

من طعام، فإنه عندما تأتي طبيبة السجن للمعاينة فإن العراب تستلقي وهي تتأوه «إنني واهنة جداً يا دكتورة ولا أستطيع حتى بلع كسرة من الخبز. أرجوك صفي لي بعض الحليب». أما الأخريات فيعترضن فوراً: «يا دكتورة، إنها لا تكتفي بالتهام طعامها كله، وإنما أيضا تسرق طعام الأخريات».

وتبتسم الدكتورة وتغادر دون أن تكشف على العراب.

أحياناً تحصل الضعيفات من النساء على الحليب. فتشتم العراب بكلمات بذيئة النساء اللواتي تسببن في حرمانها منه. وأخيراً، تمكنت من الحصول على كمية من الحليب تكفي لأسبوع. ذلك اليوم وقفت تتأمل الحليب، وبنشوة المنتصر «هيا، اشتكين مني أكثر. أما أنا فسأجلس لأشرب الحليب». ثم تضحك بصوت عال لتغيظهن.

كان العراك عادة لدى العراب، تشد إحداهن من شعرها، تضرب أخرى، لكنها أيضا كانت لها أيام هادئة.. هادئة لدرجة أنها لاترد حتى على الاعتداءات عليها. وأحيانا تخفي وجهها وتبكي في السر، ثم تجفف دموعها، لتتوعد شابراتان، ثم تدخن كمية من الحشيش.

ومرت ألايام، والنسوة في العنبر يذهبن ويأتي غيرهن، ما عدا شابراتان. والجميع، القديمات والحديثات منهن، يعرفن العراب. وهي لاتزال تتعارك معهن على طعامهن وشرابهن لكنها أيضا تحميهن من عجرفة آمرات السجن. وفي إحدى المرات ضربت مديرة السجن لأنها أمرت بحبس إحداهن لمدة أربعة أيام في الزنزانة الانفرادية. ولكي تهينها ضربتها في حضرة جميع النساء، ونالت عشر جلدات لفعلتها تلك، كما حرمت من أي امتيازات لها. الآن أصبحت السجينات يشكين إليها آلامهن، وفي الليل عندما يبكين وهن يتذكرن بيوتهن، فإن العراب

تواسيهن بكلمات بذيئة تقولها بحنان وتجفف دموعهن، وتشاركهن حزنهن ثم تصمت.

في هذا المساء جيء بامرأة صغيرة ورشيقة إلى عنبر العراب وهي تحمل رضيعاً لا يتجاوز عمره الشهرين. في اللحظة التي وصلت بها، جلست الأم الصغيرة على الأرض وضمت الرضيع إلى صدرها وأخذت تبكي. تجمعت السجينات حولها وسألنها عن سبب وجودها هنا. ماذا كانت جريمتها؟ الأم لم تجب. وظلت تبكي بحرقة أكبر. وعرضت السجينات بعض الماء عليها وهن يهدئنها ما عدا العراب، التي جلست بعيدا، وهي تحملق. وعندما صمتت الأم بعد أن أنهكها الإرهاق من البكاء، تقدمت العراب وجلست بقربها: «مدهش يا عصفورتي الصغيرة، ترتكبين جريمة ثم تبكين. إذا كنت ذات قلب واهن، فكان عليك أن تلتزمي منزلك بكل أمان». «وما هي جريمتي؟» صاحت الأم الصغيرة وهي تعود للبكاء «لقد أوقعوا بي». وتسألها العراب بشيء من التعاطف «كيف أوقعوا بك؟».

«زوجي تزوج من امرأة أخرى بعد سنة من زواجنا»، بدأت الأم تروي حكايتها.

«بكيت وانتحبت لكنني تمالكت نفسي بعد ذلك حتى لا أحرم ابني، الذي لم يكن قد ولد بعد، من والده. عشت كالخادم في منزلي. ذلك لم يكف زوجي. وكان يأمرني: أريدك أنت، شخصيا، أن تجهزي السرير لي ولزوجتي. سيطرت على قلبي وفعلت ما أمرني ثم تنهدت ومسحت دموعها.

«وحتى بعد ذلك كنت كالشوكة في خاصرة زوجته الجديدة. وذات يوم طرحت نفسها أرضا وراحت تصرخ بأن أحدا قد سممها، فتجمع

الجيران كلهم حول منزلنا، وعندما فحصها الطبيب تبين أنها قد تناولت الكثير من الأفيون. عندما وصلت الشرطة أخبرتهم بأنني سممتها. وتم تفتيش المنزل، كما فتشوني أنا أيضا واكتشفوا بعض الأفيون مربوطا في وشاحي.

لا أعلم متى وضعته هي هناك. الشرطة أخذتني، ومن هناك إلى السجن، كنت في عنبر آخر منذ ذلك الوقت. كاد أبي أن يربح القضية، إن الله وحده يعلم كيف خسرها، وحصلت أنا على حكم بالحبس لستة أشهر، علق منها ثلاثة أشهر بسبب الطفل. أنا امرأة فاضلة، كيف سأواجه الناس بعد مغادرتي هذا المكان؟ لقد تلطخ شرف أبي.» وبدأت تبكي ثانية.

«هه، لكنك حمارة، لماذا بقيت تعيشين في منزلك كالعبيد؟ كان عليك أن تغادري في اليوم نفسه وتتخذي لك خليلا، ولما كنت قد انتهيت إلى هنا اليوم. «قالت العراب ذلك بعاطفة قوية، ثم لمست رجل الطفل النائم وقالت بنبرة حانية إذ تنحنحت لقد سحبت هذا الجرو معك. كان عليك أن ترميه في وجه أبيه وتقولي له «خذه وربه بنفسك» هيا، اعطني إياه لأحمله للحظات. وأخذت العراب الرضيع بحنان بين ذراعيها». وأنت، خذي هذه ودخنيها، وعرضت على الأم نصف سيجارة حشيش.

«أنا لا أدخن. ثم اسمعي، لا تسبي ابني ثانية. أنا هنا بسببه وإلا كنت قفزت من سطح منزلي وقتلت نفسي»

«ابني، ابني، من تظنين نفسك أأنت أم؟ خذيه.» ورفعت العراب الرضيع كما لو كان فأراً ودفعته إلى أمه. ثم لعنته، سراً، لساعات.

في تلك الليلة تقلبت العراب. وهي تنظر إلى الطفل وتتمتم بأشياء،

في وقت اعتادت أن تكون غارقة في نومها وهي تشخر، غافلة عن عضات البراغيث المختبئة في بطانيتها.

وعادت العراب فجأة إلى حالتها السابقة التي كانت عليها في بداية دخولها إلى السجن. تتعارك، تثير المشاكل، وتشتم بأقذع الألفاظ. وكانت بالذات عدائية نحو أم الرضيع. واعتادت أن تختطف الطفل منها ثم تدفعه إليها بفظاظة. وتقلدها بتهكم «ابني. من تظنين نفسك، لمجرد أن لك طفلاً؟ وكانت العراب تزأر والمرأة تنظر إليها باندهاش وفزع وهي تضم الطفل إلى صدرها بقوة وتبكي. وكانت النسوة يلعن العراب. وإذا استيقظ الطفل باكيا في الليل فإن العراب تصرخ «اسكتي هذا الجرو. لقد أقحمته علينا ليزعج منامنا». وحاولت بعض النسوة أن يقنعنها «اسمعي يا عراب، إنك تشاكسين بلا سبب. أي طفل هذا الذي لا يبكي؟».

«إذن دعوهم يبكون ولكن لماذا يزعجون منامي؟ اجعلوا عروستنا الصغيرة تكتم صوت الصغير». وترد الأم الصغيرة وهي ترتعش من الغضب «أليس من الأحرى بي بدلاً من ذلك أن أكتم صوتك أنت؟» ثم تنخرط في البكاء ثانية.

صمتت العراب. وبينما نامت النسوة، فإن العراب ظلت تتقلب في فراشها. في أحد الأيام ارتفعت درجة حرارة الطفل قليلاً. وكانت الأم تغرق في دموعها. وبرفق شديد، توسلت العراب إلى الأم أن تسمح لها بأن تحمل الطفل. ولكن عندما جاءت الطبيبة، أمرت العراب بأن تعيد الطفل فوراً، وأصرت أن تسمع شكوى الطفل من أمه. وأذعنت العراب ولكن دمها بدأ في الفوران. وانتحبت الأم وهي تحكي «يا دكتورة، إن ابني مريض جدا. لقد كان غائبا عن الوعي طوال الليل. لم يفتح عينيه،

إنه جوهرتي، جبهته كانت تشتعل من الحرار ة كالنار».

«لم تكنَ به حمّى أو شيء من هذا يا دكتورة». تتدخل العراب باستياء، «لقد ظل يصرخ طوال الليل وهي تدعي أنه كان فاقداً وعيه». وأشارت الدكتورة على العراب أن تلزم الصمت، وفحصت الطفل، ثم كتبت له دواء أُعطي للطفل بحضورها.

اليوم جاء والد الطفل للزيارة وقد أحضر معه بعض الملابس والألعاب الصغيرة لطفله. وقد بدا السرور على وجه الأم. «يقول أبي إنه رتّب لطلاقي وإنني سأتزوج من ابن أخيه» ،قالت بسعادة : «ابن عمي كان يحبني منذ زمن طويل. لم يرض أن يتزوج بعد أن فقدني. وعدا ذلك، فإنه سيضع ابني في قلبه.»

«أوه، إذن لديك عشيق» تقاطعها العرّاب. «هذا النوع من الحب زمنه قصير. لا تحلمي. لن يستمر.»

«حتى لو لم يستمر، على الأقل لدي ابني. سيقويني ذلك طوال حياتي. وما هو دخلك أنت بالموضوع؟» ولم تستطع العرّاب الرد بل ظلت صامتة.

غدا سيطلق سراح الأم والطفل. اليوم، حاولت العرّاب أن تحمل الطفل بالقوة لكن الأم لم تسمح لها بلمسه ولو لمرة واحدة، كما أنها لم تستجب لتحايلها. كانت سعيدة جدا فلم تستطع النوم طوال الليل. غنت للطفل وقبلته بينما كانت العرّاب تبدو بائسة.

«اصمتي واخلدي للنوم أيتها المخلوقة اللعينة»، صرخت العرّاب مرة بل مرات، ولكن الأم تجاهلتها ولم تنم إلا بعد ما انتصف الليل. وعندما استغرقت في النوم وساد الصمت في العنبر، جلست العرّاب في فراشها

ونظرت حولها خفية. مصباح من السقف أضاء المكان.

«عنبر رقم واحد. عنبر رقم اثنين. كل شيء على ما يرام .. كل شيء على ما يرام»، جاءت أصوات عاملات السجن من الخارج. زحفت العرّاب بنعومة إلى فراش الأم والطفل.

في الفجر، أزيحت البطانية من فراش العرّاب. وكان هناك صخب واضطراب. تجمع ضبّاط السجن، وضربت الأم على صدرها وهي تصرخ وتحطم وجهها بصخرة ثم تقع على الأرض. قميص العرّاب كان مربوطا بإحكام حول رقبتها، والطفل كان مستلقيا على صدرها وممسكا بحلمة ثديها في فمه. عيونهما شاخصة من المحاجر، وجسداهما باردان ويابسان.

وحصل له حادث

حجاب امتياز علي

أدخل إلى غرفة العلميات وهو مستلق على نقالة الجرحى. هذا اليوم كان ينظر حوله وهو يقف في شرفة الطابق العلوي من منزله. الصباح كان مشرقا ورائعا عندما سقط فجأة من هذا العلو إلى الأرض. لا يبدو أن أحدا قد دفعه، ولا كانت أرضية الشرفة من الضعف بحيث تنهار تحت وطأة وزنه. كيف إذن سقط إلى الأسفل؟ وعلى أي حال، ما الغريب في ذلك؟ لقد كانت تلك حادثة مثل كل الحوادث التي تحصل يوميا. حتى هو نفسه لم يكن واعيا بما فيه الكفاية ليفكر في هذا الأمر. ولاهو من النوع الذي يفكر في كل التفاصيل. من الواضح أنها زلة قدم جعلته يفقد توازنه، ويسقط. هذا السبب بدا مقنعا بما فيه الكفاية: لقد سقط نتيجة فقدانه توازنه، والحوادث تحصل هكذا.

عندما أحضر إلى غرفة العلميات، وعلى رغم أن جسده كان لا يتحرك وفاقد الإحساس كالجثة، إلا أن عقله كان شديد الهيجان كالمحيط، في انحساره و تدفقه ذاتهما، وبأمواجه المتلاطمة. إن عقل الإنسان لا يخلو أبدا من القلق والصراع.

كان لا يعي شيئا مما يحيط به. لم يكن بوسعه أن يرى الأغطية البيضاء التي تعلو رؤوس الممرضات، ولا وجوه الأطباء المقنعة. كانت عيناه لا تبصران الوهج الذي يصدر من الأنوار القوية لغرفة العلميات، وأذناه لا تسمعان أصوات المقصات والمشارط.

كان كذلك لأننا عندما نتذكر ولو حتى قيد أنملة من ماضينا، فإننا لانعي جبلا في الحاضر. لم يكن يعلم سبب إحضاره إلى هناك، ومع ذلك فإن سامعية ذاكرته وعين عقله تستطيعان أن تريا إلى مسافات بعيدة.

«مانو! مانو!» وصل الصوت إلى آذانه. تساءل عمن يكون صاحب الاسم وهو لا يزال يتردد في أودية الماضي السحيقة. ثم تذكر فجأة أن

مانو هو الجرو الصغير الذي استعارة من صديقه وأخذ يعتني به. مانو كان صغيرا لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يمص الحليب، ولذلك يظل يئن بصوت مملوء بالألم طوال الليل مما يثير اشمئزاز الجيران. ولو تركنا الجيران جانبا، فإن والدته حملت كرها لا معقولا للجرو.

مرات عديدة وبخته والدته بغضب، «تخلص من هذا الجرو وإلا سممته! إن هذا البائس يواصل صراخه طوال الليل!»

ولكن اليوم، بعد كل تلك السنين، لماذا يتذكر مانو؟

إنه الآن في الثلاثين من عمره، ومانو كان سخافة منسية من أيام طفولته!

وقد حصل أن مانو لم يسممه أحد، ولكن الطبيعة نفسها انقلبت ضده. دهسته دراجة بينما كان يمرح على الطريق. بعد تلك الحادثة، أصبح مانو عزيزا جدا على والدته. أحضرت مرهما لجروحه من السوق، وقامت بعلاجه وتضميده. وضعت له سريرا جديدا وأصبحت تتحمل عويله المزعج بجلد وثبات. يالذاك الجرو المسكين! لقد جرح. وأدرك أن ذلك الحادث الخطير جعل والدته ترثي لحال الجرو الصغير.

وابتدأ صوت عويل مانو يمحى تدريجيا بينما خطرت على باله حادثة أخرى من الماضي القريب. في ذلك اليوم، الجمعة، غادر المكتب مبكرا قليلا. وفي طريقه إلى المنزل قرر أن يذهب مع زوجته فيروزة للتنزه بالقارب وسيأخذ معه بعض المرطبات كذلك. على الطريق نفسها يقع منزل أحد أصدقائه. توقف هناك ودعاه ليصحبهما. وللحظات خطر بباله أن صديقه هذا لا يعجب زوجته وربما أنها ستنزعج لدعوته، لكنه فكر في أنه سيستطيع إقناعها، فأحمد ليس سيئا بالقدر الذي

تظنه هي. لا أحد ينكر أنه كاذب ولكن من منا لا يكذب؟ اشترى شطائر الدجاج وأصابع الجبن وأسرع إلى المنزل. كان حاملا أكياس الطعام، وود أن يصرخ فرحا كطفل وهو يعانق فيروزة، وأن يخبرها بأنه حصل على إجازة إضافية. وعندما وصل منزله صاح «فروزة، فيروزة! انظري إلى ماأحضرت. لقد سمحوا لنا بمغادرة المكتب مبكرا اليوم!»

وتركت زوجته ما بيدها من أعمال المنزل و جاءت إلى الغرفة.

«ما الذي أحضرته؟»

«شطائر الدجاج وأصابع الجبن، سنذهب في القارب» قال ذلك وهو يضحك.

«اجازة من المكتب تثيرك كطفل هارب من مدرسته» قالت مداعبة. قال وقد شعر بانزعاج قليل «لو ذهبت إلى المكتب كل يوم ستفهمين أن نظامه وقوانينه تعني لنا الشيء نفسه الذي تعنيه المدرسة والعبودية للطفل. حسن، ضعي كل هذه الأشياء في سلة الغداء واملئي الترمس بالشاي. هيا، يجب أن نسرع حيث إني طلبت من أحمد أن يدبر لنا زورقا. سيكون بانتظارنا على الشاطئ.»

«لماذا نحتاج أحمد ليصحبنا؟» قالت بنبرة تخلو من السعادة. «كان باستطاعتنا أن ندير الزورق بسهولة عندما نصل إلى الشاطئ. أنا لا أحب أحمد بصوته العالي.»

«لايبدو أن أسبابك مقنعة. وأحمد ليس سيئا. لماذا تكرهينه؟»

«حسن»، لأنه يثرثر كثيرا! كما أنه ينقل الكلام من شخص لآخر. أليس هذا كافيا؟

إنني أكره الناس الخطرين أمثاله.

وضحك قائلا: «هؤلاء الناس هم حياة الحفلة وروحها. سامحيه هذه المرة ولا تظهري عدم سعادتك. لقد لا حظك المرة السابقة»

«ووافق أن يصحبنا اليوم؟ من يستطيع أن يعجب بشخص كهذا لا يستحي من شيء؟». قالت فيروزة بازدراء. «حسن! حسن! تحمليه اليوم فقط. لن أدعوه ثانية. إنه بانتظارنا على الشاطئ الآن». ووصلا إلى الشاطئ.

وبمحض الصدفة، وبعد أقل من نصف ساعة منذ بدأت المجموعة الصغيرة بالتنزه بالقارب، ارتفعت سحابة داكنة وهبت عاصفة قوية، وضربت موجة من الريح الزورق بعنف مما أدى إلى انقلابه.

بعد ساعة، تمكن هو وزوجته من الوصول إلى الشاطئ بسلام ولكن لم يعثر لأحمد على أثر. الكل اعتقد أنه قد غرق. أحدهم قال إن سمكة التهمته، وقال آخر لا بد وأنه قد فقد وعيه وأن الأمواج سحبته بعيدا.

شعر بأن تلك الحادثة قد أثرت كثيرا على فيروزة. وقالت بصوت حزين تملؤه الدموع: «واحسرتاه! من كان يعرف أن أحمد سيفارقنا هكذا؟!»

«ظننت أنك ستسرين لما حصل؟»، علق ساخرا.

«لم أكن عدوته»

ولكن في اليوم التالي، عثر الصيادون على أحمد وهو فاقد الوعي. وقبل أن يحضره إلى منزله ليعتني به، تحدث إلى زوجته فيروزة أولا.

رجاها قائلا: « إذا لم تمانعي، فهل يمكنني أن أحضر أحمد إلى

هنا؟ سيعود إلى منزله بعد أن يتحسن وضعه» وأجابت فيروزة بعاطفة «أرجوك احضره إلى هنا. تلك الحادثة في الماء قد غسلت كرهي له».

وهكذا أحضر أحمد إلى منزله.

ثم لا حظ أن الحادثة قد غيرت موقف زوجته تماما. في السابق، لم تكن تحتمل وجود أحمد، ولكن الآن أصبحت فيروزة تشعر بالسعادة وهي تلبي له طلباته.

وفكر أن تلك الحادثة قد جعلت من أحمد شخصا يستحق العطف بنظر فيروزة. شعر بتشابه معين بين والدته وزوجته. حادثة مانو والآن هذه الحادثة! في هذا السياق، فالمرأتان متشابهتان، وفي سياق آخر، فهما مختلفتان تماما. من يستطيع أن يتحمل امرأة لا تشبه والدته في بعض الأمور؟ لو كانت فيروزة تختلف تماما عن والدته، مثل اختلاف الليل والنهار، لكانت مقبولة. ولكن ما يحيره هو أنه على الرغم من تشابههما ظاهرا، إلا أنهما مختلفتان. واحسرتاه! ذلك سبب صراعا، وزاد اضطراب قلبه.

قبل حادثة اليوم ببضعة أيام، كان قد بدأ يشعر ببعض الحزن تجاه زوجته. لقد أحبها كثيرا ولكنه في الوقت نفسه كان يحمل الكثير من الشكوى منها في قلبه. لم يستطع أبدا أن يفهم شكواه بطريقة عملية، وكيف يمكنه ذلك؟ هو نفسه غافل عن أسباب تلك الشكوى. إذن كيف يستطيع أن يتشاجر مع زوجته أو يتذمر منها؟

وتذكر. في إحدى الليالي تجادل مع زوجته حول موضوع صغير. عندما استيقظ في الصباح شعر بتوعك. كان متأكدا بأن زوجته ستتلهف من القلق بسبب مرضه حتى إنها يمكن أن تدلك له رأسه.

ولكن شيئا من ذلك لم يحصل. يومها رمقته فيروزة بنظرة غاضبة وقالت: «حان وقت المكتب. انهض، تناول فطورك ثم اذهب.» ولم يعرف كيف تلاشت سخونته وكيف اختفى صداعه.

وفي دقائق كان قد استعد وغادر البيت. ولكن الأسى والكآبة جعلاه يتكاسل ويتراخى. بعد الظهر اصطحبه أحد أصدقائه إلى منزله. لعب مع صديقه الورق طول المساء وتبددت - كما يبدو - كآبته. ولكنه عندما ارتقى درجات سلم منزله، عاد له غضبه بلا وعي، وظهر بحر من الاكتئاب في عينيه. وبروح محبطة، مر بجانب زوجته وذهب إلى غرفته.

«ما بك يا حبيبي؟ تعال إلي!» ترددت أصداء كلمات زوجته المحببة إليه في أذنيه المصغيتين. تناسى كل شيء، وكان على وشك أن يسرع إلى زوجته لكنه أدرك أن ذلك لم يكن صوتها، وإنما صوت المذياع قادما من الطابق العلوي. كانت تمثيلية تذاع . وربما كانت أذناه قد سمعتا ما كانتا تتوقان إلى سماعه. ومهما كان ذلك الصوت، فإنه لم يكن صوت زوجته. ظل واقفا لا يتحرك، وغمره الاكتئاب.

في اليوم التالي، كان يقف في الشرفة في الطابق العلوي، ينظر حوله. كان النهار مشرقا وجميلا، فجأة، ومرة واحدة، لا أحد يعرف كيف سقط إلى الأرض. وتركت زوجته كل أعمالها المنزلية لتكون بجانبه. نعم! بجانب فراشه.

هكذا تحصل الحوادث.

الصحوة

ممتاز شيرين

«آبا، جلنار آبا! انظري، الآنسة فنس ...» نادى جاويد وهو يشد «الساري» الذي ارتدته بيديه الصغيرتين.

«حسن. يكفي ! آبا، آبا، طوال الوقت. انظر كيف خربت الساري الأبيض الجديد بيديك القذرتين! هل كنت تلعب بالطين أيها التعس؟» وبغضب ضربته على يده. عقد وجهه. «لا يا آبا. لكن الآنسة فنس في الطريق نحونا ...» قال وهو يبكي «أرجوك أن تناديها ... الآنسة فنس طيبة جدا. لقد أعطتني الكعك والكاكاو ... الكاكاو اللذيذة. أرجوك نادها، آبا آبا الحلوة.»

«كفى. قلت مذهولة. «الآنسة فنس، هنا؟» نظرت من النافذة، نعم، لقد كانت فعلا الآنسة فنس هناك على البعد، تسير نحونا وتتحدث إلى إحدى النساء. «إذن، هل أناديها؟» فكرت... وجلت بعيني في أنحاء الغرفة. الكتب منثورة في كل مكان، والأثاث! أحد الكراسي مطروح في الزاوية ووجهه للحائط، وآخر في منتصف الغرفة بسطحه غير المدهون. والكنبة! هه! حشوتها القذرة تطل من الشق المستطيل فيها. مفرش الطاولة؟ لقد لطخه جاويد برسومات وأشكال بالحبر. يا إلهي، ألا يوجد شيء بشكل مناسب؟ أوف ! من هو المغفل ذو السلوك المريض الذي بعثر الأوراق على الأرض؟ هل لأحد آخر أطفال أشقياء مثل أطفالي؟ وهذا الغبار بسماكة بوصة...! هل ماتت كاريمان؟ تلك البائسة لا تكلف نفسها حتى بكنس الغرف في الصباح. «كاريمان، يا كاريمان! أحضري المكنسة. هل جمعت هذا الغبار لتبيعيه؟»

«إنني قادمة يا بيبي! قادمة. دعيني أرفع الخبز عن النار قبل أن يحترق». إلى الجحيم هي وخبزها. يا لتعاستها، دائما أمام الفرن ... لكن لماذا أنا مستثارة، سألت نفسي، وبدأت أشعر بالخجل من

تصرفاتي.

المرأة المسكينة كانت بمفردها وكل أعمال المنزل فوق رأسها. لم نكن بذلك الغنى ليكون لدينا عشر خادمات. حتى واحدة تعتبر نعمة.

بسرعة غيرت مفرش الطاولة وسحبت الكراسي إلى أماكنها، وبدأت أجمع الأوراق المتناثرة في أرجاء الغرفة. وبينما كنت أجمع الأوراق، نظرت من النافذة. لقد توقفت الآنسة فنس! كم هي قريبة الآن! «زكية! زبيدة!» أطلقت صرخة عالية على الطفلتين. لا جواب! توجهت إلى الباب، نظرت إلى الخارج وشعرت بغضب عارم عندما رأيتهما في الفناء. زكية كانت تقف ممسكة بجاويد، بينما راحت زبيدة تتسلق البوابة وهي تمط عنقها لتحظى بالنظر إلى الآنسة فنس.

«زكية، هل لديك أي نية في المساعدة؟ ألا تخجلين وأنت واقفة في الخارج هكذا؟»

«لماذا أنت غاضبة؟ آبا! فأنا لا أقف عند البوابة دائما. اليوم فقط... هكذا» وضحكت وهي تنظر إلى تعابير وجهي الكئيبة.

«آها، آبا، إن حرارتك اليوم تعدت المائة درجة. هل أخبرك بشيء مثير جدا؟» قطبت وجهها ثم صفقت وقالت: «هل أخبرك يا آبا؟ ... أوه... إن الآنسة فنس تمر من هنا!» قلت: « أعرف كل هذا. تعالي هنا وساعديني في تنظيف الغرفة. أنت لا تعرفين غير الثرثرة.» وسحبتها من يدها.

«إذن آبا، هل ستنادين الآنسة فنس؟» سألتني وهي تقف من الفرح. زبيدة كانت ترقص هي الأخرى. لماذا لا يزال هؤلاء الأطفال يحبون الآنسة فنس؟

نهرت زكية التي كانت تحدق بالباب ثانية. الأوراق مازالت مبعثرة حول الغرفة.

«هه! لن أناديها، بسبب هيئة البيت». وبضيق ألقيت بالأوراق التي جمعتها على الأرض.

«ما الذي تقولينه يا آبا؟» كانت زكية تنظر إليّ باستغراب. تجاهلتها وناديت زبيدة، «زبيدة، جاويد! تعالا هنا.»

«لماذا يا آبا؟» سألت زبيدة وهي تدخل.

«تعالي هنا. إذا رأتك الآنسة فنس ستكتشف أن هذا منزلنا وستجيء لتراني.» وسحبت جاويد إلى الداخل أيضا.

«سيكون ذلك رائعا! لماذا لا تريدينها أن تأتي إلى هنا، آبا؟»

«هل ترين هيئة منزلك الجميل؟»

«سنرتب كل شيء. أرجوك دعيها تأتي، آبا» توسلتا بحماس.

«قلت لكما لن أناديها»

«أوه، آبا. لم نر الآنسة فنس منذ زمن طويل. ألم يمض شهران أو ثلاثة منذ أن تركت الكلية؟ بعد هذه المدة الطويلة وبالصدفة، فإنها هنا في مدينتنا وتمر بالقرب من منزلنا وأنت، أنت لا تريدين أن تدعيها للدخول هنا؟ آبا، إنك ...» وتوقفت زكية في منتصف خطبتها وضحكت وهي ترميني بنظرة خبيثة.

«صحيح! الآن عرفت ... منذ كان برويز بهايا ...»

«حسن، كفى! لقد بدأت بخطبك الرنانة» وقرصتها بشدة.

«أنت تتظاهرين يا آبا. انظري كم خجلت عند ذكر اسم برويز»

وقفت هناك خجلة فعلا، واحمر وجهي، وتقلصت من الداخل، تهت، وكأن الاسم قد رماني بالسحر. يالجمال هذا الاسم! برويز، يالروعته!

أفقت من حلم يقظتي لأجد الباب مفتوحاً على مصراعيه، الستارة تتطاير في الهواء، والآنسة فنس تقف أمام منزلنا تماما، ونظرها مثبت علي وعندما التقت نظراتنا ابتسمت وبدأت تقترب.

«أوه ! يا إلهي! ما الذي يمكن عمله الآن؟» هززت زكية.

«تدبري كل شيء. انظري... إنها قادمة إلى هنا»

وركضت مسرعة من الغرفة، ولم أتوقف لأتنفس إلا وأنا في غرفتي. بعد ذلك بلحظات عندما اختلست النظر خارج غرفتي، رأيت الآنسة فنس تجلس في الغرفة المجاورة للشرفة وزكية تقف إلى جانبها وهي تحمل طبقا جميلا من الموز والبرتقال .

«نادوا لي جلنار»، كانت الآنسة فنس تقول. فجأة، رأتني وأنا أختلس النظر فابتسمت ونادت، «جلنار!» فتراجعت بخجل خلف الباب... ما الذي فكرت فيه وهي ترى تصرفي الخجول؟ ذلك لمجرد أنني لا أزال أحمل لها الشعور نفسه. ها! كيف لها أن تعرف أنني الآن ... لكنها لا بد وأنها تخفي الانطباع الخاطئ نفسه... كنت دائما خجولة أمامها، أركض مبتعدة عندما تظهر. وعندما تنظر إلي كنت أخفي وجهي بكلتا يدي على رغم أني أريدها أن تواصل النظر إلي. كم كنت فتاة غريبة الأطوار في السنوات القليلة السابقة.

وبالتدريج بدأت أتعود عليها. وحتى بعد ذلك، فعندما نلتقي على غير توقع، فإن الارتباك يبدو واضحا علي. أي أيام كانت تلك الأيام! كنت قد

اعتدت على انتظارها في الشرفة لساعات بعد أن يقرع الجرس. الأسبوع الذي لم تكن تعطينا دروسا فيه كان أسوأ الأسابيع وأكثرها بؤسا. نعم، لقد شغفت بها. أحببتها لدرجة الهيام. وكم كانت الفتيات يداعبنني: «جلنار، نحن لا نعرف لماذا تعشقين الآنسة فنس، إنها ليست جميلة. وفي الحقيقة، لن نكون مخطئات جدا لو قلنا إنها قبيحة. «هؤلاء الساحرات، ليتني كنت أستطيع أن أخربش وجوههن! كيف لهن أن يعرفن كم هي جميلة بنظري؟ كنت منزعجة من «زارينا» مع أنها من أعز صديقاتي. وأتذكر أنني كنت أرتدي ساريا أسود اللون في ذلك اليوم، وكنت قد استعرت حلية (بنديا) سوداء من بورفا. كنت أنا وزارينا نتمشى في حديقة السكن عندما ظهرت انديرا فجأة... «آها، تبدين في غاية الجمال اليوم يا جلنار».

«مثل الآنسة فنس؟» اندفعت للقول بغير قصد.

«ها، الآنسة فنس. قالت زارينا بسخرية: «على الآنسة فنس أن تموت وتحيا ثلاث مرات لتحصل على جمالك!» وقد كنت شديدة الغضب منها.

«انزعجت مني يا (جل) ! حسنا، إنها أجمل منك بخمس مرات! هل أنت سعيدة الآن؟» وراحت تضحك بينما وقفت انديرا تبتسم هي الأخرى. وددت لحظتها لو أقتل زارينا. وفي كل الأحوال، من كانت زارينا لتهين الآنسة فنس؟

لو قيلت كلمة واحدة ضد الآنسة فنس، لكنت على استعداد لقتال الكلية كلها. ولن أكون بمفردي، بل لساعدتني الكثيرات من الفتيات في ذلك، حيث إن هناك الكثيرات ممن وقعن في حبها. زارينا كانت مختلفة، لم تكن لتضع العراقيل في طريقي، ولكنها ستسعد لرؤية

الآنسة فنس وهي تدللني. كم كانت ... غيرية تلك الفتاة!

وعلى النقيض منها كانت لا كشمي التي كانت تغار مني غيرة شديدة. لا كشمي فعلت كل ما في وسعها لتبعد الآنسة فنس عني وتجذبها لها. كم من ساري جميل لبسته هي، وكم كان سلوكها متكلفا وكم تزينت بالآلئ المصممة خصيصا، وكم كانت تلف شعرها بالمكواة الكهربائية، ها! وماذا كانت تستفيد من كل تلك المشقة بما أنها حتى لم تكن جميلة؟ ما كان على الآنسة فنس سوى أن تنظر نحوي لتشتعل هي بالغيرة. وعلى الرغم من قراءتها لمئات المراجع في مادة الآنسة فنس، فهل استطاعت أن تكتب أحسن مني؟ هل حققت علامات أعلى مني؟ وعندما لم ينفع شيء، فقد كانت غيرتها تتمكلها فتسعى لاغتنام الفرصة لإبداء تعليق يسيء لي. وكانت تشتعل غيظا عندما تسمع أحدا يطري جمالي. فترد قائلة: «هه! هل يمكن لأحد أن يكون جميلا وبشرته ليست وردية وبيضاء اللون؟ إن طول الجسم ورشاقته هما أساسيات الجمال»، ليس لأنها هي بيضاء البشرة، ولكن لطول قدمها ونحافة جسمها الذي ليس به شيء من الجمال. كانت كالعصا الطويلة المبرية. فلم تكن لها انحناءات جذابة في شكلها، كما لم تكن لديها المرونة ولا الأسلوب. فهي ليست سوى قطعة من الخشب المسطح، بلا حياة. كنت أرغب بشدة في إسكاتها. «هه! لم تعرف أنه بالنسبة للجمال، فإن قسمات الوجه الفاتنة أهم بكثير من البشرة الفاتحة، والجسم الممتلئ ذي المنحنيات، له جمال الجسم الناعم، بل في الحقيقة إنه أجمل بكثير.» ولكنني أبتسم وأحافظ على صمتي. لم أكن أريد لها أن تشعر بأنها نجحت في إزعاجي.

أحيانا كانت تشير إلى إحدى الفتيات ذات البشرة الفاتحة اللون وتقول: «انظري يا جلنار، كم هي جميلة تلك الفتاة.» وتكون الفتاة التي أشارت لها قبيحة إلى درجة تجعلني أنفجر بالضحك بأعلى صوت: أنف

أفطس، فتحاته متسعة، وشفاه غليظة جدا، وجسد غير متناسق، ولكن حقا، لها بشرة فاتحة! وكنت أقول «لاكشمي، إنني أحيي ذوقك في الجمال!» وعندما تكتشف أن ذلك غير مجد، فإنها تنحدر إلى المستوى الشخصي فتسخر مني وتطلق علي لقب «السوداء» على الرغم من أن بشرتي حنطية...

ومن ثم كانت هناك زينات التي لم تكن تفارق الآنسة فنس. كانت زينات تتذمر بلا لباقة قائلة: «جلنار! إن الآنسة فنس تحبك أكثر من الجميع. «وماذا عن تلك الفتاة السمينة جدا ... يمكن أن تكون امرأة أكثر مما هي فتاة! وقد عاشت وتنفست من أجل الآنسة فنس، ولكم كانت طريقتها في التعبير عن حبها لها غريبة، الشيء الذي كان يجعل حتى الآنسة فنس تنطلق ضاحكة بأعلى صوت! أما «ناليني»...

«جلنار، بيبي»، تقول.

«ماذا يا كاريمان؟»

«السيدة طلبت مني أن أصنع لها التوست الفرنسي والسمبوسة. تعرفين أن الآنسة صحيبة قد جاءت لزيارتي. إن لدي الكثير من العمل، يا ابنتي، هل يمكنك تولي أمر تقطيع التوست؟ طفلتي الحلوة، سوف أخدمك دائما بكل إخلاص.»

فتحت الباب واختلست نظرة بحذر لأرى ما إذا كانت الآنسة فنس تنظر إلى هذه الناحية. كانت أمي تجلس بالقرب منها وكانتا منشغلتين بالحديث. سرت على أطراف أصابعي إلى المطبخ. نظفت السكين جيدا، ثم جلست لأقطع الخبز. وضعت كاريمان اللحم المفروم والمطبوخ فوق المرقد وأضافت الملح والفلفل والبصل وبدأت بتحميرها. إذن فالتوست

الفرنسي في طريقه للتحضير، أليس كذلك؟ إنه من الأكلات المفضلة عند الآنسة فنس! مرات كثيرة صنعته بيدي وأرسلته لها أيام دراستها في الكلية المحلية، وعندما نقلوها بكيت بكاء مرا! لقد تكلمت معي وحاولت أن تواسيني ولكنني لم أتمكن من السيطرة على دموعي. وبعد أن أن أتعبني البكاء، أقنعت أبي أن يرسلني إلى مكان عمل الآنسة فنس فقابلتها. مرت سنتان بسرعة البرق. كنت سأحضر امتحان الكلية النهائي ثم افترق عن الآنسة فنس إلى الأبد. لم أستطع تحمل التفكير في ذلك. تمنيت لو أن الكلية تعطي شهادة الماجستير لأتمكن من قضاء سنتين أخريين معها! حتى إنني فكرت بالرسوب في تلك السنة، لكن الرسوب سيكون شيئا معيبا جدا لفتاة حصلت على أعلى الدرجات في الفصل دائما، ولكن ذلك لم يضايقني أبدا. والمدرسون كانوا يتوقعون مني أفضل النتائج. كنت سأحصل على العديد من الميداليات والجوائز في الاجتماع السنوي.

الحصول على المرتبة الأولى كان شيئا عاديا بالنسة لي، وستكون هناك ميداليات خاصة لذلك، ولكني كنت سأترأس قائمة الدولة في علم الاجتماع واللغة الإنجليزية. الأولاد كانوا سيصعقون، واسم كليتنا سيكتب بحروف من ذهب .. ولكني الآن لن يهمني أن أخيب آمالهم. وجاء يوم الامتحان النهائي وذهبت لأجتمع بالآنسة فنس.

وعندما عدت للسكن بعد أن ودعتها، ذهبت رأسا إلى غرفتي وألقيت بنفسي على السرير. أخفيت وجهي في الوسائد وبكيت بمرارة. الدموع المنهمرة جعلت عيني تحمران وغطاء السرير رطبا. وعندما جاءت زارينا احتضنتني وبدأت تواسيني. وكلما واستني أكثر كلما زادت مرارة بكائي. في تلك الليلة، ظلت زارينا معي لوقت طويل وهي تشرح لي الأشياء **حتى** صارت عيناي تحرقانني وبدأتا تغمضان تحت ضغط النعاس. **كم هي**

محبة زارينا تلك.

«هل انتهيت من تقطيع الخبز يا ابنتي؟ ناوليني القطع لأقليها بالزبدة، وياطفلتي العزيزة، احشي الفطائر باللحم واصنعي السمبوسة. السيدة تطلبها بسرعة. ماذا يمكنني أن أفعل يا ابنتي! تستطيعين أن تري بنفسك كم كبرت أنا. لا أستطيع عمل الكثير بيدي وإلا هل كنت أطلب منك العمل؟ لتغفر لي السماء! ليمتلئ هذا الفم بالدود لأنه نطق بمثل تلك الكلمات! فيداك الرقيقتان لايناسبهما إلا حمل القلم، كيف لي، أنا التي لا أتعدى كوني خادمة، أن أرغب في أن أراهما يقومان بأعمال حقيرة؟ فليصبني العمى قبل أن أود لك ذلك! بدأت كاريمان العجوز تتملقني. وقد حشوت الفطائر باللحمة وبدأت في تجهيز السمبوسة دون أن أرد.

يا لكثرة ما أحبتني الآنسة فنس. كانت تدعوني لمنزلها كثيرا وتصر أن أصاحبها في مشيها. وكم توسلت في ذلك اليوم: تعالي مرة يا جلنار، وسآخذك في نزهة بسيارتي. سآخذك إلى الحديقة. «كبريائي المجروح جعلني أرفض عروضها. ثم كم كانت كريمة بالدرجات التي تعطيني إياها! ثمانون أو خمسة وثمانون في المئة! وعندما ترى باقي الفتيات ذلك ينتابهن الحسد الشديد ويقلن، «طبعا، ألست أنت المفضلة لديها؟ فكيف يمكننا أن نحصل على درجات مثلك؟»

عندما تنطق الآنسة فنس باسمي كانت تتذوقه بفمها كما لو كان نوعا شهيا من الحلوى، وعندما تبتسم لي، كانت تبدي أعذب ابتسامات الحب. وأود فورا أن أناديها «آنجيلينا» بدلا من الآنسة فنس، ولكني لم أجرؤ على ذلك أبدا. ومع أنني كنت أتردد بفتح فمي أمامها، إلا أنني أكتب كل ما يجول بخاطري في رسائل. كتبت في وصفها: «ملكة قلبي»،

«حبيبي»، «ملكة الجمال»، «آنجيلينا الرائعة». كنت أكتب رسائل غرامية غريبة! ولم تنزعج هي مطلقا. ثم في أحد الأيام...

في أحد الأيام جلست معها أنا ولاليتا معها في الكرسي الخلفي للسيارة. وأثناء الحديث سألت لاليتا: «آنسة فنس» ، « هل تعرفين كيف تركبين الخيل؟» فأجابتها: لا. لكنني كنت أود أن أتعلم منذ زمن بعيد، ولذلك طلبت أن يخيطوا لي بدلة ركوب، ثم التفتت إلي، «معطفا وبنطلونا يا جلنار.» قالتها بطريقة جعلتني أذوب خجلا. «سأبدو تماما كرجل، أليس كذلك؟» جلست ووجهي مخبأ بكلتا يدي. نعم كان لها شيء من هيئة الرجل. طول فارع، صدر عريض قوي، وذلك الشكل يجعلني أحمر خجلا. حتى لو وقفت بين حشد من الناس تتحدث إلى فتيات أخريات، فإن عينيها تكونان مثبتتان علي أنا ... وكم كانت تبدو جميلة في الساري البرتقالي. ذلك الساري يعكس وهجا ذهبيا على وجهها، وستكون هناك حمرة خجل خفيفة على خديها مع زرقة خفيفة، وعن بعد فإن البثور على وجهها لن تبقى ظاهرة...

وضعت طبق السمبوسة أمام كاريمان التي بدأت بقليها. انتهيت أخيرا من كل الأعمال! جلوسي أمام الموقد لمدة طويلة جعلني أشعر بالحرارة، لذلك غسلت يدي ووجهي بالماء البارد، ومسحتهما بطرف الساري، وأدرت عيني نحو الغرفة التي تجلس بها الآنسة فنس. كانت لها الابتسامة الفاتنة نفسها التي سحرتني. الآن أنا جاهزة للقائها... ثم وقعت عيني على الساري الذي أرتديه. كانت عليه بقع من القذارة. والعلامات من يد جاويد ظاهرة بوضوح. كيف يمكنني الخروج بهذا الساري؟

رأيت زبيدة خارجة.

«زبيدة!» ناديتها. كانت تركض ولم تنتبه لندائي مطلقا.

«زبيدة، تعَالي هنا»

«ها، لن آتي. سأذهب إلى الآنسة فنس»

«ياحلوتي الصغيرة. اسمعي كلام آبا. سأعطيك يا صغيرتي بعض الشوكولاته»

«ماذا يا آبا؟» وقد لمعت عيناها لذكر الشوكولاته.

«حلوتي الصغيرة، احضري لي ساري آخر من الدولاب. انظري كم هو وسخ هذا الساري. كيف يمكن أن أخرج للقاء الآنسة فنس بهذا؟ هيا، خذي مفاتيح الدولاب.»

«حسنا، آبا. اذهبي بسرعة، الآنسة فنس لا تنفك تسأل عنك.»

لا تزال تهتم بي. ربما. منذ شهرين أرسلت لها رسالة مع إحدى الفتيات التي أخبرتني بسعادتها عند استلامها. ألم تسر في اليوم الذي وصلت، بلا سابق إنذار، إلى الكلية التي كانت تعمل بها؟ كنت أستطيع أن أراها من المكان الذي كنت أختبئ فيه وهي لا تراني. وكنت أرسلت فتاة لتخبرها بأنني قدمت طلبا للقبول بتلك الكلية. وبحالة من العاطفة الجياشة رددت اسمي مرات عدة. «جلنار، جلنار! جلنار! هل هذا صحيح؟» وأكدت لها الفتاة أن ذلك صحيح.

«أين هي؟ أخبريني» وبدأت الفتاة تشرح لها مكاني ولكنها تركتها غير مكترثة للتفاصيل وسارت تبحث عني. «جلنار! أين أنت؟» كنت مستمتعة وأنا أشهد نفاذ صبرها.

«أخيرا، كل شيء جاهز. لأريح هذا الجسد العجوز لبعض الوقت ...»

يالي من عجوز بائسة، دائما تتمتم لنفسها. وكنت متضايقة.

«بارك الله فيك يا جلنار بيبي. كم ساعدت هذه العجوز.» فرشت كاريمان قطعة من الخيش في وسط المطبخ واستلقت عليها. «أوه، هاأنت يا ابنتي. سيطيل الله عمرك. كنت أفكر فيك الآن، يا طفلتي! أنت معي في صلاتي طوال الوقت. أنا لا أكذب. لقد عملت في أماكن كثيرة ولكن لا يا سيدي، لم أر بحياتي فتاة كهذه. في المنازل الأخرى حتى الأولاد الصغار يعاملونني بقسوة، ولكن جلنار لم تقل لي كلمة واحدة جارحة، أبدا. والآن أيام العمل بالنسبة لي انتهت، وذلك هو السبب الذي جعلني أغادر منزلك. أقول لك بصراحة، يا ابنتي أنا جئت فقط عندما سمعت بخبر زواجك. لقد تمنيت دائما أن أراك عروسا. ليمنحك الله زوجا رائعا.»

هل يعقل أن يكون هناك زوج أروع من برويز؟ بسمة رقيقة بدت على شفتي. وبسرعة أدرت وجهي لكي لا تلاحظ كاريمان.

ثم، دفعة واحدة، خلا عقلي من كل شيء عدا: برويز ! برويز! ... وانجرفت إلى العالم المشرق الجميل، الأجمل بكثير، حتى من الكلية وعالم الآنسة فنس.

كان هناك وقت تساءلت فيه ما إذا، لو تزوجت، كنت سأستطيع أن أحب زوجي. وفي إحدى المرات، نظرت زارينا، التي كانت تعرف قراءة الكف، إلى كفي وقالت: «زوجك سيحبك حبا شديدا.» وشعرت بالرأفة لحال زوج المستقبل الذي اعتقدت أنني لن أستطيع أن أبادلة الحب. والآن؟ الآن انظروا كيف أعشق برويزي إلى حد الجنون!

«آبا، ها هو الساري». أخذت الساري من زبيدة. وضعته على الطاولة

وبدأت بتمشيط شعري.

كيف استطعت أن أنسى الآنسة فنس؟ لقد اهتمت بي كثيرا جدا. هل عبرت لي عن ذلك لفظيا؟ عندما كنت معها كانت خائفة جدا. كانت تسألني: « جلنار، ما عسى البنات يقلن؟ جلنار، لو رآنا المدير، ثم ماذا؟».

لو رأتنا الفتيات، فليرونا. هل ارتكبناجرما لنكون خائفات هكذا؟ أوه، ضعيفة القلب! وعندما كانت تحضر النسخ المصححة إلى الفصل تكون مملوءة بالمديح لأفكاري ووجهات نظري، ولكنها لا تخبر الفتيات أبدا بأنها أفكاري. وعندما تعيد إلينا أوراق الإجابة، فلم تكن لتلحظ اسمي حتى تعطيني أعلى الدرجات... ها، هل هذه طريقة تصرف سليمة؟ كنت الأولى في جميع المواد ولكن لم تعطني أي مدرسة أخرى الدرجات العالية نفسها التي أحصل عليها من الآنسة فنس.

ولكن حتى لو أعطتني درجات عالية، فقد كنت سأسر أكثر لو امتدحتني أمام جميع فتيات الفصل وقالت: «انظروا كم حصلت جلنار من الدرجات» بدلا من «رقم الجلوس الفلاني حصل على العلامات كذا، الرقم الفلاني فعل ذلك، وهذا، والآخر، والرقم الفلاني، والفلاني، والفلاني...» كنت قد أصبحت عندها « الرقم الفلاني».

حتى الآنسة جونز التي تحمل درجة الماجستير من أكسفورد، كانت تقضي نصف ساعة أحيانا وهي تمتدح مقالاتي مع أن مقاييس تقديراتها كانت عالية جدا. أما السيدة سوشيل ساروجيني فقد قالت: «لتتبارك السماء! لقد تفوقت جلنار نفسها هذه المرة. يا للإجابات الرائعة! لقد قرأت ورقتها مرات ومرات.» ولم تكن تتحرج من مدحي أمام المدرسات والفتيات الأخريات، وكذلك فعلت الآنسة كاملة أيضا.

ولو نحينا المدرسات جانبا، فالمدرسون أيضا امتدحوا ذكائي ومقدرتي. الاستثناء الوحيد كانت الآنسة فنس التي لم تنطق بكلمة مديح واحدة. ربما اعتقدت ذلك لا يليق بكرامتها!

ولكم وددت لو أنها قدرت جمالي! ليس طوال الوقت، ولكن أحيانا، كنت أفضل لو قالت «جلنار! كم أنت جميلة!» مرة واحدة على الأقل كان يمكن أن تقول «اليوم تبدين رائعة يا جلنار»، أو «هذا الساري يناسبك فعلا». كم عانيت من أجل ارتداء الساري المناسب في الأيام التي يكون لنا معها درس، وكم قضيت من الوقت في تسريح شعري بحرص وارتداء الأساور الملونة. كنت فخورة جدا بمعصمي وأصابعي، وكنت أضعها على الطاولة بطريقة تجعلها في أوضح صورة لعيني الآنسة فنس لكي ترى الأساور التي تزينها. كان من الواضح جدا أنها تعتبرني جميلة وإلا لما كانت تحدق بي كما كانت تفعل. وفي كل مرة شعرت فيها بالذات بأني كنت جميلة، كنت ألاحظ أنها تخصني بالانتباه. كانت عيناها تثبتان علي، وليكن. هل كانت تظن بأنني مصنوعة من الحجر، أو أنني كنت لوحة بلا روح أتقبل فقط الإعجاب الصامت؟ وعلى أي حال، فأنا بشر. فتاة صغيرة في السابعة عشرة، رومانسية وعاطفية! هل كانت ذخيرتها من المدح ستستنزف لو أنها قالت شيئا بصوت عال؟ صحيح أنها أستاذة دكتورة، ولكن السيدة سوشيل كانت دكتورة هي الأخرى. ألم تمتدح سوشيل جمالي ؟

في اليوم الذي لعبت دور الملكة نورجاهان والذي أمثل فيه حبها للموسيقى والرقص، لقد امتدحتني السيدة سوشيل كثيرا وأنا أضع المكياج: «جلنار! أنت من أنسب الفتيات لتلعبي دور الملكة نورجاهان. ما أروع ما تكتبين! السيد سوشيل يتغنى بمديحك. لقد درسك هو الآخر، أليس كذلك؟» وبعد أن أضفت المساحيق، وأحمر الشفاه،

والروج، قالت لي، «والآن ارفعي عينيك. دعيني أضع لهما المكياج أيضا.» وعندما فعلت أضافت: « تباركت السماء، يالجمال عينيك!» وكم تمنيت لو أن تلك الكلمات قد صدرت عن الآنسة فنس! من السيدة سوشيل، لماذا لم أهتم مطلقا بالسيدة سوشيل؟ ما الشيء الذي يميز الآنسة فنس؟ زارينا لم تمتدح عيني أبدا! ولاليتا أيضا! لاليتا كتبت شعرا في مدحهما! كما أن زينة كانت تقول: «جلنار، يجب عليك ألا ترتدي النظارات، إنها تخفي عينيك الجميلتين! «الكل كان يغمرني بالإعجاب. لقد اعتنيت جدا بعيني أملا في أن تنظر فيهما الآنسة فنس. وفي حصتها، كنت أنزع النظارات على الرغم من المشكلة التي تواجهني في قراءة ما هو مكتوب على اللوح.

هل كان لذلك أي تأثير في من يفتقد الإحساس؟ أما برويز! عينا برويز الفطنتان فإنهما من أول نظرة، تتجاوبان للجمال الذي في عيني. ستجعلانه يقول طواعية: «عيناك، عينا الغزال! ياسوادهما! يالهما من مسكرتين!»

في الكلية شاركت في المسرحيات من أجل أن تلاحظني الآنسة فنس. وقع الاختيار على مسرحية القديسة جوان، وأعطي لي دورجوان. كنت أرتدي الزي المزركش بإتقان لدرجة أنني ـ أنا نفسي ـ انفجرت بالضحك وأنا أنظر في المرآة، كنت أفكر، هل كانت جوان، ابنة القرية السجينة في المحكمة، سترتدي زيا كهذا؟ ولكن هنا في الأفلام والمسرحيات، فالبطلة يجب أن تظهر بأفضل شكل وترتدي أجمل الأزياء. لم تكن تلك غلطة السيدة سوشيل ولا الآنسة جونز اللتين تكفلتا بتجهيزي للدور. الآنسة جونز جعلتني أرتدي زي الركوب الخاص بها. وشعري الطويل رفع للأعلى بالمشبك وترك جزء منه يتدلى فوق الأكتاف. لم يكن ممشطا ولكن كان في فوضى مرتبة فنيا فوق الحواجب

والجبهة. الغلطة كانت غلطة فيدي! كانت تلعب دور دوق يورك، وكانت تضع أحمر الشفاه عندما حل وقت رفع الستار، وعندما مررت بجانبها وأنا في طريقي إلى الخشبة، أمسكت بيدي وسحبتني نحوها: «جلنار! ما هذا ! أنت البطلة! لا أحمر شفاه، ولا روج؟» وبسرعة، وضعت بعض الأحمر على شفتي ومسحت بعض الروج فوق خدي. وعندما اختلست نظرة سريعة في المرآة وأنا أمر في المكان، تجمدت. كم أبدو جميلة، حتى مع شعري الناشف غير الممشط! كنت متأكدة بأن الآنسة سوف تمتدحني اليوم. في الحقيقة لن يكون لها خيار سوى فعل ذلك.

في نهاية المسرحية جاءت السيدة سوشيل، الآنسة جونز والسيدة دانييلز وآخرون، جاءوا يهرولون فوق خشبة المسرح وأمسكوا بيدي بحنان وهم يهنئونني على أدائي في ذلك الدور الصعب. الكل كان منبهرا بأدائي. كل ذلك الإطراء، ولكن ماذا عن الآنسة فنس؟ لم تجلس حتى مع الجمهور لمشاهدة المسرحية، ولكنها وقفت في الكواليس لتوجه الممثلين. كنت قد توسلت إليها أن تجلس في مقاعد المتفرجين أثناء العرض وأنا أتشبث بكتفها وأنظر لها بتضرع. لو كنت في مكانها لكنت قد ذبت. حتى الحجر سيكون له شعور أفضل منها.

«جلنار! لقد حملت بعض المسؤوليات ويجب أن أنفذها». مسؤولياتك الجوفاء! حسنا، على الأقل فقد شاهدت العرض في الأجنحة.

في تلك الليلة تأخرت وأنا أعود إلى السكن. تجمعت الفتيات حولي في كل خطوة. «جلنار! لقد مثلت بإتقان تام! كيف يمكننا الإطراء على هذا الأداء! كم كنت جميلة على المسرح يا جلنار!» أنقذت نفسي من تزاحم الفتيات ووصلت مرهقة إلى السكن. كانت زارينا في الخارج بانتظاري. ركضت وعانقتني قائلة: «عزيزتي جلنار! يجب أن تقصي

شعرك وتضعي المكياج بالطريقة نفسها التي فعلتها في المسرحية. لقد كنت مثل الملاك الليلة، ولكن مكياجك لم يكن ملائما لشخصية جوان. أليس كذلك؟ عندما قال المحقق «جوان، تبدين شاحبة اليوم.. كان خدّاك متوردين كالفجر!» ورحنا أنا وهي نضحك. ركضنا نحو غرفة الطعام والذراع بالذراع. كل الفتيات اللواتي جلسن ليتناولن وجبتهن غمرنني بالمديح وأنا أدخل. ذهبت إلى سريري وأنا في منتهى السعادة في تلك الليلة ولكنني لم أستطع أن أنام.

هه! وهل همني كل الإطراء الذي سمعته؟ غدا سألتقي بآنستي فنس ... ملاكي... وسوف تمتدحني.

في الصباح التالي ذهبت لأراها بآمال كبيرة. ياللتوقعات. وعلى ماذا حصلت من آنجيلينتي فنس؟ وجه بلا تعبير ومحادثة بلا روح .. لقد كانت زارينا محقة وهي تقول: «جلنار، فتاة رومانسية مثلك وامرأة عديمة الإحساس وباردة مثل الآنسة فنس ... لا تتلاءمان. أنت نار وهي جليد ...»، كانت فعلا تفتقر إلى العواطف. جثة بلا شعور. تمثال من الحجر. كتلة من الجليد! كيف يمكن مقارنتها ببرويز! كل عرق في جسد برويزي ينبض بالحياة. إنه كالكهرباء. حتى في الصور فإنه يبدو رومانسيا.

وقد تمكنت من سرقة نظرة نحوه في اليوم الذي دعاه فيه أبي للعشاء ليعطيه هدية الخطوبة. كانت زارينا عندنا وكذلك «جابين» أيضا.

«خطيبك هنا» أعلنت زبيدة. وكم تسارعت دقات قلبي! ركضت زارينا وجابين إلى النافذة وهما يسحبانني معهما. «هيا انهضي يا جلنار! انظري إلى عريسك أنت أيضا». ترددت في البدء، ولكنني كنت متشوقة للنظر إليه. «ماذا ستقول أمي؟» «أوه، هيا، انهضي! لا تضيعي هذه

الفرصة الذهبية» ونجحت زارينا في سحبي نحو النافذة. كم كان خجولا وهو يقف أمام أبي، وعندما دخل إلى الصالة حاولت أن أختلس نظرة من خلال ثقب المفتاح، ولكن الثقب التعس كان صغيرا جدا! وأخيرا قمنا بوضع خطة. أطفأت جابين النور في غرفتنا حتى لا يستطيع أحد أن يرى ما بداخل الغرفة، وبهدوء، سحبت زارينا المزلاج وفتحت الباب قليلا. وبالطبع، فقد اندفعت كل من زارينا وجابين إلى الأمام... ولا أعرف لماذا توقفت أنا في الخلف.

«يا لوسامة هذا الشاب يا جول!» قالت زارينا وهي تعانقني بحنان. خفضت بصري من الحياء. « جولناري! كم تناسبان بعضكما». قالت وهي ترفع وجهي، والحب يقطر من عينيها. واصلت تلصصها. «يا لجمال جسمه وحلاوة عينيه! تعالي هنا يا جول! أنت فعلا خائفة من أمك!» وبدأت زارينا تشدني ثانية. «هل رأيت عيني برويزك؟ إنهما يناسبان عينيك ...» نعم، لقد رأيت كل شيء... الوجه الجميل. الشفاه الضاحكة. العينين الجميلتين المملوءتين بالحياة والاندفاع. «إنه يبدو رومانسيا جدا يا جول. أراهن أنه سيجن بك. أقول لك ذلك منذ الآن. جول، سيدللك لأقصى حد، سيرتديك كالقلادة حول عنقه». كنت أشتعل بالرغبة، ولقد سقطت بين ذراعيه .. مجنونة ..

«امرأة مجنونة، تموت من أجل الآنسة فنس. ما الآمال التي كنت تتوقعينها من تلك المرأة المتحجرة، عديمة الشعور. البرود ذاته والعينان الباهتتان في السعادة وفي الأسى، في الغضب أو في نفاذ الصبر! انظري إلى برويز، يا للوجه المعبر! كأن أشعة الضوء تنعكس منه ...» نعم، لقد بدا وكأنه العنفوان مجسدا. عيناه كانتا ترشقان النظرات في كل مكان، لماذا؟ ربما كان يحاول أن يجدني.

أردت أن أكسر الأبواب. تناسيت وجود الجميع، وددت لو أذهب وأقف أمامه. ماذا لو كنت أقف خلف ستارة وتحركت الستارة للحظة وابتسمت له بجرأة ثم خفضت عيني بحياء وتركته يقف هناك وهو يلهث؟ كنت أبدو فاتنة جدا وأنا بالساري من قماش الجورجيت ذي الحاشية المذهبة. لماذا يجب علي أن أخرج إليها بهذا الساري؟ سأرتدي ساري الجورجيت الذي اشتراه لي برويزي. نزعت الساري الذي ارتديته للتو وناديت زكية التي كانت في طريقها إلى الخارج وهي تحمل طبق السمبوسة.

«زكية، احضري لي الساري الأزرق، أرجوك. الساري الجورجيت»

«حسنا، سأحضره، ولكن تعالي بسرعة. أمي كانت تقول إنها لن تجلس مع الآنسة فنس للطعام. سيكون من الأفضل لو أخذت أنت مكانها». نظرت بلا اهتمام نحو الغرفة. كانت الآنسة فنس تجلس، ويداها متشابكتان، وتنظر إلى أعلى. عيونها بلا عاطفة وباهتة. شفاه شاحبة وفي منتهى النحافة، وبشرة تمتلىء بالبثور. فجأة بدت البثور وكأنها تزداد، تصبح أغمق وتنتشر في كل مكان. وجهها أصبح بغيضا. بسرعة هززت رأسي لأتخلص من الصورة التي حفرت داخله، وقد حلت محلها صورة أخرى تطغى عليها لبرويز: هاتان العينان الزرقاوان الجميلتان، الواسعتان، المسكرتان. ذلك الوجه، والجبهة العريضة الجميلة ... والشفتان.. يا لجمال تكوينهما! شهيتان، ممتلئتان، وكأنهما صنعتا من أجل الابتسام. تلك البشرة الداكنة. معشوقي الجميل. معشوقي أنا وأنا حبيبته. رفعت صورة برويز من الطاولة وقبلتها بحرارة من نفاذ الصبر. «أهذا هو الساري؟» أنذرني الصوت. وضعت الصورة في مكانها. كانت زكية تقف أمامي ومعها الساري. «نعم، هذا هو».

«آبا، تعالي بسرعة. السمبوسة ستبرد وأنت هناك تغيّرين ساريا

بعد آخر. كيف لا تبالين بينما الآنسة فنس هنا لم تكف عن الحديث عن جلنار؟»

«إنني قادمة»

رفعت الصورة ثانية ونسيت كل شيء، فقدت نفسي في جمالها. يا لطيبة الوجه. أوه، وهذه الشفاه! أول ما تنظر إليه عيناي هي الشفاه. هذه الشفاه و ... يا للفكرة ... وذبت خجلا. وضعت الصورة في مكانها ثم بدأت بارتداء الساري ... يا لفتنة شخصيته، ياللرجولة! وذلك الجسد، الطول الفارع والصدر العريض، الذراعان الطويلتان القويتان. بين تلك الذراعين .. أوف، هذه الأفكار ثانية.

كانت هناك كهرباء تسري في عروقي، ودقات قلبي تزداد! والدم كان يغلي، ينشر الدفء. النار. أوه، العواطف المتأججة، أي عاصفة! سقطت على سريري وخبأت وجهي في الوسائد. هذه الـ ... يا للذته.

«جلنار، ما الذي حدث لك؟»

أمي كانت تقف هناك ووجهها يتلظى من الغضب.

«الآنسة فنس تنتظرك منذ وقت طويل. أليس عندك أي اعتبار لكبار السن؟ كما أنها مدرستك أيضاً». وذهبت أمي وهي تتمتم لنفسها.

«إنها تنتظرك» «إنها تناديك» «إنها لا تكف عن الحديث عنك»، حسنا سأخرج لها. نعم، ولم لا؟ سأخرج بالتأكيد. مرتدية الساري الذي اشتراه لي برويزي. نعم، سأرتدي الخاتم الذي يشير إلى خطوبتنا. أخرجت علبة المخمل الصغيرة. يا للخاتم الجميل. خاتم خطوبتي. منقوش عليه بدقة الحرف الأول من اسم برويز، وتتلألأ فيه الجوهرة الخضراء الوحيدة وسط الجواهر البيضاء. نظرت إليه بفخر ولبسته. نعم، سأخرج هكذا

وسأخبرها كم أنا سعيدة بزفافي. لابد أنها تظن الآن أنني أخجل من تصرفاتي نحوها وبأنني سأقترب منها وأنا أضع على وجهي تعبيرا حزينا، وجها آسفا، وبأنني سأشرح موقفي بصوت يملؤه الألم. آلامي! ربما سأبكي! لكم ستدهش مني! وعندما ترى الساري ستصيح، «كم هو جميل هذا الساري!» وسأجيبها بفخر، «برويز اشتراه لي» وسأتكلم عن برويز. بفرح، سأخبرها كم هو وسيم. سأصر على أن تحضر زفافي ... سأخبرها كم أحب برويز. وستحترق وهي تسمع ذلك. ألا ترون ذلك؟ بالتأكيد. ففي ذلك اليوم عندما عدت إلى المنزل دون أخذ إذن بذلك، سألتني مرات ومرات، «جلنار، هل ستتزوجين؟» وعندما أنكرت لم تصدقني. «أنت تخفين الخبر عني يا جلنار». ذلك كان سبب عدم تهنئتها لي عندما تلقت خبر خطوبتي ... والآن وهي ترى وجهي يفيض بالسرور بدل الحزن، وهي ترى السعادة والآمال، لكم ستحترق! هه! ولو احترقت، فلتحترق. هل يهمني لو احترقت كالجمرة؟ وأثناء مروري رفعت صورة برويز.

الجحيم

راضية فاسح أحمد

«ثلاثون سنة، منذ ثلاثين سنة وأمي تكتوي بلظى هذا الجحيم، ولا تزال»، قال ناصر ويداه ترتعشان ووجهه شاحب من الانفعالات والإجهاد.

«لم أكن معها منذ ولادتي، على رغم أنها لا تبعد عني سوى خطوات! هل سمعت شيئا كهذا من قبل؟ أخبرني، أخبرني. » ازداد صوت ناصر عنفا وزادت بحته وهو يطالب «إعجاز» بالرد على أسئلته، على رغم أنه لم يكن يعي ما يقول.

شعر إعجاز بالضعف. وتقدم ناصر نحوه ليواسيه قليلا. وضع رأسه على كتف صديقه وانفجر بالبكاء. بكى كالطفل حتى تلاشى كربه وشعر بالراحة قليلا، ثم رفع رأسه عن كتف إعجاز ونظر إليه بخجل وحيرة. وقبل أن ينطلق إعجاز بكلمة، تحرك ناصر نحو النافذة وجلس هناك على كرسي غارقا في أفكاره.

كان إعجاز قد جاء ليقضي إجازة الصيف مع صديقه ناصر في منزله. وقرية ناصر من أجمل القرى التي رآها في حياته. فهي تقع في الوادي بالقرب من نهر جارف، محاطة بأعشاب خضراء كالزمرد، وبأزهار برية مختلفة الألوان. سلسلة من الجبال المرتفعة تطل على الوادي فتبدو كأنها تحاصرها، لكن ذلك يضفي على القرية منظرا بديعا في الوقت نفسه. والد ناصر هو سيد كل الأراضي المجاورة، بالإضافة لامتلاكه بعض مصانع السكر. لم يكن غنيا فحسب، ولكنه أيضا كان السيد الأوحد لكل شخص وكل شيء تحت يده. كان هو الملك والقائد في أرضه. وطبقا للتقاليد المحلية، فقد كان له مساكن منفصلة لكل من الرجال والنساء في المنطقة.

مساكن الرجال وأجنحة الضيوف كانت مصممة من قبل معماريين

مرموقين ومبنية بإشراف المهندسين، وكان لها كل المتطلبات الحديثة. أما النساء، فيسكن في مبان مظلمة قديمة مبنية من الطين والحجر ومحاطة بسور عال له بوابة واحدة. تلك البوابة لا يمكن لذكر فوق الثانية عشرة أن يدخلها دون إذن، وهناك في تلك المساحة توجد أيضا حظائر الحيوانات الأليفة وحيوانات الحقل مسقوفة بالقش.

أراد إعجاز أن يقول شيئا لكنه لم يعرف ما يمكن قوله، ثم تذكر صورة فوتوغرافية كان قد رآها وسط أحد الكتب الموضوعة على الرف. راح وأخذ الصورة من الكتاب.

«انظر إلى هذه الصورة. هل رأيت وجها أجمل من هذا؟» سأل إعجاز. نظر ناصر إلى الصورة بلا اهتمام، ثم اختطفها فجأة من إعجاز ونظر لها بتمعن.

«كيف حصلت عليها؟» سأل بلهفة.

«وجدتها داخل أحد كتب الشعر بعنوان «قدسية». هل تعرف أحدا بهذا الاسم؟»

«لم أر والدتي أو أي صورة لها طوال حياتي»، قال ناصر وهو يتجاهل سؤال صديقه. «ولكن لابد أن تكون هذه صورتها. أوه ياللجمال، يا للرشاقة!» امتلأت عيناه بالدموع وانكب على الصورة بحب ونشوة.

«هل كان اسمها قدسية؟»

«نعم يا سخيف!» ابتسم ناصر وهو لايزال ينظر إلى الصورة.

«أستطيع أن أرى الشبه بينك وبينها الآن يا ناصر»، قال إعجاز.

«لا تكن سخيفا»، قال نصر بنفاذ صبر. فكرة التشبه بوالدته كانت

بالنسبة له ضربا من انتهاك المقدسات، وذلك لأنها مع مرور الوقت سمت في نظره فوق البشر. بدت له تقريبا كالقديسة.

انغمس ناصر في تفكير عميق لوهلة، ثم قال وهو يهمس: «تخيل المجازفة العظيمة التي لابد وأن تجشمها ذلك الأجنبي وهو يساعدها. وأنا، الذي جئت من دمها ولحمها، لم أحرك إصبعا لأحررها من هذا السجن. أليس ذلك معيبا؟ لا يمكن لك أن تتصور مدى ما تسببه لي هذه الأفكار من عذاب».

«لم تكن بوضع يسمح لك بمساعدتها وأنت لا تزال تلميذا. ولكنك تستطيع ذلك الآن. ربما تستطيع أن تحصل على منزل بجوار مستشفاك مثل باقي الأطباء ذوي العوائل. وإذا لم تستطع الحصول عليه فورا، فإن والدتي ستكون سعيدة باستضافتها إلى أن تحصل على مكانك الخاص».

لم يرد ناصر بل ظل منشغلا بالتفكير، ومشى إعجاز إلى الباب حيث يمكنه أن يرى المرتفع الصخري المطل على النهر. ذلك المرتفع الصخري الذي شكل حافة طبيعية تحوله إلى شرفة رائعة بأيدي البنائين المهرة. والد ناصر، الخان الأكبر، كان يعقد اجتماعاته هناك مع خدمه ومزارعيه ومشرفي أعماله. إنه هناك الآن، يجلس على تخت خشبي مغطى بقماش الـ «الشنتز» الثمين. هناك وسادة دائرية ضخمة خلف ظهره. في اليوم الذي وصل إعجاز، استقبله الخان بحفاوة بالغة وأصدر أوامره بتوفير كل ما يحتاجه إعجاز لقضاء أسعد الأوقات معهم.

الشيفروليه الخاصة به، اللاند روفر، الجيب، الخيول والزوارق، وضعت كلها تحت تصرفه. لذلك اعتبر إعجاز الخان شخصا ودودا وكريما جدا، لكنه أدرك الآن أن ذلك لم يكن سوى خيلاء وغرور وعنصرية لدى الخان تعبر عن نفسها بذلك الأسلوب.

الشابان الصغيران استغلا ما قدمه الخان. قطعا مساحات كبيرة في صيد السمك ورحلات القنص. في البدء تخوف إعجاز من ركوب الخيل، لكنه سرعان ما تخلص من خوفه بعد ذلك إذ كانت تلك الخيول مدربة ومروضة، وكانت تتحرك بثقة وهدوء يجعلانها سهلة الركوب حتى بالنسبة للصغار.

عندما كان ناصر يقص عليه قصصا غريبة عن المعتقدات الخرافية، عن الأمراض وطرق علاجها، لم يصدقه إعجاز في البداية، لكنه شهد الآن العديد من الحوادث الخارقة للعادة مما جعله يعيد النظر في تلك الحكايات. فقد شاهد سبعة عفاريت يتلبسون فتاة، وشاهد الملا يطردهم واحدا تلو الآخر. وكان قد توصل إلى فهم نفسيات سكان هذه المناطق. إن كون الإنسان ملازما للجبال الشاهقة، لابد أن يجعله إنسانا فظا وخشنا. لكن العيش في مكان تحفر فيه الأنهار الجارفة طريقها، وتثور فيه العواصف الثلجية، يجعل عواطف الإنسان تصبح عرضة لأن تكون متهورة. عندما تندر وسائل الراحة، وتصبح الطبيعة صديق الإنسان وعدوه، فإن شيوع العواطف المعقدة ليس نادراً. ولقد رأى إعجاز مزيجا غريبا من التناقضات في ناصر الذي كان ابن قبيلة.

أبناء القبيلة يمكن لهم في لحظة أن يكونوا أصدق الأصدقاء وفي الوقت عينه ألد الأعداء. يمكن أن يكونوا على درجة عالية من الرقة والحنان، مرافقتهم سهلة، وكرمهم عظيم، عندما يعرف المرء كيف يعاملهم، ولكن إن بدر منه ولو بطريق الخطأ ما يضايقهم فإنهم يصبحون على درجة عالية من الفظاظة وسوء الطباع.

أدرك إعجاز الآن أن ناصر، وعلى رغم طبيعته الحماسية، إلا أنه كان طيب القلب جدا.

كان إعجاز يحقق تقدما بطيئا في فهم ناصر، إلا أنه لايزال يرى بعض الأمورَ القليلة التي تبدو غريبة عليه. فكان ناصر يشرد فجأة في تفكير عميق ويصبح كمن لا وجود له. وعلى عكس باقي الشباب، فإنه لم يبد أي اهتمام نحو الفتيات ويتكلم بجدية عن الزواج. في منزله الواسع، كان نادرا ما يذهب إلى الجزء الذي تسكن به النساء. سأله إعجاز يوما عن السبب في ذلك وأجابه ناصر بأن زيارة سكن النساء دائما لا تعتبر سلوكا رصينا. إضافة إلى ذلك، وعلى رغم وجود العديد من القريبات من بنات العم والخالات، والنساء الأخريات، فإنه بعدم زيارته لهن يكون قد خلق فجوة في العلاقات، فلا يوجد موضوع واحد مشترك يمكن التحدث فيه إلى بعضهم بعضا.

«وماذا عن والدتك؟» سأل إعجاز. في اللحظة التي نطق فيها بتلك الكلمة الأخيرة، أدرك إعجاز خطأه وما سيترتب على ذلك. لقد طلب منه ناصر سابقا عدم السؤال عن والدته، أبدا.

«آسف» استدرك إعجاز معتذرا. «لقد طلبت مني ألاّ أذكر والدتك، ولكن ذلك كان عندما كنا نسكن سويا، أما الآن فنحن أصدقاء وأنا أشاركك في كل أخبار عائلتي، أليس كذلك؟».

ظل ناصر ينظر إليه بنظرة ذات معنى لكنه لم يقل شيئا.

«أعتقد أن لي الحق في معرفة ما إذا كانت والدتك لا تزال على قيد الحياة أو أنها، لا سمح الله، قد توفيت. حتى لو كانت تنتمي لعائلة يعتبرها الناس ذات سمعة...»

«اسكت! لا تقل كلمة أخرى»، صرخ ناصر وهو يقفز نحو إعجاز وكأنه سيضربه. ولكنه توقف فجأة وخرج من الغرفة وهو يصفق الباب

خلفه بعنف.

شعر إعجاز بالاستياء والغضب. وعلى أي حال، فما الذي قاله ليجعل ناصر يهيج هكذا؟ إنه يعرف أن النسوة من الطبقة الأدنى عادة ما يؤخذن إلى بيوت الأغنياء. إذا كانت والدة ناصر من ذلك النوع، فإن الخان الأكبر أجدر بالثناء لأنه عامله كابنه البكر - كأنه ابنه البكر من الزوجة الأولى - وقد أعطاه كل امتيازات ذلك الوضع. بالنسبة لإعجاز، فلم يكن هناك أي فارق بين كون والدة ناصر الابنة العزيزة لأحد السادة أو كانت ابنة إحدى الخادمات. المرارة التي شعر بها إعجاز جعلته يقرر أن يحزم حقائبه ويغادر.

عندما عاد ناصر لغرفة إعجاز وجده يتهيأ للسفر.

«ما الذي تفعله؟» سأله بجفاء.

فضل إعجاز ألاّ يرد، وهذا آلم ناصر وأغضبه أكثر مما لو أنه تلقى أي جواب.

«حسن، اذهب! ولكن منذ الآن لا تقل إنك صديقي ولا تتحدث عن الصداقة ما دام الأمر كذلك. «كان هناك شيء في صوت ناصر جعل إعجاز ينظر إليه. فرأى شخصا بائسا يقف هناك. وجه ناصر بدا شاحبا كما لو أن الدم قد أفرغ من جسده. عيناه كانتا حمراوان كما لو كان قد بكى.

«هل تؤمن بالنار والجنة؟»، سأل ناصر.

«نعم، أؤمن بذلك» أجاب إعجاز وهو لايزال ينظر في وجهه الذي بدا أغرب من السابق.

«لا أعرف ما الذي تعنيه النار بالنسبة لك»، قال ناصر بكآبة.

«تخيل والدتك وهي هناك بدمها ولحمها إلى الأبد. هل تستطيع ذلك؟»، قال ذلك وهو يحدق بإعجاز بطريقة غريبة.

نظرة ناصر، أكثر من كلماته، جعلت إعجاز يرتعد. لم يكن قد رأى ناصر بهذا الشكل وهذا الأسلوب في الحديث من قبل. وجه ناصر كان أبيض كالطباشير، كان يرتجف وقد تورمت يده وهو يمسك بمقبض الباب بكل قوة.

«أنا آسف، لم أعرف شيئا عن هذا». ترك إعجاز القميص الذي كان يطويه يقع من يده وجلس. ذهب ناصر إلى غرفته، ومن ثم عاد بعد لحظات قليلة وهو يحمل دفترا في يده. «هذه مذكرات والدتي وأريدك أن تقرأها، لم يقرأها أحد من قبل غيري. تذكر أنها مقدسة بالنسبة لي، وأنا أتوقع منك ألا تخبر أحدا بمحتواها أبدا. إذا كنت تستطيع أن تعدني بذلك فسأطلعك عليها».

«أعدك»، «قال إعجاز ومد يده ليتناول الدفتر.

«إذن خذها واقرأها» وناوله الدفتر وخرج.

وهكذا عرف إعجاز قصة سجن الأم في منزلها.

بينما كان إعجاز يتأمل المنظر الرائع في الخارج، بدأ يتخيل ما قرأه في مذكرات قدسية.

السائح الإنجليزي، جوم، الذي أشار إليه ناصر وأطلق عليه وصف الأجنبي، لابد وأنه كان يجلس أسفل التل ممسكا بصنارته التي ألقى بخيطها في مياه الجدول الزرقاء ليصطاد السمك. من المؤكد أنه كان

مأخوذا بصفاء الماء البارد وشفافيته التي جعلته يتمكن من رؤية الحصى المختلفة الألوان بوضوح وكأنه يراها من خلال الزجاج. لابد وأن النسيم كان يجعل الأعشاب الطويلة وأزهار الخشخاش البرتقالية والبنفسجية تتراقص أمامه. ولابد أنه كان جذلانا، ولابد أنه شعر بالزهو والبهجة وهو يرى الغيوم العائمة في السماء. الجو كله مشحون بالجمال، وهو يجلس هناك وبقربه سلة بها بعض الطعام الخفيف والشاي الحار.

على مسافة ليست ببعيدة منه، كان بعض الخادمات اللواتي غطين رؤوسهن بالحجب (دوباتا*) البيضاء كن منشغلات بملء جرارهن بالماء لحملها إلى منزل الخان. ومن بينهن كانت والدة ناصر التي أيضا كان رأسها مغطى كخادمتها بالدوباتا. ولكونها سيدة المنزل، فلم يكن يفترض بها أن تكون في الخارج ما عدا في المناسبات العائلية الخاصة جدا مثل الزواج أو الوفاة. وحتى خروجها هذا يكون في عربة مغطاة. كانت تعتبر الالتزام بتلك الأعراف شيئا مستحيلا حيث إنها قد تربت في بيئة مختلفة تماما. فقد تلقت تعليمها في مدرسة أحد الأديرة حيث قرأت لووردزورث وشيلي، وغيرهما، ومثلت في العديد من المسرحيات الإنجليزية. وكانت أيضا مغرمة بالسباحة ولعب التنس وحتى الرقص الكلاسيكي الغربي.

لذلك، وكآخر ملاذ، بدأت تخرج وهي متنكرة بثياب الخدم، حيث قابلت الرجل الذي أخذ على نفسه عهدا بإنقاذها.

استمتع إعجاز وهو يتخيله بقبعته العريضة الأطراف التي يتقي بها الشمس، وكذلك وهو يدون شيئا بين فترة وأخرى في مذكراته التي توجد إلى جانبه على العشب. ثم بدافع مفاجئ ينهض ويبدأ يسير نحو المرأة. كاد إعجاز أن يراه بلحيته وما إلى ذلك وقد طوى بنطلونه الجينز

(*) دوباتا : الحجاب.

إلى ركبتيه مظهرا رجليه القويتين.

جاء إلى النساء وبدأ يتحدث إليهن بلغتهن، الشيء الذي استغربن له لكنه سرهن. وسرعان ما ركز انتباهه على تلك المرأة التي جلست ووضعت قدميها الجميلتين في الماء. فأشاحت بوجهها للناحية الأخرى متظاهرة بأنها لا تراه. لم يعجبه تجاهلها له، وبعد أن فكر في خياراته بحذر، توجه نحوها وقال «سلام عليكم».

«وعليكم السلام»، قالت بصوت يكاد يكون همسا، وسحبت حجابها إلى فوق جبهتها ثم فوق عينيها.

ظل يحدق بها ثم سألها. «من أنت؟»

ترددت لوهلة ثم أجابت. «أنا خادمة في منزل الخان».

«حقا!» بدا مسرورا. «وماذا تفعلين؟».

«أعمل هناك كما تعمل هؤلاء الأخريات»، قالت.

«لكنني لاحظت أنك لم تفعلي شيئا طوال هذا الوقت، بينما هؤلاء الأخريات كن يغسلن الثياب أو يحملن الماء إلى المنزل»

«إنه يوم إجازتي» قالت ثم ابتسمت رغما عنها.

«هيا»، قال ضاحكا، «ليس للخدم أيام إجازة، ولا حتى في يوم العيد.» ثم قال بالإنجليزية، «إذا كنت زوجة الخان وقد جئت هنا للتنزه، فأنا لا أرى ضيرا في ذلك. لا تخافي مني. أنا أقدر ذكاءك وأنا معك مائة في المائة.

في تلك اللحظة، قذفت بكل ضروب الحذر إلى الريح، وبدأت

تتحدث معه بالإنجليزية. قالت له إن وضعها في منزل الخان كان بالضبط مثل وضع العصفور في القفص.

«أظن إذن أنك غير سعيدة»، قال.

«سعادة عصفور في قفص»، قالت.

فجأة تلاشت الابتسامة من وجه إعجاز، وبدا عليه الاهتمام الشديد. قال ناصر: «لقد قررت»

«ماذا قررت؟»

«لنبدأ فورا». وأخذ بيد إعجاز وسحبه من الغرفة نحو أجنحة النساء. تصميمه كان بلا حدود. اجتاز البوابة العملاقة كما لو كان يملك كامل السلطة. وتبعه إعجاز بخوف، غير قادر على تحدي صديقه، لكن الرعب يملأ قلبه خوفا على حياته وحياة صديقه.

بعد اجتياز البوابة كان هناك ممر ضيق معتم رصت في جوانبه أوانٍ فخارية ضخمة مملوءة بالذرة. اجتاز ناصر الممر كمحارب من القرن السادس عشر. توقف عند مدخل البناء ونادى صارخا. «غلشان داي، تعالي إلى الخارج». وفورا، خرجت لهما من المنزل امرأة في منتصف العمر وقد تملكتها الحيرة والارتباك.

«جئت لأرى والدتي، ويجب أن أراها، هل تفهمين؟» طالبها وهو يظهر لها بأنه يعني كل كلمة نطقها. «لا تقفي هكذا، دليني على الطريق»

ارتعدت المرأة كما لو أن ريحا باردة قد لفحتها فجأة وراحت تفرك يديها ببعضهما.

«تعال، إذا كان ذلك ما أردت». «قالت وهي تتقدم أمامهما. تبعها

ناصر وأشار إلى إعجاز لفعل الشيء ذاته. مروا بمتاهة من الغرف والممرات، وأخيرا وصلوا إلى غرفة معتمة إلا من الضوء الخافت الصادر من مصباح الكيروسين. هناك وقفت امرأة وظهرها للضوء وهي تتناول شيئا ما من الدولاب. التفتت بعد أن سمعت صوت الخطوات ووقف الاثنان ينظران إليها بذهول. لقد كانت جميلة حقا. فارعة الطول وببشرة فاتحة اللون. بدت كأنها تمثال من الرخام. وقفت هناك تنظر إلى ناصر بصمت وبلا أي حركة وكأنها قد زرعت هناك لسنوات خلت.

«أمي!» همس ناصر وانحنى قليلا.

تقدمت نحوه وعدلت قامته وهي تمسك برأسه في كلتا يديها، عانقته ثم قبلته على جبينه. بعد ذلك، وكأنها غير مصدقة عينيها، ظلت تحدق به خوفا من أن يتلاشى. لكم تخيلت هذه الصورة في السابق على شكل سراب أو حلم من الأحلام.

«أمي، أريد أن آخذك معي إلى كراتشي».لاحظ ناصر النظرة الفزعة على وجه أمه وأضاف «لا تخافي. أنا ابنك وتستطيعين الذهاب معي. سأقوم بكل الترتيبات. سنقطع بعض المسافة على ظهور الخيل، ذلك سيقصر الرحلة ولن يثير أي شكوك. ومن ثم نكمل السفر بالسيارة».

«بني، هذه هي المرة الأولى في حياتي أراك وأتحدث فيها إليك. أتوسل إليك أن تقول لي شيئا لطيفا ومفرحا. حدثني عن نفسك، ما الذي كنت تفعله طول هذه السنوات؟»

ثم لاحظت إعجاز وانتابها شعور من الخوف وعدم الثقة.

«من هذا؟» سألت بارتباك.

«إنه صديق. تستطيعين أن تثقي به مثل ثقتك بي. إنه ذاهب معنا.

والآن، تريدين مني أن أقول لك شيئا لطيفا، هل هناك أفضل مما قلته للتو؟ إنني عازم على أخذك بعيدا عن هذا السجن إلى الأبد»

«لن أذهب إلى أي مكان»، قالت بحزم.

«أنت لا تعنين ما تقولين!»، قال ناصر بدهشة.

«بلى، إنني أعني ما أقول»، قالت، «يجب أن تدرك أنه لن يستطيع إيذائي أكثر مما فعل حتى الآن، لكنه يستطيع أن يجعل حياتك أنت بائسة. يستطيع أن يتبرأ منك، أن يحرمك من كل ما تملك، وحتى يمكن أن يقتلك. إنه قادر على فعل أي شيء»

«لكن ذلك لا يهمني، ولا أعتقد أن بإمكانه أن يؤذينا حالما نكون قد خرجنا من حدود مقاطعته». رأى مقدما أن والدته ستحاول إقناعه ثانية فقرر أن يلعب ورقته الرابحة. «إن هذا ليس من الإنصاف في شيء يا أمي!»، قال «كنت ستذهبين مع الأجنبي وتترددين في الذهاب معي، مع ابنك».

عند ذلك، تغير ذلك الوجه الناعم التجاعيد، الباسم الباكي في الوقت ذاته. تقلص ذلك الوجه فجأة. أبقت يديها معلقة في الهواء. ضمت قبضتيها وحدقت بناصر فبدت وكأنها غائبة عن الوعي. لم تتمكن من الحديث إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير. أخبرني، قالت «ما الذي قالوه لك عني؟ الأصدقاء المخادعون! لقد رضخت لهذه الحياة بهذا البؤس الذي لا يصدق لأنهم عاهدوني على ألاّ يقولوا لابني شيئا عن ماضي والدته».

«لم يخبروني بشيء يا أمي. إنني أعرف كل شيء لأنني قرأت مذكراتك». أخذ يدها في يده وحاول أن يطمئنها ولكنها كانت قد

أصيبت بأسى شديد.

«أين وجَدت مذكراتي؟»

«بين كتبك القديمة»

«وأين هي الآن؟ هل قرأها والدك؟»

«لا، لم يقرأها، وهي بأمان عندي. ثقي بي يا أمي!»

«كنت متأكدة أنها احترقت منذ زمن بعيد. إنني مندهشة بأنها مازالت موجودة. إنني لا أتذكر كل ما كتبته فيها، كان ذلك منذ زمن طويل، ولكني أتذكر أنني لم أكتب سوى الحقيقة المطلقة»

«لا داعي لقول ذلك، لقد صدقتها منذ أن قرأتها». ربت على يدها ليطمئنها.

«صحيح؟»، قالت « إذن دعني أخبرك شيئا. بعد الله، كنت أنت الوحيد الذي أردت له أن يعرف كيف شعرت آنذاك وما الذي حدث بالضبط».

«أوه، لا تشغلي نفسك بالماضي الآن، لدينا الحياة أمامنا! ما عليك سوى أن تستعدي الليلة. خذي أشياء قليلة معك. في البدء سنأخذ الطريق الذي بين التلال. هل تستطيعين الركوب؟»

«بالطبع، أستطيع»

«إذن كل شيء على ما يرام. سآتي إليك بعد منتصف الليل بقليل. لقد عثرت على صورة لك في أحد كتبك. هل أستطيع الاحتفاظ بها؟» بدأ ناصر يطيل الحديث لأنه ببساطة لم يود أن يتركها.

«ولم لا؟»، قالت أمه بحب. «من يملك حق الاحتفاظ بها أكثر منك؟» وجاءت العجوز التي أرشدتهما. كان الوقت قد تأخر وأرادت منهما أن يغادرا.

«إلى اللقاء يا أمي» قال وهو يمسك بيد أمه «قدسية» ثم يغادر، ولكن ليس بالسرعة نفسها التي دخل بها إلى المنزل.

عندما عاد إلى غرفته كان في حالة من الإثارة. «أشعر بأنني قد خرجت للتو من تحت أطنان من الأثقال. وأخيرا، سأقوم بدفع بعض الدين الذي أدين به لأمي». ظل يقول أشياء كهذه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا.

كان إعجاز يستطيع أن يتفهم هياجه، ومع ذلك فقد اختار أن ينصحه بكلمة تحذير. قال له: «أحذرك، لا يزال هناك بعض الأوقات العصيبة جداً أمامنا». «لا يهم. قل لي، هل لاحظت كم هي جميلة أمي حتى الآن، كم هي رشيقة وأنيقة! كيف يستطيع أي رجل أن يدمر شخصا مثلها لمجرد غروره؟ ألسنا نحن الرجال قساة وأنانيين مقارنة بامرأة مثلها؟».

«نعم، أظن أننا كذلك. والآن ما الذي حل بذلك الشخص الذي حاول أن يخلص والدتك؟ هل قتله والدك ودفنه في مكان ما هنا؟»

«لا أظن ذلك. ليس من السهل قتل أجنبي بهذه البساطة هنا. لابد أنه قد عاد إلى وطنه. والآن، اخلد إلى النوم. سأعود بعد أن أقوم ببعض الترتيبات للرحلة». قال ذلك وترك إعجاز على عجل إذ أدرك فجأة كم من الأعمال يجب عليه إتمامها.

بدلا من الخلود إلى النوم، التقط إعجاز مذكرات قدسية وبدأ

بالقراءة ثانية.

كانت لدى جون سيارة إيطالية قديمة ببابين، وبنافذة خلفية بيضاوية الشكل كفتحة التهوية في عمارة قديمة. المقعد الخلفي والجزء الخلفي بأكمله كان يغص بمئات الأشياء التي تراوحت بين أكياس النوم إلى معدات الصيد، تتدلى في كل اتجاه. إذا نظرت إليها من جميع النوافذ من الخارج، فلن تستطيع أن تتبين أي جزء من المقعد الخلفي. وعلى رغم قدم السيارة وهيئتها البائسة، إلا أن لها محركا جديدا يعول عليه. قاد جون السيارة بسرعة عالية وهو يتحدث في الوقت ذاته إلى شخص كان قد رقد مختبئا تحت كومة من الملابس في الخلف. لم تكن لديه الوسيلة لمعرفة ما إذا كان ذلك الشخص يسمعه أم لا حيث إنه لم يكن هناك أي رد. مع ذلك ظل يحدث نفسه.

آه! يا لروعة هذا المكان، جمال لم تشوهه وسائل العيش الحديثة. هذا هو الشيء الحقيقي. كان لصوته رنة من الابتهاج وكان النسيم البارد الذي يتنفسه مسكرا. إنه ليس مثل الأماكن في أوروبا وانجلترا حيث المئات من السياح يحتشدون كالنحل. مسؤولو السياحة الذين جعلوها صناعة، يتقاضون الأجور لدخول أي مبنى أو أماكن سياحية عادية، إلى أن يسخط الكل. أسعار الفنادق لا تكاد تصدق! لكن هنا، عوملت كالملوك خلال هذه الأسابيع الثلاثة ولم يتقاض مني أحد ولابيزة(*) واحدة. عندما ألححت كي أدفع، احمر وجه الخان الأكبر وقال: «هل تريد أن تهيننا؟». نأخذ نقودا من الضيف؟ إننا «زاميندارين»، الوجبات للضيوف جاهزة هنا كل يوم كشيء مؤكد. أناس من القرى الأخرى يأتون إلى هنا وهم دائما يحلون على الرحب والسعة.

(*) بيزة: الوحدة الأصغر في العملة الهندية والباكستانية (روبية).

إذا كنت تحب الدفع، فإنه يجب عليك أن تسكن في فندق في مدينة كبيرة، ما كان يجب عليك أن تأتي إلى هنا منذ البدء. «يا إلهي! يا للضيافة، يا للقيم! ولكن في الوقت نفسه يا للوحشية! رجل يستعبد رجلا آخر، والزوجات يعاملن بأسوأ من معاملة العبيد. في الغرب، إذا اضطرت النساء للعيش هكذا ولو ليوم واحد، فأنا متأكد بأنهن إما ينتحرن وإما يقتلن أزواجهن».

أخذ نفسا عميقا وقال: «أهلا يا من هناك، هل هناك أحد في المنزل؟ أوه، ما الأمر؟ أنا فعلا خائف يا قدسية، هل أنت على ما يرام؟».

«إنني أبكي» صدر الصوت من تحت الملابس في الخلف.

«آه، لكم ارتحت الآن. أنت مازلت حية! والآن أخبريني كيف هو شعورك بالحرية! هل رأيت في حياتك طيرا يبكي وهو يطلق سراحه؟»

فجأة بدأت قدسية في الضحك لفكرة الطير الباكي، لكنها سرعان ما عادت لنحيبها.

«اسمعي. ليس لدي وقت لأوقف السيارة، أو لأعطيك شيئا تشربينه أو حتى لتغسلي وجهك. لا تزال أمامنا مسافة طويلة. أخبريني فقط ماإذا كنت قد غيرت رأيك. لا تقلقي بشأني، قوليها وسأعود لأواجه العواقب»

«لا، لا! وحق الله، لا تتحدث هكذا! إذا عدنا فسنقتل». قالت قدسية بصوت خائف.

«إذن يا عزيزتي قدسية، دعك من الحزن. إننا في هذا المصير سويا إلى أن يفرقنا الموت. خذي رشفة من الشاي، انسي الماضي وفكري في المستقبل.» وزاد جون من سرعة السيارة وتوقف عن الكلام. أدرك أنه

من السذاجة أن يتكلم وكأنه في موعد غرامي مع فتاة.

حاولت قدسية أن تفكر في المستقبل ولكن تفكيرها كان مشوشا. لم تستطع أن تتخيل أي مستقبل ينتظرها. كل شيء بدا غامضا، لم تكن واثقة من حريتها. حصل كل شيء بسرعة! عندما وجدت أن هناك شخصا يرغب في المجازفة وإنقاذها، فكرت فقط في أن تلك كانت فرصة العمر. الشيء الوحيد الذي خطر لها هو: «إما الآن وإلا فلا». ولخوفها من تلك الـ «فلا»، قفزت إلى المجهول دون تفكير فيما إذا كانت ستهبط على قدميها بسلام. وكلما حاولت التفكير في المستقبل، راح عقلها يشدها دون قصد إلى الماضي.

عندما كانت في الخامسة عشرة، تقدم شاهزور خان لخطبتها، لكن رئيسة الراهبات في مدرسة الدير اعترضت على الفكرة قلبا وقالبا، وقدسية كانت على قدر واسع من الذكاء. فكرت أن زواجها في مثل تلك السن المبكرة سيدمرها. لكن والد قدسية، الذي كان عميدا في الجيش، قرر بأن يزوجها إلى هذا الشاب. السبب كان أن والدة قدسية كانت قد توفيت وكان هو يعاني من سرطان الرئة. كان يريد أن يزوجها قبل أن يقضي نحبه. ذهب بنفسه إلى عائلة شاهزور وأعلن قبوله الزيجة. قال لقدسية إن تلك العائلة هي عائلة ثرية وأن شاهزور كان وسيما ومتعلما. العائق الوحيد الذي لاحظه هو أن العائلة كانت متخلفة قليلا، وربما ساذجة أيضا، ولكن ذلك لايهم حيث إن والده هو نفسه كان كذلك، مثل الكثيرين. المسألة مسألة وقت فقط، قال يطمئنها.

ومع ذلك، لم توافق هي على عرض الزواج. قالت لقريباتها إنها لا ترغب في الزواج وبالأخص من شاهزور. قريباتها أخبرن أمهاتهن، وهؤلاء أزواجهن، كما هي العادات، ولكن لم يأخذ أحد منهم رفض

قدسية على محمل الجد. ليس من شأن فتاة صغيرة كقدسية أن تقرر من يكون شريك حياتها، إضافة إلى أن الفتيات السذج عادة يتكلمون هكذا قبل الزواج. عدم إظهار اللهفة على الزواج كان يعتبر شيئا من الحكمة. كل شيء سيكون على ما يرام كما هي الحال دائما. فكرت قدسية مرة أن تفتح قلبها لأبيها ولكنه كان في حالة من المرض لا تسمح له بأن ينزعج. سيؤلمه كثيرا تحدي ابنته له حيث إن أحدا من عائلته لم يسمع من قبل بفتاة تقف ضد رغبات كبار العائلة في مسألة زواجها.

ولذلك، فإن الأشخاص المسؤولين الذين جاءوا ليأخذوا منها موافقتها الرسمية على الزواج، لم يكلفوا أنفسهم سماع أي شيء منها. حتى قبل أن تنطق هي بكلمة، كانت موافقتها قد أخذت على أنها من المسلمات، وجاء التأكيد على ذلك من إحدى كبار نساء العائلة اللواتي تجمعن عند باب الغرفة حيث تجلس قدسية وسط مجموعة كبيرة من الفتيات والنساء اللواتي يتحدثن في الوقت ذاته.

فورا راحت النساء يعانقن ويهنئن بعضهن بعضا، بينما كان الرجال في مجلسهم يحتفلون بذلك حسب التشريعات. بعد ذلك، في المساء، حاولت أن تشرح لشاهزور خان الأمر على أمل أنه سيتفهم موقفها، لكنه لم يرغب في سماع أي شيء منها. هو الذي كان يريدها زوجة له، وما يهمه الآن، هو أنه قد حصل على ما يريد. منذ ذلك الوقت لم يفارق عقلها فكرة كونها أسيرة. أخذت تشعر بسلسلة يزداد وثاقها إحكاما يوما بعد يوم، حيث إن شاهزور لم يكن يؤمن بحرية المرأة. لقد تزوجها على أمل أنها ستتعود على طريقته في التفكير تدريجيا.

كل القرارات تتخذ من قبل الرجال، ولا تبلغ النساء إلا بالقرارات التي تخصهن. جمال الطبيعة الذي يحيط بهن، والذي يعجب به كل

الناس، لم يكن لأعين النساء نصيب منه. المال الذي كان يصل بالأكوام لم يكن لهنّ لينفقن. كلما خططت للذهاب إلى مكان ما، قيل لها إن السيارات غير متوافرة، فإما أن الخان كان يستعملها أو أنها كانت في خدمة بعض الضيوف، وهم عادة مسؤولون حكوميون كبار. هي، وهي بالذات، كان يسمح لها بارتداء ما تشتهيه. وكان لها سرير جميل وطاولة تزيين وأرفف للكتب. كان ذلك من الأشياء النادرة في المنزل. النساء الأخريات في العائلة لم تكن لديهن تلك القطع من المفروشات في غرفهن، كلهن عشن تحت رحمة أسيادهن طالما كانت لهم حاجة إليهن. في كثير من الأحيان يصيبهن السل أو بعض الأمراض الأخرى ويمتن وهن يبصقن الدم، أو أنهن يبقين على قيد الحياة في بؤسهن. وذلك لم يكن من شأن أسيادهن.

بعد زواج قدسية، ذهب والدها إلى بريطانيا للعلاج. كانت تريد أن تسافر لتراه ولكن زوجها لم يسمح لها بذلك. فأثار ذلك اشمئزازها، فكتبت لوالدها رسالة طويلة تشرح له فيها الأمر، ولكن الجواب الوحيد الذي جاءها كان عبارة عن تلغراف من لندن يخبرونها فيه بأن والدها قد توفي أثناء الجراحة.

أفاقت قدسية من ذكرياتها عند الفجر على شذى الأزهار في نسيم الصباح البارد. استطاعت أن تميز في لمحة من خلال النافذة بأنهما يمران الآن في أماكن قديمة معروفة لديها. تستطيع أن ترى فندق أماندرا، وهو مبنى جديد شيد داخل قلعة قديمة. المبنى كان من العلو بحيث يستطيع المرء منه أن يرى لمسافة أميال وأميال من الأراضي الخصبة، القنوات، الجبال والطرق الملتوية.

كثيرا ما زارت تلك الأماكن بصحبة والدها، وكانت تلعب الشطرنج

معه ومع أصدقائه وقد رسمت من شرفات ذلك الفندق مناظر الشروق والغروب الرائعة وكذلك الليالي المقمرة الجميلة. إنهما يمران الآن أمام قلعة مالاكاند، وقد قضت قدسية بعض الوقت في أحد مباني تلك القلعة. لم تنس أبدا الزلزال الذي ضرب هذا المكان في إحدى الليالي. كانوا قد أسرعوا بالخروج من غرفهم في الظلام حيث إن الكهرباء انقطعت نتيجة الزلزال. بعد خروجهم من المبنى الذي كانوا يقضون فيه ليلتهم، تبين لهم أن الحوائط الصخرية العالية للقلعة، وكذلك التلال العالية كانت قريبة جدا منهم ولم يكن هناك مهرب منها، لذلك قرروا العودة والبقاء في الداخل. وعادت هي ووالدها وظلا جالسين هناك لزمن طويل وهما يتحدثان في غرفة الجلوس. لم يتحرك أحد بسبب الزلزال. السكان المحليون كانوا معتادين على تلك الظاهرة، وكانوا يعرفون أنه من الأفضل البقاء في الداخل وعدم الخروج.

في اليوم التالي، عندما نزلوا من قلعة مالاكاند ليذهبوا إلى ريسالبور، كانت السماء تمطر رذاذا. وقد فتنها منظر قوس قزح الذي امتد في السماء بألوان زاهية. التجربة المثيرة الثانية كانت مشاهدتها قوس قزح وهو يتمطى نحو أسفل الوادي. وبعد أن ابتعدوا قليلا شاهدت قوس قزح ثانيا في السماء. وهذا أيضا، كان يبدو كأنه ينداح على أرض الوادي. الظاهرة تلك كانت فريدة ورائعة لدرجة أنها طلبت من والدها أن يوقف السيارة. واستمتع الاثنان، هي ووالدها، بمنظر قوس قزح، السمائي والأرضي، لمدة ليست بالقصيرة، قبل أن يواصلا انطلاقهما. بينما كانت تتذكر تلك الأعجوبة التي كانت كالحلم، شعرت بالنعاس. وبما أنها كانت مرهقة، فقد راحت في غفوة.

«أفيقي يا قدسية». سمعت أحدهم يهمس في أذنها. عندما أفاقت، شعرت به يربت برفق خدها. وللحظات، لم يكن لديها أي فكرة عن

مكان وجودها ومن عساه يكون ذلك الشخص الذي تجرأ وأيقظها بهذه الصورة. كاد الغضب أن يتملكها لولا أن كل شيء جاء فجأة إلى عقلها كالصدمة. لم يكن الأمر حلما.

كان جون يربت خدها برفق وهو يتحدث إليها في الوقت عينه: «لا يمكنك أن تفعلي بي هذا. إنها البداية فقط. لقد قمت بخطوة جبارة. لا يمكنك أن تدعي الأمور تفلت من يديك. يجب أن تتحلي بالشجاعة وإلا أصبحنا في خطر».

«أين نحن؟» سأل قدسية وهي تعتدل جالسة.

نحن في ريسالبور. هذا منزل أحد الأصدقاء. لا يمكننا مواصلة الرحلة في هذه السيارة. سأتركها هنا وسيتولى صديقي العناية بها. سنواصل رحلتنا في سيارته هو. سأحاول أن أغير مظهري وأنت لابد أن تغيري مظهرك أيضا. يجب أن ترتدي ملابس زوجة صديقي لتظهري كامرأة إنجليزية. هل يمكنك ذلك؟

«سأفعل كل ما تقول»

«جيد»

إذن فقد كانت في ريسالبور اللطيفة.

لقد عرفت طرقاتها، شوارعها، أزقتها، وأماكنها كما تعرف الخطوط التي في كفها. الطرقات كانت تبدو دائما خاوية. لكم أسرعت وهي تقود دراجتها الحمراء في تلك الطرقات. الأشجار، بأغصانها المنخفضة، بدت وكأنها تمسد رأسها بأيديها الحانية. السياج الأخضر وشجيرات الورد زينت الطرقات. تحت ظلال الأشجار المرتفعة كانت مدرستها. كانت إحدى الفتيات المفضلات لمدرساتها طوال أيامها في المدرسة. جزء

المبنى الذي سكنت فيه الراهبات وأقمن فيه صلواتهن كان يضفي عليها إحساسا بالغموض، وكذلك كان شأن مبنى طعام ضباط الجيش بأرائكه الجلدية الضخمة وقطعه الفضية الثقيلة، والقطع الأثرية مثل تلك المزهريات الصينية من عهد أسرة «منغ»، والفاصل المبلط من العهد «المغالي». تذكرت أيضا أنها كانت ترى جزءا من العلم فوق مقر سكن لاكناو، والذي قدم جائزة للجيش البريطاني في حرب سنة ١٨٥٧ والتي اعتبرت حركة تمرد.

جاءتها رغبة مفاجئة لركوب دراجتها ومفاجأة رئيسة الراهبات أو مدربتها بلعبة التنس، أو الذهاب إلى المقبرة حيث دفن كل من أخيها ووالدتها. ألقت بنظرة حول المكان وهي تنزل من السيارة. كانت المنازل لا تزال كما هي بحدائقها وأحواشها الكبيرة. تلك المنازل كانت ضخمة لدرجة أنهم فصلوا بينها بمئات الياردات عن بعضها البعض. المكان بدا مهجورا وكأنها بلدة كتب على سكانها أن يختفوا بفعل السحر. دخلت المنزل وهي تترنح.

بعد أن استحمت وغيرت ملابسها، تناولت إفطارا خفيفا. ثم انطلقا ثانية. نظرت قدسية إلى الطرق بحنين: طريق الشمال، طريق برودوي. كلها مظللة بالأشجار كالسابق. كان العشب مزهرا في أرض ملعب البولو. وكانت أشجار اليوكلابتس تتأرجح مع النسيم، وأطلت الورود من السياج وحول الأكواخ. مرت السيارة بحذاء مبنى الضباط وتذكرت قدسية أن شاهزور خان كان قد رآها أول ما رآها في هذا المكان. كانت ليلة للضيوف وكان شاهزور مدعوا من قبل أحد الأصدقاء في الجيش، حينها أعلن هناك أنه وقع في غرام الفتاة الفاتنة ذات الثوب الأسود منذ النظرة الأولى. وقد حذره أصدقاؤه لأن تلك الفتاة قد تربت كأجنبية أكثر مما تربت على العادات التي يفضلها شباب الباتان.

شاهزور لم يبال بما سمع، كان متأكدا أن الزواج سيعالج قصورها كما يجب.

كانت كلما تذمرت من الاختناق يتعجب، «لماذا، ما السيئ في هذا المكان؟» تظاهر بأنه لم يفهم كيف أن المكان الذي لاءم والدته، وأخواته وقريباته، لم يكن يعجب زوجته. وكذلك أين يمكن لها أن تذهب! لم يكن لوالديها بيت. لم يكن هناك داع لأن تذهب لأي مكان في الصيف حيث إن الطقس هنا بارد ومريح، ولم يكن هناك داع للذهاب لأي مكان في الشتاء لأنهم كلهم قد اعتادوا على الطقس البارد.

«قدسية، قلت لي إنك تحبين ووردزورث وأقول لك إنك ببساطة ستعشقين مقاطعة البحيرة عندما ترينها. إن القرب من البحيرات شيء جميل.

فترات ما بعد الظهر هادئة وساكنة، وظلال الأشجار الطويلة تترامى على العشب فتحوله إلى لون أخضر متدرج رائع. في المساء تصبح المياه هادئة لدرجة أن المرء يحبس أنفاسه لكي لا يزعج سكونها. لا أعتقد أنه سيكون باستطاعتك أن تنسي الشعور الذي ستحسين به عندما ترين بحيرة ويندرمير في الليل لأول مرة. قدسية، أرجوك، قولي شيئا».

«لا أعرف. إن عقلي مغمور بالضباب وأجد التفكير نوعا من الاستحالة». وعلى رغم كل هذا الارتباك، إلا أن قدسية فوجئت به يقترح أنها سترافقه إلى إنجلترا. «حتى الآن، لم تعرفي انجلترا إلا من خلال كتب غولسوورثي وفيرجينيا وولف وإي. إم. فورستر، ولكنك عندما ترينها بعينيك، ستكون تجربة جديدة، كالجرس يقرع في رأسك في كل مرة. حسنا، هذا مبنى البرلمان وبجانبه ساعة بغ بن الشهيرة، هذا ماربل أرش، وهذا هو البرج».

ابتسمت قدسية رغما عنها. جون لم يكن طويلا وذا لحية وقتها، ولكنه كان شابا من الريف وكان سحر المدن الكبرى يثيره ويجعله يريد لكل أصحابه أن يروا كل شيء فيها.

ثم، فجأة، غيّر الموضوع: «قدسية، انظري إلى تلك التشكيلة المحمرة من الصخور والتي تنتشر لأميال عدة. هل رأيتها من قبل؟»

«نعم»، حاولت أن تجيب ولكن صوتها تحشرج. إنها تعرف المكان حق المعرفة. وقع قلبها وهي تحاول أن تعود إلى كرسيها غير راغبة في النظر إلى تلك التلال الدامية. كان لذلك المكان علاقة بموت والدتها. بالنسبة لها، فإن التلال كانت حمراء اللون لأنها شربت دم والدتها التي ماتت هناك في حادث. تظاهرت بأنها نائمة. لم تنهض ولم تنظر إلى أن وصلا إلى راولبندي.

كعادتها، كانت راولبندي هادئة قليلا ومزعجة قليلا، جميلة قليلا وقبيحة قليلا. قليل من أماكنها جديد وأكثرها قديم. كثيرة هي الأوقات التي قضتها في راولبندي مع أبيها وهي في طريقها إلى «مري». كانا يتمشيان في مبنى السوق الداخلي الحديث ويتسوقان في مخزن سادار الكبير. في تلك الأيام الخوالي لم يكن يوجد مثل هذا المخزن إلا في المعسكرات. كان مدير المخزن رجلا فارسيا كان قد هاجر من إيران. كانت عندها رغبة قوية في أن تعرف ما إذا كان المخزن لا يزال موجودا إلى الآن. نعم، إنه هناك، تمكنت من أن تلمحه بينما السيارة تمر به. لكنه لم يكن الوحيد الآن، كانت هناك مخازن كثيرة مثله، وكان هناك فرن وبقالة. كانت هناك عمارات، مدارس وطرق جديدة. نعم الحياة تتغير، والتغير يبدو ظاهرا أكثر في المدن. أناس مثل زوجها ووالده من قبله هم ضد التغيير في قراهم. لا تستطيع أي من الفتيات التحدث

بالأوردو: لغتهن الوطنية، لأنه لم يكن مفترضا بهن أن يتكلمن بها. لم يكن لهن أي حق. لم يكن لهن الحق في إبداء رأيهن بأي موضوع كان، وخصوصا موضوع زواجهن. على الرغم من العقاب الشديد المفروض عليهن من قبل عوائلهن، إلا أن كثيرا من الفتيات يجازفن ويهربن بعيدا مع عشاقهن. واللواتي يقبض عليهن يتم قتلهن بأيدي أقرب أقربائهن: الأب، الأخ أو العم. هي أيضا الآن هاربة مع أحدهم، ولو أنه ليس هروبا بكل ما تعنيه الكلمة، لكن ذلك لا يعني أي شيء بالنسبة لعائلتها. الناس يفهمون أن لها علاقة به وأنها قد وجدت الفرصة لتفر معه. ليس باستطاعتهم التفكير في شيء آخر. لاشك أن أسماء بعض أبناء عائلة «الزاميندارس» المجاورة ستطرح كاحتمال. أما هي فتعرف أنها لن تختار أي واحد من تلك العائلة للهروب معه. والد زوجها، ذلك الداهية البارع، ربما سيشك في ذلك الأجنبي الذي تصرف بغرابة. لابد أنهم أبلغوا البوليس الآن، ولابد أن رجالا من مقاطعتهم قد أرسلوا للقبض عليها. ما الذي سيحدث لو تمكنوا من العثور عليهما؟

لم تحب أن تفكر فيما بعد هذه النقطة لأن الذي بعدها ليس سوى الموت المحتوم والشنيع.

كرهت أن تفكر في الموت وهي لاتزال على قيد الحياة. هزت رأسها كي تتخلص من الأفكار المزعجة، نظرت إلى الخارج. نباتات القمح التي لم ترتفع أكثر من بوصات قليلة في إقليم الحدود الشمالية الغربية، كانت في البنجاب على ارتفاع قدمين. كانت هناك قرى على طول الطريق، وكان الجو هناك مفعما بالهدوء والسكينة، كما كان في السابق، وكان هناك مزيج من الأصوات. صوت رتيب للسواقي الفارسية التي تدار بواسطة الثيران المغطاة عيونها، رفرفة أجنحة الدواجن وصوت همهمة البشر الرتيبة، كلها كانت مختلطة ببعضها في ذلك المحيط.

وسط تلك الحياة العادية، راحت سيارتهما تنطلق مسرعة إلى المجهول. إلى مكان لا تملك، لا هي ولا رفيقها في السفر، فكرة واضحة عنه.

لماذا لا تذهب إلى أقرباء والدتها في كراتشي؟ هؤلاء كانوا متعلمين ويعيشون في مدينة كبيرة، وسيتفهمون الوضع التعس الذي كانت فيه. ولكن ماذا لو لم يحصل ذلك؟ وماذا لو أنهم وبسرية تامة أبلغوا زوجها عن مكانها؟ على أي حال، كراتشي ما زالت بعيدة وتستطيع أن تقرر لاحقا. في الوقت الحالي كانا قد وصلا للتو إلى لاهور، عاصمة إقليم البنجاب، حيث عاشت مع والديها عندما كانت فتاة صغيرة.

تذكرت لاهور كما لو كانت رأتها في حلم. لم يكن لديها فكرة عن الوقت وعن المكان، لا تعرف كم تبلغ من العمر وقتها، ولا أين يقع أي مبنى أو كم يبعد أي مكان عن منزلهما أو عن أي مكان آخر. ولكن كل الذي تذكرته كان جميلا وملونا على رغم رؤيتها له من خلال الضباب. في إحدى الأمسيات أخذوها إلى إحدى الحدائق الكبيرة حيث بقوا هناك إلى المغرب. رأت اليراعات وهي تبرق كأنها مئات المصابيح الطائرة فوق الأعشاب ثم ترتفع لتطير عائدة إلى الأشجار.

كان والداها يذهبان إلى النادي في المساء وكانت مربيتها تأخذها للتنزه في الحديقة القريبة حيث يتواجد أطفال آخرون مع مربياتهم.

أحيانا كانت تتمشى على الرصيف وهما في طريقهما إلى المخزن الكبير الذي كانت تشتري منه بعض الشوكولاته. كانت تحب ظلال الأشجار إذ كان صفا الأشجار على الجانبين مثل نفق يمتد بعيدا ثم يلتقي طرفاه في القمة. خالجها شعور قوي بأنها تستطيع أن ترى ذلك الطريق الآن، لكنها عرفت أنها لن تستطيع أن تنغمس في نزوة كهذه. ومع ذلك، يبدو أن الماضي لن يتركها. كانت هناك ذكرى أخرى. كانت

هناك قلعة كبيرة، وفي إحدى حجراتها كانت ثمة قطع صغيرة من الزجاج الملون رصت فوق السقف والجدران فشكلت صورا رائعة لطيور، طواويس، عنب في إناء، ومثاقب جميلة. الدليل الذي كان يريهم القلعة كان قد أشعل شعلة ثم أخذ يدور بها حول الغرفة وهو يرفعها عاليا في الهواء فصارت جنبات الحجرة تبرق وتومض بالأنوار الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى كالنجوم المتلألئة. فيما بعد عرفت أن ذلك المكان هو ما يطلق عليه «شيش محل» في قلعة لاهور. الشيء الآخر الذي علق بذاكرتها كان النفق الموجود تحت الأرض في القلعة والذي يفترض أنه كان يصل إلى مدينة أخرى على بعد مئات الأميال. كانوا قد هبطوا بهدوء إلى واحد من تلك الممرات السرية دون مساعدة من الدليل. وكان المكان مظلما كما الليل. أحرق والدها منديله بولاعة سجائره ليريهم بداية النفق. وها هي تشعر الآن وكأنها تسير في ذلك الممر المظلم، فلم يكن لديها أدنى فكرة إلى أين يقودها.

أرادت أن تركز على المستقبل ولكن ذكريات ماضيها تعود لتشدها إلى الخلف. أتراها مسرعة جدا نحو المستقبل؟ لقد قرأت في مكان ما بأنك إذا استطعت أن تنطلق بسرعة الضوء فسيكون باستطاعتك أن ترى ماضيك.

أراد جون أن يتناولا الغداء في أحد المطاعم على جانب الطرق ولكن قدسية كانت خائفة جدا من النزول من السيارة والمجازفة باحتمال أن يراها أحد، لذلك اشترى جون الطعام وتناولاه عند ضفة القناة.

الماء والمروج الخضراء جعلاها تشعر بالنعاس، فنامت معظم الطريق إلى مونتغومري.

استيقظت فجأة وهي تشعر بالحرارة. عرفت رأسا بأنهما كانا يمران

عبر الصحراء بالقرب من مالتان. كانت الشمس حارة والصحراء تتلألأ تحت ضوئها. وتدلت ظلال أشجار النخيل المنتشرة كأنها حيوانات مرهقة فوق الأمواج الرملية. واتجهت أنظار الشجيرات الشوكية نحو السماء وكأنها تستجديها وابلا من المطر. شاهدت بعض قوافل البدو وهي تنتقل من واحة إلى أخرى في بحثهم عن البرك المعشوشبة، وعن ملجأ لهم تحت أشجار النخيل النابتة من الجذور نفسها مثل باقة متناسقة، عن بقعة من الأرض المعشبة حيث ترعى حيواناتهم.

كم يبدو سعداء هؤلاء الناس وهم يجلسون على ظهور جمالهم. كانت معهم عوائلهم، حاجياتهم، قطيعهم وممتلكاتهم. سارت الجمال بخطوات واسعة ومتأنية، والأجراس المعلقة في الشرائط حول أعناقها تقرع بلطف ويسمع صداها في الصحراء المقفرة. لماذا لا تذهب مع هؤلاء البدو وتبقى معهم إلى آخر حياتها؟ هؤلاء بدوا لها أحرارا. لا مبالين وسعداء. ستقول لهم إن كل ما تريده هو الحرية وأن تبقى مجهولة الهوية، فهل سيقتلونها؟ كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لا تستطيع أن تعيش على طريقتهم كما هو صعب عليهم أن يعيشوا على طريقتها وطريقة والديها. سيكون وضعها بينهم شاذا تماما مثل وضعها في بيت شاهزور خان.

شمس المساء في الأفق بدأت تغطس سريعا. كانت هناك خطوط حمراء، برتقالية ورمادية في السماء. وبينما راحت الشمس في غروبها، فقد أخذت تلك الخطوط مسحة غامقة متزايدة القتامة، وسرعان ما حل الظلام وبدأ خوف جديد ينمو في قلبها. ظلت راقدة في المقعد الخلفي. بين الفينة والأخرى يسطع شعاع من الضوء عليهما من أنوار السيارات المواجهة وبعد ذلك يحل الظلام ثانية.

كان الوقت تقريبا هو منتصف الليل عندما شعرت بأن السيارة قد غيرت طريقها وأنها تنطلق الآن في طريق وعرة وضيقة، بعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة توقفت السيارة. جلست قدسية في مقعدها، وبحذر نظرت إلى الخارج. رأت مبنى متوسط الحجم محاطا بالأشجار وله ملحق على مسافة قصيرة منه.

خرج جون من السيارة وتمطى مثل أسد مرهق واتجه نحو الملحق. عاد بعد لحظات مع حارس الملحق وهو يعطيه تعليماته لتجهيز بعض الطعام. لم يلمح ولو من بعيد لوجود شخص آخر معه. وعندما عرض الحارس أن يحمل الحقائب إلى الداخل قال له جون: «لا، لا داعي لإنزالها حيث إني سأغادر في الصباح الباكر. أرجو أن تعمل على تحضير الطعام. إذا لم يكن هناك شيء متوافر فعجة البيض ستكفي. ثم جهز الفراش واذهب إلى بيتك. لا تقلق بخصوص الأطباق. سأضعها في المطبخ وستستطيع غسلها في الصباح».

سمعت قدسية المحادثة كلها ولاحظت أن جون تصرف كما لو كان بمفرده. كانت تعرف أنه كان حذرا، ولكن طلبه وجبة لشخص واحد وسرير لشخص واحد جعلها تشعر بعدم الراحة. دخل جون وهو يحمل طبق العجة المتواضع إلى غرفة النوم ووضع الطبق على الطاولة بين الكرسيين.

«هيا يا قدسية، لنأكل. أريد أن أنام بأسرع وقت ممكن. إنني مرهق للغاية. اليوم، أستطيع أن أنام على سقالة، كما يقول المثل لدى الأوردو»

دخلت قدسية إلى الحمام وغسلت يديها ووجهها ثم انضمت إليه للعشاء، ولكنها لم تكد تأكل شيئا. بعد العشاء، حمل جون الأطباق إلى المطبخ ثم عاد.

«اسمعي يا قدسية»، قال: «أعلم أنك خائفة جدا، ولكن لا تخافي مني. ثقي بي وكل شيء سيصبح على ما يرام». ثم ابتسم وأضاف: «ربما نكون قد احتللنا بلادا بالقوة وأنشأنا المستعمرات، ولكننا نحترم المرأة. أنا، على الأقل، أعتبر أن الحصول على المرأة من دون رغبتها لا تقبله كرامتي. لن أزعجك بأي شكل من الأشكال. ما عليك سوى أن تغلقي عليك الباب وتخلدي للنوم. لقد غلَّقت الأبواب من الداخل». وابتسم ليطمئنها. «هناك غرف أخرى في المبنى كما أن هناك الكثير من الأسرَّة. لذلك لا تقلقي من أجلي. سأطرق على بابك في الصباح الباكر قبل أن نغادر بنصف ساعة. كوني جاهزة، وسنغادر بهدوء. ستكون تلك هي آخر الرحلة. ومتى وصلنا إلى كراتشي فسنكون في مأمن».

«أرجو ذلك» قالت قدسية بنعومة.

«لنرجو الأفضل دائما. تصبحين على خير»

أغلق الباب وراءه وأقفلته قدسية حالا. اتجهت نحو النافذة ونظرت خارجا. كانت ليلة مقمرة، هادئة، حتى أوراق الأشجار لم تكن لتتحرك. الصوت المتواصل للنهر المتدفق أصبح جزءا من الليل الصامت. فجأة شعرت بشجاعة غريبة وبقوة تعتريها قادمة إليها من لا مكان، كل شيء سار على ما يرام حتى هذه اللحظة. قريبا سيكونان قد ابتعدا عن الخطر وسيكون بإمكانها أن تقرر ما تريد أن تفعله بحياتها. لم تكن تشعر بالنعاس مطلقا. أرادت أن تحس تجربتها التي اكتسبتها حديثا بنفسها. على أي حال، فليس لها أحد سوى نفسها. جون كان محررا، الشخص الذي فتح لها باب القفص والذي سيكون كذلك دائما بالنسبة لها. والآن يجب أن تعتمد على قوة جناحيها لتتأكد من بعد المسافة وطول مدة الطيران اللذين بإمكانها أن تحققهما. فتحت الباب وهي

تشعر بالسعادة والثقة لأول مرة منذ أن تركت منزلها. دخلت الصالة على أطراف أصابعها وتسللت إلى خارج المنزل. كانت هناك طريقا ترابية ضيقة تغطي نصفها الشجيرات والحشائش. أخذت ذلك الطريق ووصلت إلى ضفة النهر. جلست هناك على الرمال الرطبة الباردة كطفل سعيد مطمئن. كاد المكان أن يكون مهجورا! لابد أن حارس المنزل هو الشخص الوحيد الذي يعيش هنا، فكرت في ذلك، وهو لن يخرج من منزله في هذه الساعة المتأخرة من الليل. كانت حرة تماما لتسعد بتلك الليلة المقمرة لوحدها.

جلست هناك مستمتعة بالهدوء والجمال لبضع دقائق. وفجأة، سمعت خشخشة ثياب وصوت خطوات على الرمال تدنو منها. كانت تولي ظهرها لذلك الجانب فلم تعرف من القادم. تجمد الدم في عروقها وحبست أنفاسها على أمل واهن بأن ذلك لم يكن سوى خيالها. ثم رأت ظلا طويلا يمتد أمامها وسمعت صوت جون: «هل هذه أنت يا قدسية؟».

تقدم نحوها ببطء وجلس بجانبها. «أتشعرين بتحسن؟» سألها.

أجابت: «أفضل بكثير، هذه أول مرة أشعر فيها بالحرية. حتى إنني تمكنت من الخروج من المنزل وأنا متأكدة أنه لن يكون هنا أحد في هذه الساعة. هذا شيء عظيم. أليس كذلك؟».

«نعم، وسيكون كل شيء أفضل. قدسية، أنا أؤمن بأن كل إنسان له الحق أن يكون حرا. لا يستطيع أحد أن يكبلك مثل الحيوانات. أنت الآن خارج قبضة زوجك وأهله وتستطيعين أن تطالبي بالعدالة. سيكون القانون إلى جانبك. أنا أعرف ذلك».

ظل يتحدث، يشجعها بطريقة أو بأخرى، بينما راحت هي تفكر طوال الوقت، «هل كل ما حصل كان حلما؟» لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة: هي جالسة على ضفة النهر ليلا ومع غريب أيضا!

«ما الذي تفكرين فيه؟»، سأل جون. مال نحوها وكأنه سيبوح لها بسر.

«اسمعيني. تستطيع قطعة من الحجر أن تظل مختبئة في مجرى أو في زاوية شارع، ولكن هل تظنين أن جوهرة تستطيع أن تظل مختفية عن أعين الناس؟»، ابتسم ولمعت عيناه في الأشعة الأخيرة من القمر الآفل.

الحقيقة في ما قاله للتو بدأت تقنعها، فهي امرأة متعلمة، جميلة وصغيرة. فقد تكون غير معروفة وهي تقيم في فندق ذي خمس نجوم، ولكنها لن تكون هكذا في مقاطعة عادية في كراتشي.

استحوذ عليها شعور جديد باليأس، لكن جون لم يع ذلك. وبينما راحت ترسم بعض الأشكال على الرمال، بدأ هو يفلسف الأمر، «في الحقيقة، الإنسان لا يستطيع أبدا أن يفقد نفسه، سواء في أدغال ألمانيا المظلمة، أو في الغابات الخضراء في أفريقيا. هناك، كل جزء صغير من الأرض مملوك لأحد من الناس. يسألون: «من أين أنت؟» «إلى أين أنت ذاهب؟» ثم هنالك وثائق سفر وفيزا دخول البلاد لفترة وجيزة فقط. أنا أقول لك يا قدسية، إن العصر الذهبي للرامايانا عندما كان باستطاعة الناس أن يذهبوا ويعيشوا حيث أرادوا قد ولى. هل تعرفين ذلك؟ كان هناك وقت شعرت فيه بنفس ما تشعرين به، بأنني سأترجل من إحدى الحافلات في مكان غير معروف في هذا العالم وأفقد نفسي. إن ذلك غير ممكن».

صمت لوهلة ثم واصل قوله: «دعيني أقترح شيئا. اذهبي إلى انجلترا وواصلي تعليمك. أعرف أنك ستكونين سعيدة هناك. ستلبسين الملابس الغربية وتتكلمين الإنجليزية ولن يعرف أحد أنك لست بريطانية». وابتسم مشجعا ثانية.

وقبل أن ترد قدسية، سمعت صوتا خفيفا خلفها، ثم شعرت بيد قوية فوق كتفها وأخرى فوق فمها ثم غطى وجهها كيس ثقيل، وفقدت بعد ذلك وعيها.

ظلام.. تلك اللحظة التي ألقي فيها بذلك القماش فوق رأسها، ثم عندما حملت على كتف شخص ما، كان مصيرها الذي ستواجهه طوال حياتها.

لم يسمح لها أبدا بمغادرة المنزل. في البدء ظلت تتوقع أن يتم تسميمها أو إطلاق النار عليها، ولكن لم يحدث شيء كهذا، وفي إحدى الليالي جاء إليها زوجها.

«أخبريني بالحقيقة؟ هل نام الأجنبي معك؟»

قدسية كانت مشدوهة. لم تعرف كيف ترد. بعد لحظات قررت أن يكون جوابها مماثلا للتعبير الذي استعمله جون.

«ربما يبدو هؤلاء لك بأنهم عديمو الأخلاق، لكن كرامتهم لا تسمح لهم بالحصول على المرأة من دون رغبة منها»

رأت لون زوجها يتغير، وبغضب شديد راح يصرخ كالمجنون «حسنا، منذ الآن وصاعدا لن آخذ امرأة دون رغبتها» ثم أغلق الباب وراءه ولم يعد بعدها أبدا لثلاثين سنة. عرفت لاحقا من «غولشان داي» بأنهم أبقوا على حياتها لكونها كانت حاملا قبل هروبها. كانت غولشان داي

قد سمعت حماتها وهي تقول لابنها: «إذا قتلتها، ستكون قد قتلت طفلك أيضا. ربما يكون ولدا، من يدري؟».

بعد ولادة ابنه، انتظرت موتها مجددا ولكن اللحظة المميتة لم تأت. يحتمل أنها قد اجتازتها. جاءوا لها بالطفل لتراه، ولكن زوجها لم يأت. بعد الولادة مباشرة، أخذوا كل الأثاث الذي أعطاه لها والدها وحل مكانه قطع قليلة، وقديمة جدا. حتى الخزانة ذات الأرفف تم أخذها بما فيها من كتب إلى غرفة الضيوف، الشيء الذي أحزن قدسية حزنا عظيما. لقد أُبقي عليها كزوجة للخان الصغير، ولكنها كانت زوجة بالاسم فقط.

أغلق إعجاز المذكرات وبدأ بتحضير أمتعته. بعد قليل، جاء ناصر وأخبره بأنهم سيأخذون طريقين مختلفين وأنهم سيلتقون في نقطة معينة.

سيأخذ ناصر والدته بينما يذهب إعجاز مع شخص موثوق به.

وعند المكان السري المتفق عليه، سيستقلون سيارة جهزت لهم وينطلقون بها بعيدا. غادر ناصر على عجل ورافق إعجاز الشخص الثقة. تسللا بخفية إلى خلف المنزل، امتطيا الخيل وانطلقا إلى الممر الضيق بين التلال.

كان الظلام حالكا، ولكن الخيل بدت وكأنها تعرف الطريق. جال في خاطر إعجاز شعور مزدوج: الخوف من اكتشاف أمرهم، وإثارة المغامرة. ولم يدم شعور إعجاز طويلا فقد اقترب منه مرافقه وأمسك به ثم وضع شيئا ما فوق أنفه. وغاب إعجاز عن الوعي.

عندما عاد له وعيه، وجد إعجاز نفسه ملقى في المقعد الخلفي

لسيارة أجرة. لم تكن لديه أي فكرة عن كيفية وصوله إلى هذا الوضع. كان اليوم مشرقا، وكانت أشعة الشمس تسقط على وجهه مباشرة. بدأ باسترجاع أحداث الليلة الماضية.

«إلى أين تأخذني؟» سأل السائق. فالتفت رجل ضخم يجلس إلى جانب السائق وتكلم بلهجته الخاصة، إلى السائق وليس لإعجاز. أوقف السائق السيارة على جانب الطريق. نزل الرجل الضخم من السيارة واقترب من إعجاز. «ها هي محفظتك» قال، وهو يعطيها لإعجاز، «عد نقودك وتفقد أوراقك الأخرى. حقائبك في صندوق السيارة. الخان الأكبر يريدك أن تأخذ سيارة الأجرة إلى راولبندي» بعد ذلك ستكون حرا. خذ القطار واذهب مباشرة إلى كراتشي. لا تقل لأحد أي شيء عما حصل هنا، ولا تحاول أن تعود إلى القرية أبدا. هل فهمت؟».

«نعم ولكن أين ناصر خان؟» سأل إعجاز.

«تعليماتي ألا أقول أكثر مما قلته» قال الرجل الضخم بحزم وعاد ليحدث السائق. «تستطيع أن تواصل السير». قال «أما أنا فسآخذ الحافلة لأعود»

بدا جليا أن الرجل تلقى تعليماته من الخان الأكبر وكذلك سائق سيارة الأجرة لأنه لم يجب على أي من الأسئلة التي سألها إياه إعجاز.

«إلى أين تريدني أن آخذك؟» سأل السائق.

«حيث شئت». أجاب إعجاز بغضب «وليأخذك الشيطان»، تمتم بها بحقد.

«إذن لا داعي لأن آخذك إلى راولبندي، تستطيع أن تستقل القطار من ناوشيرا»، قال السائق.

«ذلك يناسبني أيضا»، قال إعجاز بسخط.

ولم يتحدثا لبعضهما بعد ذلك، فقد غرق إعجاز في تفكيره الكابوسي. حوادث الأيام الأخيرة كانت كالحلم، لا تكاد تصدق. الله وحده يعلم ما حل بناصر ووالدته. هل يحتمل أنهما تمكنا من الهرب من قبضة الخان الأكبر؟ كان ذلك بعيد الاحتمال، ولكن ما سيفعله الخان الأكبر بهما كان شيئا لم يستطع إعجاز أن يفكر فيه.

أوقف السائق السيارة في السوق الرئيسية لمدينة ناوشيرا الصغيرة. أخرج الحقائب من صندوق السيارة وألقى بها على جانب الطريق وغادر دون أن ينطق بكلمة. شعر إعجاز بالمهانة ولكن لم يكن باستطاعته فعل أي شيء حيال ذلك.

لم يضطر للانتظار طويلا، فخلال نصف ساعة رأى حافلة تقترب وعليها لافتة كتب عليها راوليندي، فقفز داخلها وهو يحمل حقائبه. اشترى تذكرة وجلس في كرسي مريح. حادثة الليلة السابقة أصبحت مشوشة وضبابية، كما لو أنها حدثت منذ وقت طويل، طويل جدا.

وفي كراتشي، انتظر إعجاز صديقه ناصر أو أي خبر عنه، لكنه لم يحصل على أي شيء من ذلك. بعد ذلك كتب لناصر ولكنه لم يتلق أي رد. ما زال يحتفظ ببعض الأغراض الخاصة به وكثيرا ما فكر فيه.

في السنوات الثلاث التالية، شغل إعجاز نفسه بفترة التخصص في مجاله الطبي، ثم أمَّن لنفسه مركزا جيدا في أحد المستشفيات ذات السمعة الجيدة وبعد ذلك تزوج. اختار هو وعروسه وادي «سوات» الجميل لقضاء شهر العسل. وبما أن قرية ناصر لم تكن تبعد كثيرا عن ذلك المكان. فقد قرر أن يذهب إلى هناك أيضا. حكى القصة كاملة

لزوجته، وبعد موافقتها ذهب بمفرده ليرى ناصر.

كل شيء كان ساحرا وجميلا كما هو دائما. بدأ بتسلق الممر الترابي إلى المنزل. وبينما هو يقترب، استطاع أن يرى الشرفة الواسعة التي تبدو وكأنها معلقة في الهواء. رأى الخان الأكبر وهو يجلس على التخت الخشبي ويستند إلى الوسادة الدائرية الضخمة تماما كما في السابق. تقدم إعجاز قليلا ثم أدرك أن من ظنه الخان الأكبر لم يكن سوى صديقه ناصر خان. أسرع إعجاز وهو يخرج من مخبئه واندفع نحوه. لم يتعرف ناصر خان على إعجاز في الوهلة الأولى ولكنه لما أدرك الأمر قفز نحوه وعانقه طويلا. وعلى الفور أوقف ناصر خان الاجتماع الذي كان يعقده وأرسل خدمه لإنجاز بعض الأعمال المختلفة ليخلو له الجو مع صديقه.

«لماذا لم تأت إلى كراتشي؟» سأل إعجاز بنفاذ صبر حالما أصبحا بمفردهما «ولماذا بحق الله لم تكتب لي؟»

«كن صبورا يا صديقي» ابتسم ناصر خان بلطف. «إنها قصة طويلة، ولا أظنك تتوقع مني أن أحكيها لك بجملة واحدة. أليس كذلك؟»

«طبعا لا، ولكن قل لي ما حدث! هل تعرف أنني عودت نفسي على فكرة أنك لم تعد من الأحياء؟»

ضحك ناصر خان من قلبه. «لا تكن أحمق! نحن نحب أطفالنا أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، خصوصا أولادنا. لا يمكننا إيذاءهم بأي حال من الأحوال. قلت لك إنها حكاية طويلة. سأقصها عليك بعد تناول الطعام وعند قيلولتنا حيث لن يزعجنا أحد وقتها».

«لا، لا أستطيع الانتظار. أكاد أموت لأعرف لماذا تم إبعادي بتلك

الطريقة الدرامية ولماذا لم أسمع منك أي خبر بعد ذلك»

«حسن، تفضل واجلس». قال ناصر خان. «سأخبرك بكل شيء حالا»

جلس إعجاز على الكرسي الأقرب إلى الأريكة المقابلة للنهر، ونظر إلى ناصر بفضول.

«بعد أن رحلت أنت». قال ناصر خان، «ذهبت أنا إلى أمي. طلبت مني الدخول، ولكنها تصرفت بغرابة. عانقتني وقبلتني وطلبت أن تبقى يوما واحدا. أخبرتها بأنك قد غادرت وأن ذلك قد يسبب بعض المتاعب لك، ولكنها أصرت على الانتظار يوما آخر. وأخيرا سلمت بالأمر معتقدا أنك ستتمكن من تدبر أمرك.

بعد أن عدت إلى حجرتي، طرقت غولشان داي على بابي وأعطتني رسالة قصيرة. كانت من والدتي، وكانت تقول، إنني لا أرى أي معنى للذهاب معك. سيكون الأمر كارثة لكلينا. أريدك أن تؤمن بأن أمك ماتت في الوقت الذي ولدت فيه. هذا كل شيء. إلى اللقاء يا أعز الناس».

أخذ ناصر نفسا عميقا. نظر نحو النهر ثم قال: «كانت أمي متأكدة بأنها إذا ذهبت معي، فإن أبي سيجردني من إرثي في المقاطعة وكل شيء آخر. وعندما لم تعد تعرف ما تفعله قررت الانتحار. ربما كانت تؤجل ذلك منذ سنوات إلى ما بعد اليوم الذي تراني فيه. ذهبت إلى المرتفع لتلقي بنفسها في النهر وتنهي حياتها. ولكن تم اكتشاف أمرها لأنها كانت تحت المراقبة الصارمة والمتواصلة ليلا ونهارا.

كانت تلك الليلة هي الليلة التي قابلت فيها زوجها بعد ثلاثين سنة. حاول أن تتصور المشهد: المكان.. كان هذا المكان نفسه. في تلك الليلة

ظهر القمر متأخرا. جاءت أمي بهيبتها وفتنتها كالإلهة وسارت ببطء كما أمروها أن تفعل. رآها والدي وجفل. كانت أمي في شبابها كوردة الزنبق المائية في رقتها، لكنها بدت في تلك الليلة كتمثال من الرخام، بلا حياة، ولكن أكبر من الواقع. رق قلب الخان الأكبر، تقدم نحوها باتزان وثقة عظيمين.

«قدسية، لقد سامحتك»، قال ذلك بصوت رقيق ولكن بنبرة حازمة. «ليشهد الله على ما أقول».

ظلت أمي صامتة للحظات ثم نظرت إلى الأعلى، والتقت عيناهما. «أريد أن أعترف بشيء»، قالت بنبرة قوية «لقد كذبت عليك في الماضي. لقد... لقد لمسني الأجنبي.. ولكن ليس دون موافقة مني». وبعد أن قال ذلك، سارت بخطوات محسوبة واختفت في جناح النساء.

ومنذ ذلك اليوم رفضت أن تقابل أحدا، ولم يشاهدها أي إنسان بعد ذلك مطلقا. وقد امتنعت عن إصدار الأوامر للخدم وامتنعت عن الكلام.

والدي، الطاغية، أصبح بعدها في حالة يرثى لها. أراد أن يقابلها لكي يسمع منها ولو لمرة واحدة أن ما قالته له في تلك الليلة لم يكن إلا أكذوبة: لكنها رفضت لقاءه، حتى إنه توسل أمامي كي أذهب وأنقل رجاءه إليها. لكن أمي ظلت صامتة كالحجر. توفي والدي بعد ذلك بوقت قصير، ولكن أمي لم تره إلا في يومه الأخير.

صمت ناصر للحظات قصيرة، ثم تكلم ثانية: «أريد أن أسألك سؤالا: هل تعتقد أن ما قالته أمام أبي كان صحيحا؟ ماذا ترى؟».

«أعتقد أن ذلك لم يكن صحيحا على الإطلاق» قال إعجاز بتعاطف، وأردف: «ألم تقل لك إنها لم تكتب إلا الحقيقة في مذكراتها؟»

«أعرف، ولكن لماذا قالت ما قالته لأبي؟»

«قالت ذلك لتحطم كبرياءه. لقد عوقبت بقسوة لشيء لم ترتكبه وتلك كانت وسيلتها للانتقام»

«نعم، أنت على حق. وقد انتقمت»

بينما كان ناصر يقول تلك الكلمات، رأى إعجاز فتاة في منتهى الجمال قادمة من المنزل نحوهما. كانت ترتدي ملابس حديثة، ومن منظرها عرف أنها ابنة مدينة ومتعلمة غريبة تماما عن هذا الجزء من البلاد.

ناصر رآها أيضا. ابتسم وقال. «تعالي يا عزيزتي، لأعرفك بصديقي العزيز إعجاز الذي طالما حدثتك عنه».

«إعجاز، هذه زوجتي نعيمة» قال ناصر، وهو يقدمها له.

وقف إعجاز ليحييها، وبعد أن تحدثا لفترة قصيرة عادت إلى المنزل. بعد أن اختفت قال ناصر: «لقد تخلصت من العادات القديمة. لم يعد لدينا أجنحة خاصة بالنساء وأخرى بالرجال. إنني آخذ زوجتي معي إلى كل مكان أذهب إليه. أخذتها معي إلى النهر في اليوم التالي لزواجنا مباشرة. وقد رأيت كم فرحت لنا أمي. وانحنى ناصر نحو إعجاز كأنه سيبوح له بسر.

«إنني أتعمد تقديم زوجتي لأي أجنبي يأتي لزيارتنا هنا. لا أعرف لماذا أفعل ذلك»، قال ناصر.

ابتسم إعجاز لأنه كان يفهم تماما لماذا يفعل صديقه ذلك.

الانـحـدار

ممتاز شيرين

نظر إلى الأعلى.

درجات سلم طويلة تقود للأعلى، عريضة، بيضاء، ولامعة. سلالم بيضاء تقود إلى غرف بيضاء في الطابق العلوي تنغمس بالضوء- الضوء العلوي. توقفا عند أسفل السلم. هو وهي. نظر للأعلى نحو الدرجات العالية... لا، لن تتمكن من الصعود. لن تستطيع ارتقاء كل هذه الدرجات وهي بحالتها هذه. خاطبها برفق، «دعيني أحملك».

احمر وجهها خجلا وهزت رأسها. «لا... لا. كيف تحملني كل هذه المسافة صعودا والناس تنظر إلينا؟»

«لا يهمني»، ومد ذراعيه نحوها ولكنها دفعتهما جانبا معترضة،

«أستطيع الصعود بنفسي»

«حسن إذن، سأساندك فقط للمساعدة»

وضع ذراعه حول كتفيها وضمها إليه بقوة.

ومعا ارتقيا السلالم، خطوة خطوة.

الدرجات البيضاء العريضة واللامعة تقود إلى الغرفة البيضاء في الأعلى. هناك كان ضياء، حيث ولدت حياة.

الألم بدأ هناك يعتصرها، بين فترات قصيرة متقطعة. بضع درجات للأعلى وأصبح الألم متقطعا أكثر. في عمودها الفقري، وركبها، وبطنها. رجفات باردة انتابت جسدها كله، وظهرت حبات من العرق على جبينها. أخرج منديلا ومسح وجهها. سينتهي كل شيء بعد قليل. «تمتم بحنان. ضمها إليه» ميلي علي، ضعي وزنك علي. نعم، هكذا. سيساعدك ذلك.

أغلقت عينيها وتركت رأسها يسقط على كتفه.

صعدا إلى الأعلى درجة درجة.

أخذتها الممرضات إلى الداخل، وطلب منه الانتظار في الخارج. فجلس هناك، على الكرسي الخشبي الطويل. بدا أن كل شيء قد جاء فجأة، ولم يكن يتوقعه، إذ لا يزال هناك متسع من الوقت. كانت هي متعافية ذلك المساء. جاء إلى المنزل كالمعتاد، مرهقا، وقابلته هي بابتسامة حنون ومريحة. تألمت لرؤياه مرهقا ومحبطا. وكالعادة أحضرت إبريق الماء وصبته بينما راح هو يغسل وجهه ويديه. ياللزوجة الوفية! مزيج من الشعور بالحب والعرفان غمر قلبه. أبدى رغبته في أن تجلس بجانبه وتحدثه عن تلك الأيام، أيام السعادة الخوالي ، لكنها قالت إنها ستحضر عشاءه أولا، فقد كان يبدو ضعيفا ومرهقا. وضعت العشاء. جلس هو والأولاد أمام الوجبة الفقيرة. وذهبت هي إلى المطبخ، ربما لترى ما إذا كان هناك شيء آخر لتحضره لهم، ثم رآها تتمسك بالباب وتسقط عند العتبة. ترك طعامه وأسرع نحوها. رفعها ثم حملها إلى السرير. سألها بلهفة عما جرى لها ولكنها لم تخبره. إنها هكذا دائما. تحاول دائما إخفاء ألمها عنه، لكنه كان يدرك بإحساسه أنها تتألم. ثم اضطرت لتقول له إن اللحظة قد أزفت. وأسرع بها إلى هناك. تمنى لو أن كل شيء سيكون على مايرام. لكم ارتعشت بين ذراعيه وهو يحملها إلى أعلى السلم. لا بد أنها كانت تتوجع كثيرا. لكم كانت ضعيفة. لم يتبق بها إلا القليل من القوة. هل ستنجو من هذا الصراع بين الحياة والموت؟ عصر الألم قلبه وهو يجلس في الخارج منتظرا. واستلقت هي هناك، في جناح الولادة. الآلام كانت لحظتها غير محتملة. جحظت عيناها وعضت على شفتيها بقوة. لكنها لم تتأوه، لم تدع صرخة تفلت من بين شفتيها، لأنه بذلك سيعرف كم تتألم فيتألم هو

نفسه أيضا. لم تصدر صوتا، لكنها عانت وصبرت حتى لم تعد تحتمل المزيد، ومن ثم فقدت وعيها.

في المستشفى وقف بالقرب من الباب المغلق. تملكه الجنون. راح يمشي جيئة وذهابا، ثم عاد وجلس على المقعد الخشبي الطويل مثقلا ضجرا. حدق في الفضاء بعينين لا يبدو أنهما تبصران.. أجهد أذنيه ليسمع تأوها، صرخة من جناح الولادة. لكن كل شيء كان هادئا. هل يعني ذلك...؟ كان كأنه طعن في قلبه. «أوه يا إلهي ! دعها تعيش هذه المرة فقط. «صلى بصمت من أعماق روحه، بينما تولد روح جديدة من الأم، فحياة الأم نفسها تكاد تنطفئ. أجهد أذنيه ثانية. كل شيء هادئ كالسابق. ربما كانت تتحمل بصبر. لكم صبرت وهي تلد، دائما. وربما لا تزال بخير الآن، لا تزال حية.

جلس على المقعد الخشبي الطويل منتظراً. منتظراً إلى الأبد، كما بدا له. توقف الزمن. المعاناة، الألم، عذاب حياة بطولها تركز في تلك اللحظات القليلة.

وفي الداخل، رقدت هي هناك غائبة عن الوعي. كان وليدا صغيرا جدا. وقبل قطع الحبل السري من السرة فارق الحياة . ببطء، بدأت تستعيد وعيها. لم تسأل عن الوليد. شعور خفي، غير معروف، غامض، هو «الحاسة السادسة»، حذرها بأن الطفل قد مات. واستها المرضات. يجب عليها ألاّ تقلق، هكذا يحدث دائما مع الأطفال الذين يولدون في شهرهم الثامن. إنهم نادرا ما يعيشون. أحضرت ممرضة الوليد وأمسكته أمامها لتراه. فأدارت وجهها ببطء إلى الناحية الأخرى. نظرة واحدة ألقتها على الوجه الصغير الشاحب، على الجسد الصغير الميت. وتدفقت دمعتان صامتتان على خديها، وتجمد داخلها حس الأمومة

الدافىء الذي جاش في صدرها حديثا.

فتح البـاب وخـرجت منه ممرضـة. هب واقـفـا وهو يحـدق بهـا كـالمجنون. أخبـرته الممـرضة بأن الوليـد قـد مـات فـور أن ولد. لا داعي للقلق، هكذا الحـال دائمـا مع الأطفـال الذين يولدون فـي الشـهـر الثـامن. لكنه لم يكن يفكر في الطفل. يفكر فقط فيـما إذا كانت هي بخير... هل هـي بخيـر؟ وواصلت المـرضـة: لا داعـي للقلـق، هـؤلاء الأطفـال نـادرا ما يعيشون. «وزوجتي؟»

«زوجتك؟ حسن، أحضر لها كوبا من القهوة. ستنعشها القهوة قليلا.»

قهوة لزوجته؟ إذن هي بخير.

عندمـا أحضـر القهوة، اكتشف أنهم قـد نقلوها إلى جناح آخر. كانت مـسـتلقـيـة هناك بهدوء على السـرير. وقف بجـانبـهـا وراقب جـسـدهـا الضعيف الشـاحب.

«كيف تشـعـرين الآن؟» سـألها برفق وهو يأخـذ يدهـا البـاردة في يده. ابتسمت بوهن. «أنا بخير. لكنني هذه المرة أشعر بالضعف، كل مفصل في جسدي يؤلمني»

لـم يتـحـدثـا عـن الطفـل. فكر أن ذلك أفـضـل. لقـد نجـت وهـذا كل ما كـان يتمناه. في صبـاح اليوم التـالي ذهب إلى المستشفى. أخذ الأولاد معـه أيضـا. ابتـسـمت لهم. تجـمع الأولاد حـول سـرير والدتهم وجلس هو بجانبها وهو يمسك بيدها. لا حظت النظرة المتلهفة في عينيه وضغطت يده مطمـئنة. في نظراتهـا إلـى وجهـه ثروة من العطف والحنان، والحب، والإخلاص، وعبادة صامتة.

ومع ذلك، أصـبـحت ثيـابه الفـضـفـاضـة الرثة تتـهـدل حـول هيكله

العظمي الداكن. وكانت هي ترتدي ملابس خشنة لا لون لها . جسمها قد فقد شكله نظرا لإنجابها العديد من الأولاد. كلاهما كان مرهقا من العمل الشاق. لم يبق له شكل. الفقر قد سلبهما ما تبقي لهما من فتنة الشباب. كان هو حنطي اللون، فأصبح الآن داكن البشرة، وغاص خداه. أما هي فقد كانت بشرتها صفراء، شاحبة، وهناك هالة من السواد حول عينيها اللتين غارتا في محاجرهما. لم تكن تتعدى الخامسة والعشرين، لكنها تبدو أكبر من ذلك بكثير. إنها في طريقها للذبول التام.

وكان هناك شيء غير الجمال، قوة أهم من جاذبية الجسد، يكمن خلف ذلك التقارب الشديد بينهما.

كان الكبار قد شبكوا بين أياديهما منذ الصغر طبقا للطقوس الدينية، ومنذ ذلك اليوم أصبحا ملكا لبعضهما بعضا. وأدركت أن عليها أن تحب زوجها. كان هو سيدها، ويجب عليها طاعته، فأحبته، حتى العبادة، ووضعت نفسها في خدمته.

أما هو فقد أدرك أنه أعطي إنسانة ضعيفة، رقيقة، ليهتم بها، ليحميها وينفق عليها. هذه الإنسانة الضعيفة ستشاركه في حياته، ستكون مدبرة بيته، وأم أطفاله. وهكذا اجتمع قلباهما. المشاركةالطويلة جعلتهما كما هما الآن، عمقت عاطفتهما وحبهما لبعضهما بعضا، وزاد الأطفال الذين ولدوا ثمرة حبهما تلك الرابطة إحكاما. الأطفال أيضا كانوا يشعرون بأن أمهم ليست على ما يرام. تساءلوا بلهفة: «أماه، ألست بخير؟» تحسسوا جبينها. «هل هي الحمى؟» وقال الأصغر بصوت مؤثر «أين تشعرين بالألم ياأمي؟ أريني. سأقبل الموضع وسيختفي الألم...» ، وقبل ذراعيها.

«تعال، هنا» أمسكت بصغيرها وضمته إلى صدرها. شعرت بسعادة

غامرة جدا. لكم أحبها صغارها هؤلاء الذين هم قطع من لحمها، ودم من دمها. لقد أعطتهم دم حياتها لينموا ويكبروا. هؤلاء الصغار الذين تكونت أشكالهم وحياتهم داخل رحمها. تنهدت وهي تفكر بأنها لم تخلق حياة جديدة هذه المرة.

وبعد كل ذلك، فما الذي تملكه في هذه الحياة البائسة؟ الفقر، المجاعة، البؤس، الحزن، الألم. ولكن هناك أطفالها الذين يحبونها، وزوجها الذي يحرص عليها ويهتم بها. نعم، تلك هي ثروتها في هذه الحياة. وقت الزيارة انتهى وكان عليهم أن يغادروا المستشفى.

تابعتهم بنظرها وهم يخرجون من باب الجناح الذي ترقد فيه.

في زيارة اليوم التالي وجدها مستلقية بسكينة وهدوء، لكنها تبدو أكثر شحوبا. وجهها أصفر، وكأن ماء الكركم قد رش فوقه. بدت وكأن دمها قد تم سحبه من جسدها.

جاءت ممرضة ووخزت إبهامها. أخذت قطرة من دمها تشبعت بها ورقة ترشيح. فحصت نسبة الهيموجلوبين، وجاءت الدكتورة في ذلك الوقت وفحصت الدم هي الأخرى.

التفتت الطبيبة نحوه وهي تكاد تستشيط غضبا. «ألا ترى الخطر المحدق بزوجتك؟» كلمته بالإنجليزية، «هل تستطيع تخيل ذلك؟» لم توفر لها حقن عصارة الكبد، لم تعطها دواء مقويا أثناء حملها. وعندما تصبح في حالة يصعب فيها علاجها، فإنك تحضرها هنا. وأظن أنك ستلومنا إذا ماتت.

كل كلمة نطقت بها الطبيبة نزلت كضربات المطرقة فوق قلبه. ألم يحب زوجته؟ ألم يهتم بها؟ لم يعطها دواء مقويا. موظف صغير هو:

كيف له أن يوفر لها الدواء المقوي والحقن؟ والآن أصبحت بهذه الحالة. كانت تقترب من الموت... تقترب من الموت... أوه، حقا إن الجحيم هو الفقر.

لم يعد يركب الحافلة إلى العمل، كان يمشي مسافة الطريق كله. توقف حتى عن تدخين سجائره الرخيصة، وبالآنات* القليلة التي وفرها اشترى بعض الفاكهة. اقترض بعض النقود واشترى الحقن اللازمة.

ومع ذلك ظلت راقدة بضعفها وشحوبها الأشبه بشحوب الموتى. وجهها أصبح أبيض اللون وجسمها كان باردا وخدرا. قفازات جلدية دافئة وجوارب تغطي يديها وقدميها. زجاجات وأكياس الماء الدافىء وضعت تحت أقدامها. يستطيع المرء أن يشعر بحضور شيء غريب خفي يحوم فوقها، شيء ينذر بالموت.

ومع ذلك فقد ابتسمت له ابتسامة واهنة تطمئنه بها. وبينما جلس بجانبها وهو ينظر إليها، انعكس الألم في عينيه. واساها: «ستكونين بخير. سأهتم بك. سأعطيك المقوي والفاكهة. إنني أوفر النقود، تعرفين». وابتسمت له بحزن: «نعم، سأغدو بخير.» شعاع من الأمل.

ربما سيبقي هذا الأمل على شمعة حياتها مضيئة. ولكن في اللحظة التالية التي أدرك فيها أن ابتسامتها كانت ابتسامة متكلفة، بدت في عينيها نظرة بعيدة.

هدوؤها انقلب أنينا ثم جاءت الليلة الحرجة. في تلك الليلة تأوهت وأنّت بلا توقف بشكل يرثى له. أدرك أن المحنة قادمة. توسل إلى الممرضات والأطباء ليسمحوا له بقضاء تلك الليلة فقط بجانبها. لم

(*) الآنات: جمع آنة. وهي أقل من الفلس.

يستجيبوا لتوسلاته. كان ذلك ضد قوانين المستشفى؛ إضافة إلى أن ذلك الجناح لم يكن خاصا ليسمحوا لأي شخص بالبقاء مع مريضه. جاءت ممرضة وأعطتها حبوبا منومة وهي تصرخ بها بوحشية، «ألا تصمتين؟ إنك تتأوهين بفظاعة. ألا تعرفين بأنك تزعجين المرضى في الأجنحة المجاورة؟». المرضى في «الأجنحة المجاورة». لماذا لا تقول الحقيقة؟ المرضى في «الأجنحة الخاصة» ، «القلة المختارة» ، وسبب هذه المعاملة التي يعاملونه بها أنه فقير، فهو ليس من «القلة المختارة»، فكر في ذلك وهو يجر خطاه إلى منزله. تأوهاتها لا تفارق مسامعه. وعندما استلقى فإنه ظل صاحيا وهو يحدق بالسقف. ظل يسمع أنينها الموجع طوال الليل.

في الصباح التالي عاد لها هدوؤها. هل يعني ذلك أن المحنة قد زالت؟ فكر بأمل. لكن الدكتورة فحصتها وهزت رأسها بيأس. «لم يبق إلا أمل واحد» «ما هو يا دكتورة؟» سأل بجنون.

«نقل دم...»

«أرجوك افحصي دمي يادكتورة. إذا كان يناسبها...»

ونظرت الدكتورة إلى ذلك الرجل من رأسه إلى أخمص قدميه. هل سيتبرع بالدم، هذا المتهدل، النحيل؟ إنه هو نفسه يبدو كما لو أنه ليس لديه إلا القليل من الدم. لكن نظرته الموزعة أتت بالإجابة بعزمه: «سأعطيها أي كمية تحتاجها، إذا كان ذلك ينقذ حياتها.»

بعض مئات من السنتيمترات المكعبة من الدم تم سحبها من جسمه ونقلها إليها. بينما راح دم زوجها، كل قطرة من القطرات المحملة بالدفء والحب، يمر في عروقها، ويتسرب دفئا في جسدها. بدت

وكأنها تنتعش. لمس رأسها. كان دافئا، دافئا. انحنى فوقها وهمس برفق. «ستشفين الآن، بالتأكيد.»

ابتسمت ابتسامة دافئة، إذ أدركت كل شيء. شكرته بعينيها وفتحت شفتيها لتقول شيئا. ارتجفت الشفاه، تحول لونها إلى الأزرق وراحت في نوبة من التشنج العنيف الذي هز جسدها كله. غرزت أظافرها في الشراشف. تمسك بها وانحنى فوقها. أرادت أن تقول شيئا، ولكن شفتيها ظلتا ترتجفان. ربما كانت تسأل عن أطفالها. وفي نوبة رعبه، برقت تلك الفكرة في عقله. طلب من بعض نسوة الجيران اللواتي جئن معه ليذهبن ويحضرن الأطفال. بيتهم لم يكن بعيدا. ولم يمض وقت طويل إلا وجيء بالأطفال. نظرت إليهم واحدا تلو الآخر. حاولت أن تمد ذراعيها نحو الصغير لكن ذراعيها سقطا بلا حياة. نظرت إليه لآخر مرة، وكأنها كانت تودعه. وبعد ذلك انتهى كل شيء.

أخذ يضرب على رأسه وهو ينادي باسمها مرة تلو الأخرى. لكنه سرعان ما أدرك أنه في المستشفى. يجب عليه عدم التصرف هكذا. وهناك الأطفال. يجب أن يلتزم الهدوء أمامهم. ترك نفسه ليسقط على كرسي. وقف الأطفال بجانب كرسي أبيهم وحدقوا بجسد والدتهم. لغز الموت كان فوق مستوى إدراكهم.

جلس يحدق بها أيضا. الممرضات كن يغطينها بالشراشف البيضاء. شراشف بيضاء، ووجه ببياض تلك الشراشف. وجه أبيض وشعر غزير أسود ساقط على الأكتاف.

كان وهو يحدق بها غير واع لمحيطه. وبوهن شديد، استطاع أن يميز بعض الكلمات التي كانت تقال حوله. كانت الطبيبة تقول: «إن الوقت الآن متأخر من الليل. يمكنك أخذ الجثة غدا. سنحتفظ بها هنا في

الثلاجة. نحن آسفون لعدم تمكننا من إنقاذ حياتها... وتستطيع أن تدفع الفاتورة لاحقا...»

وراحت عاملات نقل الجثث الكئيبات يزعقن. «لن ننزل الجثة إلا بعد أن نقبض.»

ثم سمع الممرضات يقلن لبعضهن بعضا: « على أي حال، فقد رأينا الكثير من الأموات هنا، لم يخفنا منظر الأجساد الميتة أبدا، لقد تعودنا على ذلك. لكن انظري لها . ألا تشعرين...؟» ، وهمسن بشيء.

كن يوجهن إليها الإهانة حتى في موتها.

فجأة، هب واقفا وحمل الجسد بين ذراعيه. أحضر أحدهم نقالة. دفعها جانبا. مر عابرا أمام كل من وقف ينظر إليه بدهشة. وهو يحمل جسدها نزولا إلى السلالم التي تقود إلى الفناء الخلفي.

قبل أيام قليلة .. كم يوما كانت؟ كان قد صعد إلى أعلى تلك السلالم وهو يساندها، ممسكا بها بقوة. كان قد جعلها تصعد السلالم، والآن فإنه ينزل إلى الأسفل، وهو يحمل جسدها الميت بين ذراعيه.

كانت لهذا الجسد حياة يوما ما، بل حتى قبل لحظات. والآن أصبح باردا ويابسا ومثقلا بالموت. لقد أحب هذا الجسد، أحبه لعشر سنوات. والآن فقدها إلى الأبد. كم من المرات حمل هذا الجسد بين ذراعيه عندما كان خفيفا وناعما ودافئا؟ كانت بالكاد في الرابعة عشرة من عمرها عندما جاءته عروسا. وكانت أمه لاتزال على قيد الحياة آنذاك. أمه جعلتها تعمل طوال اليوم. وعندما كانت أمه تذهب لزيارة بعض الأقارب، كان يقضي معها أحلى الأوقات. كان يحملها بين ذراعيه ويدور بها. الأيام السعيدة تلك انتهت الآن بسرعة. العمل والإنجاب تسببا في

ضعفها، كانت مريضة دائما. طلب منها ألا تعمل كثيرا، ولكنها لم تستمتع له.. عندما كانت في العمل، كان يذهب خلفها خفية ثم يحملها برفق ويضعها في السرير لكي ترتاح. نعم، كم من المرات فعل ذلك. والآن فهو يحمل هذا الجسد لآخر مرة.

الآن يحملها للأسفل، لأسفل الدرج.

الدرجات كانت ضيقة ومعتمة. كانت هناك ظلمة في كل ما حوله. ظلمة الليل، ظلمة الموت. الدرجات تبدو بلا نهاية. طريق طويل إلى الأسفل... الأسفل، الأسفل. انحدار طويل. هبوط الانحدار الأخير.

رسائل بعناوين خاطئة

فاهميدا رياض

عندما قتل «ب» في زنزانة كئيبة في «كوت لاخبات»* في الباكستان، كانت أمينة في دلهي. كان أحدهم قد طرق باب غرفتها في الفندق في الصباح. فتحت أمينة الباب. إنه أحد الشعراء المضيفين. لم يدخل. كان يبدو شاحبا، كالمذنب تقريبا. «ما الأمر؟» سألت أمينة وهي لا تفكر مطلقا في «ب». ظنت أن ندوة الشعر قدألغيت.

«لقد شنقوه»، قال بهدوء وهو يتجاهل نظراتها. لقد مطوا القضية ضد «ب» لدرجة أن بات الهنود متورطين فيها إلى حد كبير.

شعرت أمينة بالخدر والبرودة.

«متى؟»

«هذا الصباح، في الرابعة تماما»

الخدر ثانية. العديد من الأفكار في عقلها، ثم قالت وهي تستمع بحرص لكلماتها: «كنت أعرف. قلت ذلك لمراد مرات عديدة لكنه لم يكن ليصدق بأنني أعرف. إن مراد متفائل أكثر من اللازم، ساذج هو مراد.»

وريثما انتهت من تفجير شكواها، كانت تبلور تصميما ما. الكلمات المتعددة التي جمعتها من سياسيين ومثقفين لتنقذ بها «ب» أصبحت الآن عديمة الجدوى. من الأفضل تمزيقها هنا فورا. ولكن الكتب؟ كيف ستهربها إلى كراتشي؟ في الماضي وعدها صديق من مكتب الطيران بأنه سينقل لها الرزم بهدوء. ربما لن يفعل ذلك الآن. يجب أن تقابله وتأخذها منه. يجب أن تبقي على موعدها في السفارة الباكستانية. في المساء ستعقد ندوة يحضرها شعراء في منزل السفير. يجب عليها أن

(*) كوت لاخبات: سجن شهير في الباكستان. المترجم.

تتواجد هي الأخرى، وأن تتصرف بطبيعية.

في السفارة الباكستانية كان هناك دبلوماسي له أغرب علاقة بأمينة. جانب مهم من تلك العلاقة كان كالتالي: خلال الخمس عشرة سنة التي عرف فيها بعضهما بعضا، فإن الرسالتين اللتين أرسلتهما إليه أمينة قد أعيدتا لها وقد ختم عليهما عبارة «عنوان خاطئ». انتقلت الرسالتان من مكان إلى آخر، من مكتب إلى مكتب. وأخيرا، عندما لم يتم العثور على المرسل إليه، أعيدتا إليها عن طريق مكتب البريد. كانت هناك فترة بضع سنوات تفصل بين إرسال الرسالة الأولى والثانية، وقد تم إرسالهما إلى دولتين مختلفتين. لطالما تساءلت أمينة فيما إذا كانت للعناية الإلهية علاقة بعدم وصول الرسالتين إلى المرسل إليه.

ولكن أمينة كانت فعلا مغرمة بذلك الصديق. صداقتهما برسائلها ذات العناوين الخاطئة كانت صداقة طويلة، متينة، وتخلو من المتطلبات، ورقيقة.

منذ زمن طويل، عندما كانت لا تزال في الجامعة، وكان هو قد التحق للتو بإدارة الخدمات الأجنبية، كانا قد التقيا، وفورا راقا لبعضهما بعضا.

كانت أمينة قد وقعت في غرامه ولكنه أثبط همتها برفق. وعلى أي حال، فالشعراء الشباب في الهند قد تزودوا بعادات أدبية، وتدربوا على ألا يحبطوا حتى من أوضح إشارات الرفض. وفعلا، فبعض أفضل أشعارهم تتغنى بمثل تلك العواطف من جانب واحد. إنه شعر يتحدث في اختيار المرء أشواقه والأساليب العجيبة في كيفية تجسيد تلك المشاعر. في الكلاسيكيات الهندية، فإن ذلك الحب يشبه شعلة الشمعة الساكنة التي يثبت عليها الصوفيون وممارسو اليوغا نظراتهم. (في

حضارات أخرى فإن المثابرة على علاقة من طرف واحد ربما تبدو عديمة الجدوى تماما أو حتى مضحكة)

بالنسبة لأمينة، كان حبها لذلك الشاب كالشعلة الأسطورية في القصر البعيد التي يثبت الغاسل نظره عليها وهو يقف في ماء نهر «اليامونا» المتجمد خلال ليلة طويلة باردة. أنت لا تلاحظ بوادر ضوء الفجر وهو يكشف السماء برفق ويذيب الشعلة في ضوء النهار وحيث تبدأ الطبيعة الممتدة بالظهور تدريجيا، ويظهر معها كذلك القصر نفسه شامخا على الضفة البعيدة لنهر يامونا.

«أي جائزة؟ لا جائزة !» يقول الملك في اليوم التالي منكرا عليه تعبه.

«لم ينجز هذا الرجل عملا فذا. فقد استدفأ بشعلة الشمعة في قصرنا»

ولكن الوزير الحكيم يقول للملك، «شعلة الشمعة لم تعطه الدفء. تحديقه هو الذي أبقاه حيا.»

وقف الملك منتصبا. وأعطيت الجائزة للغاسل. هكذا خرجت أمينة من بركة الماء بأول مجموعة شعرية لها. وعندما نشرتها، استقبلت المجموعة باستحسان وهذا ما حسم وحدد مسار حياتها.

والآن لنعد إلى الرسالتين. لم تكونا رسالتي حب. الأولى كانت قد كتبتها أمينة إليه خلال الحرب الهندية ـ الباكستانية عام ١٩٦٥، والثانية قبل الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١، عندما كان الجيش الباكستاني يذبح البنغاليين. لكن لماذا بحق السماء كتبت أمينة الرسالتين إليه وهو الذي لم يظهر لها أبدا اهتمامه بالسياسة؟ الكتب، الموسيقى والفن التشكيلي، كانت المواضيع التي غالبا ما يتحدثان بها. وفي إحدى

المرات، عندما قالت له على التلفون إنها كانت تقرأ في التاريخ، قال حينها بأسف، «لا تضيعي وقتك».

كان يؤمن بالفصل الأبدي بين (العالم الخارجي) وحياته الداخلية. وانسياب حياته الداخلية كان بلا شك جميلا. كان يعكس صورا لجمال رقيق، يشبه اللوحات الصينية. وأمينة.. كانت دائما تحب أن تطلق مماسات لسبر أغوار «الخارج». هل يجب علينا أن نحارب الهند؟ هل يجب ذبح البنغاليين باسمنا؟

حاولت أن تتواصل معه مرتين، وفي المرتين أخطأت في عنونة الرسالتين. والآن، وهي تسير نحو حجرته، كان فضولها مبهما.

(٢)

كان يقف إلى جانب الطاولة ليستقبلها. فجأة شعرت بسعادة غامرة لرؤياه، بوجهه المألوف، والابتسامة البلهاء.

تساءلا عن مصادفة لقائهما مرة ثانية دون أدنى تكلف. عندما كانت في لندن، كان هو يعمل هناك. والآن، في دلهي، دون جميع الأماكن الأخرى.

تكلما عن شعر الأوردو في الهند.

«هل ستحضر الأمسية الشعرية في منزل السفير الليلة؟ » سألته. بدا عليه الاضطراب. الآن لا مجال للتهرب من السؤال. وأخيرا وقع، فكرت أمينة.

فأجاب وهو يتلعثم متفوها بعبارات غير مكتملة عن قصد تعبيرا عن عمق مشاعره واضطراب تفكيره: «لا، لن أحضر. لا أعرف» صمت،

«أشعر كأنني...» صمت، «للبحث عن شيء ما» صمت، « و...» . صمت، «لم يتم الإعداد لها جيدا»

بدأت أمينة تشعر بالإرهاق. نظرت في الغرفة، إلى الورود، صورة مؤسس الدولة على الحائط. فهمت ردود فعله، وأدركت أنه عرف ذلك على رغم التكلف في تصرفاته. فقد كان مريضا في داخله. لكن كان هناك فارق. جذور آلامه سببها خياره هو. لم يكن خائفا مثل أمينة. ابتسمت له برقة وودعته. أدركت أنها وقعت الآن على مثال للأمراض المتفشية. وفي طريق عودتها في التاكسي، تمتمت لنفسها «فعلا، ذلك كان اجتماعا بعنوان خاطئ.»

(٢)

منذ أن طلبت حق اللجوء السياسي في الهند، فإن أمينة استسلمت بصبر للواقع الجديد معتبرة أن كل شيء في بلدها المضيف، سواء كانت أعمال شغب شعبية، أو انحراف قطار عن قضبانه، أو انقطاع للتيار الكهربائي، هو الآن مسؤوليتها الشخصية. تلك لم تكن أعراضا لجنون عظمة في طريقه للانتشار فحسب، وإنما لأن أمينة تعاني من المصير المحتوم لكل اللاجئين السياسيين لدرجة أنها هي أيضا قد وقعت ضحية للعنة الكارثة التي يتجنبها هؤلاء، لعنة الحبس المؤجل والاستجوابات العرضية. اللاجئون السياسيون في كل أرجاء العالم يعانون من هذه العلة وهم يحملون على أكتافهم كل تبعات معاصي الدول المضيفة. ليس هناك من فائدة ترجى في محاولة المرء إقناع نفسه بأن سعيه للحصول على اللجوء السياسي هو محاولة لتجنب الاضطهاد الشخصي، الحبس، وربما حتى التعذيب الجسدي خلال الاستجواب، وأن هذا التصرف لا يعني بأي حال من الأحوال، التصريح للعالم أجمع بأن الدولة المضيفة

هي الفردوس الحقيقي على وجه هذه الأرض. إن اتخاذ الإنسان وضع الفضيلة لن يسكّن آلامه، بل إن ذلك سيزيد من شعوره بالذنب والإهانة من موقفه الدفاعي.

في البلد المضيف، لا ينظر أحد بازدراء إلى اللاجئ السياسي. الناس تتعاطف معه وتحضر له سلال الفاكهة وباقات الزهور. إنه سيعيش الآن مثل المصاب بعجز مزمن. يستطيع المرء أن يستمتع حقا بذلك لبعض الوقت، ولكن السؤال هو، ماذا يمكنه أن يقول؟ ما يفعله حسن الضيافة هو زيادة مأزقه إحراجا. فاللاجئ السياسي يعلم بأنه في وضع لا يمكنه من أن يكون طبيعيا ولا حتى مخلصا، لأنه بالنسبة له، فالشيء النزيه الذي يمكنه فعلا أن يفعله، هو أن يكتب القصائد في مدح البلد المضيف، الشيء الذي سيجعله يبدو كمنافق أحمق من الدرجة الأولى.

إذن ما الذي يمكنه أن يفعله؟ إنه يشعر (العصفورة الصغيرة تخبره) بأن فرصته الوحيدة للإصلاح هي في التقاطه لمواضع الخطأ في الدولة المضيفة، ذلك فقط سيكون الدليل القاطع لكرامته التي لا تزال بكرا. وهو بذلك سيظهر للعالم أجمع بأنه لا يزال هو نفسه ذلك المعارض لكل ما هو خطأ، ولم يتغير. في أغلب الأحيان، تنجح الخطة نجاحا كبيرا. وهي تعزز وضعه في عيون الناس، وذلك ـ والله يعلم ـ ما نقضي أكثر من نصف حياتنا لتعزيزه.

كتبت أمينة العديد من الأشعار العاطفية، عرت بها أخطاء النظام الديمقراطي الذي لا يزال يسمح بحدوث المجاعة المرعبة. قرأتها على مجموعة مختارة من الكتاب الهنود. المفكرون الهنود الذين نادرا ما عرفوا الاضطهاد خلال النصف الأخير من القرن، الذين لهم مطلق

الحرية في الاختيار بين اليمين واليسار، بين الشرق والغرب، أو الشمال والجنوب، يتحمسون دوما للعقاب. فابتسموا لها بدفء. بعضهم علق قائلا «إنها محاولة مخلصة» وفورا، كشفت تلك الكلمات لأمينة بأنها قد أرسلت لتوها رسالة أخرى تحمل العنوان الخطأ.

يحتاج الأمر إلى بعض الوقت، ولكنك تعرف لاحقا بأنك عندما تقول كل الأشياء الصحيحة لأسباب غير صحيحة، فإنك إنما تلعب في ملعب شكوكك وظنونك.

رسائل أمينة ذات العناوين الخاطئة حاولت أن تقول لها ذلك بالضبط.

(٤)

مرت أشهر ثم سنوات قبل أن يشتريا أي أوان فخارية أو غيرها. شراء أي شيء هنا كان يبدو لهما أنه مجرد تبذير للنقود حيث إنهما سيضطران للتخلي عن تلك الأشياء عندما يعودان إلى بلدهما.

عندما تهشم آخر كوب شاي أعطي لهما كهدية من بعض الأصدقاء، لم يتبق لهما خيار آخر سوى شراء طقم شاي جديد.

عندما ذهبا لشراء طقم الشاي، أصبح من الواضح تماما لمراد بأنهما مازالا هنا ولم يعودا بعد. لم يفهم أحد من الذين حولهما لماذا يسبب شراء أكواب شاي كل تلك الآلام لهذين المغتربين.

عوضا عن الأكواب الستة المعتادة في طقم الشاي، فقد اشترى مراد اثني عشر كوبا. أقنع أمينة بأن شراء أكواب إضافية شيء أساسي، حتى إذا انكسرت بعض الأكواب فلا يبدو الطقم ناقصا. ولكن السبب الحقيقي لشرائه للأكواب الإضافية هو كونه لا يريد أبدا أن يدخل هذا المتجر ثانية.

عندما قدم لهما أحد الأصدقاء كيسا من البذور، شعر مراد بالسرور وبالضيق في الوقت نفسه. حمل على الصديق لافتراضه الاستثنائي وإهدائه لهما شيئا يحتاج إلى الوقت للنمو وربما يحمل أزهارا.

أخفى الكيس في أحد أدراج المطبخ. إذا كانا سيبقيان هناك لتلك الأشهر، التي ستستطيع البذور خلالها أن تنمو وأن تحمل زهورا، فما الذي سيفعلانه بالمزهريات عندما يعودان؟ لا يمكن لهما أن يحملا المزهريات وهما في طريقهما إلى بلد آخر. لا بد إذن من ترك تلك المزهريات أو إعطائها لأحد ما. كلاهما أصبحا يكرهان فكرة التخلي عن أشيائهما. من الواضح أن سبب الكره يعود لتخليهما عن كل ممتلكاتهما عندما هربا من بلادهما، وكانا قد تركا رسائل كتباها بعجالة لأقاربهما، يوصيانهم فيها بالتخلص من حاجاتهما بأفضل طريقة ممكنة.

بعد سنوات عدة، كانت هناك انتفاضة في بلدهما. احتفظ مراد بهدوئه وتحدث لأصدقائهما بلا حماس عن النجاح، أو الفشل المتوقع للانتفاضة. كانت تلك هي الأيام التي اشترى بها بعض أواني الزرع الفخارية. وجد كيس البذور المنسي في أحد الأدراج في المطبخ فقام يزرعها باجتهاد. أخذ وقتا طويلا وهو يملأ كل إناء بالتراب، وكذلك وهو يغرس البذور ويمزج السماد بالتربة. عندما انتهى من غرس كل البذور، رصَّ الأواني بجانب بعضها بانتظام. كل الذي يستطيع أن يفعله بعد ذلك هو أن يدور حولها سبع مرات (لكنه لم يفعل) لينهي بذلك طقوسه. طقوس غرس البذور كان ابتكارا غير مقصود من مراد يريد به أن يتقي شر الأمل.

(٥)

منذ أن وطئت قدماهما أرض الوطن المضيف، لم يكره مراد شيئا أكثر من كرهه الأمل، على رغم حديثه المطول والبليغ في مدحه. فالأمل جعله يشعر بالعار لدرجة أنه غرق بالندم لوضعه نفسه في موضع أصبح فيه الأمل واليأس من أساسيات الحياة اليومية. كان يؤمن بأنه لو تركه الأمل لحاله، فإن حياته ستصبح أفضل بكثير. في الحالات العادية، الأمل، والعار، ولعنة كل ما هو مميت، تظل تنتشر بشكل معقول، تنشر نفسها على أهداف مثل اللحاق بالحافلة أو الحصول على إعلان لصحيفتهما. ولكن كل الأمل الآن أصبح ينصب في نقطة واحدة، ألا وهي التوق الشديد للانقلاب على النظام العسكري الذي يحكم بلادهما. وهكذا فإنه إذا لم يلحق بالحافلة، فإنه يتضايق جدا لأنه فشل حتى في أخذه بالاعتبار احتمال عدم اللحاق بها، ولذلك فإنه عندما يغادر منزله ليذهب إلى المحطة، فإنه لم يكن يأمل أبدا في اللحاق بالحافلة، ولكنه يأمل في أن يشتري الصحيفة.

لم يحتج مراد لأحد ليخبره بأن الأمل كان من أسوأ الحالات التي يمكن للإنسان أن يعيشها. عكس الأمل اليأس، وهو الشيء الذي لم يعره مراد انتباها، ربما لأن روحه عرفته منذ وقت طويل. ولكنها فرضية خاطئة تلك التي تقول إن الروح القانطة لا تعرف الأمل، وهذه أيضا لاتعذب إلا الروح اليائسة. المتفائل لا يعذبه الأمل أبدا. بالنسبة إليه، الفشل عبارة عن لعبة، كرة سحرية يرميها إلى الأعلى في الهواء بفرح صامت، ولا يهم أين ستقع، إنها في يده ثانية لأنها كرة سحرية، وهو على استعداد لرميها عاليا مرة أخرى. هو نفسه يطفو دائما فوق الأرض ببضعة أقدام.

مراد لم يفشل أبدا في تحقيق أهدافه، لذلك فهو لا يعرف شيئا عن الفشل. بدأ حياته في فقر مدقع حيث كان الأمل يرفرف بجناحيه ويحوم فوق الرؤوس مثل النسر وهو يحوم فوق جثث الحيوانات المتعفنة عند أهوار الأنهر.

كره مراد للأمل كان مشابها لكرهه أمينة.

كيف تتخلص من الأمل: كان ذلك هو السؤال.

لم تكن السذاجة، ولكنها كانت الحاجة التي أعطت الأمل بصيصا. فكر في أنه من الأفضل لو أنه غير من طبيعة الأمل. الإنسان لايأمل في أفضل الأشياء على الإطلاق (ويا لها من مزحة). الإنسان يأمل دائما بالقليل. لكن مراد حدد مراده بالأمل في أسوأ ما هنالك (وحتى هذه لم تجعله يكف عن التحضير بسرية لشيء يمكن أن يكون أفضل بقليل من الأسوأ).

ولكن التحضيرات السرية راحت هباء. فالانتفاضة سحقت، وتعرضت إحدى القرى للقصف. قُتل حوالى ألف شخص، وآلاف أخرى تم حبسهم.

راح مراد يسرف في شراء آنية الزرع والبذور. وفي الوقت نفسه، بدأت تظهر براعم البذور التي زرعها سابقا. خلال أشهر، امتلأت شقتهما الصغيرة بالنباتات. أصبح متعلقا بتلك النباتات لدرجة أن التفكير في التخلي عنها أو إعطائها لأحد كان يؤلم قلبه. اعتبر مراد أن نباتاته هي ميدان معركته السري الذي يجابه فيه الأمل. ومع ذلك، في صباح أحد الأيام، وبينما كان يعزق تراب الآنية ويلتقط دود الأرض، فإنه فكر، إذا كان قد تم سحق انتفاضة واحدة، هل يمكن أن تكون هناك أخرى قادمة؟

(٦)

كلمة «انتفاضة» كانت دائما تذكّر مراد بانتفاضة صغيرة في قرية لم تفشل، وانتفاضة أخرى في جسده قد فشلت.

في كولارشي، إحدي القرى الصغيرة في الباكستان، كان مالك الأراضي ليس غنيا فحسب، ولكنه أيضا أحد المثقفين المحليين. كان أيضا صديقا لمساعد المفوض، وكانا يقضيان أمسياتهما في شرب الخمر وإلقاء القصائد الشعرية على بعضهما بعضا. كان مساعد المفوض شاكرا لصديقه الإقطاعي على هاتين الخدمتين إذ من أين له، وهو في هذه القرية الخربة، الحصول على الخمر والاستماع للشعر في الوقت نفسه وفي المكان نفسه؟

وكنتيجة مباشرة لتلك الصداقة، فقد اقتنع مالك الأرض بأنه في حالة مطالبة الفلاحين بنصف المحصول (كما يحق لهم بمقتضى القانون) فإنه لن يجد صعوبة في حبسهم جميعا. طالب الفلاحون بنصف المحصول كاملا. هددهم المالك بالسجن وطردهم هم وعائلاتهم من أرضه. وبينما راح المحصول ينضج وبدا جاهزا للحصاد، فقد ظل النزاع بلا حل .

عندما انتهى الحصاد، ذهب المالك إلى مساعد المفوض. «(ب) أدار رؤوسهم» قال المالك: «إنه يقول لنا شيئا ويقول لهم شيئا آخر. لنا، هو يقول: «يا صاح، أنا أتكلم فقط»، ولهم يقول. «اذهبوا، اذهبوا ، واحصلوا على النصف كاملا». لنأخذهم بخداعهم. لنحبسهم. وهكذا ألقي القبض على الفلاحين وأرسلوا للحبس.

كولارشي كانت معقلا لجماعة مراد الثائرة . (هنا «معقل» تعني قوة

سبعة أو أقل من القرويين) أحد رجالهم جاء مسرعا إلى الخلية، والخلية أسرعت إلى القرية وطلبت من النساء حراسة المحصول.

كان المالك قد استأجر بعض قطاع الطرق لينقلوا المحصول إلى مخازنه، وكان القرويون سينتهون ليصبحوا عجينة لينة تنز سائلا أحمر على يد العصابة، حيث إن هؤلاء معروفون بوحشيتهم الشديدة. ولكن عند وصول العصابة إلى الحقل ورؤيتهم للنساء وهم يحرسون المحصول، فإنهم عادوا أدراجهم وهم يعدون بأسرع ما يمكنهم وكأنهم قد رأوا شياطين الجحيم. سراويلهم الواسعة ذات الياردات التسع ترفرف في الريح. هناك، عقد اللصوص أياديهم وقالوا: «لا نرفع أيدينا على نساء الآخرين!» لا، بابا، لا! لا يمكننا أن نفعل ذلك.

المالك قد أغفل ما كان أحد اللصوص يخبره به الآن بكلمات واثقة: «ربما نكون قطاعا للطريق، ولكننا لسنا ما تطلق عليهم.... مخنثين. لدينا أمهات، أخوات، بنات. في كل صنعة هناك أخلاقيات معينة. ماذا لو هاجم أحد نساءنا بينما نحن غير موجودين؟ ما الذي سيحصل لعصابتنا حينها؟ »

القبض على القرويين كان خطأ.

في الوقت نفسه، كانت هناك قافلة من الجمال تسير تحت السماء المملوءة بالنجوم. أجراسها ترن بلطف فوق الرمال الناعمة لكثبان كولارشي الباردة. كانت تلك القافلة تحمل نصف المحصول كاملا إلى القرية المجاورة (حيث تقع الخلية). وقبل الفجر، كان نصف المحصول قد وزع على بنات وأخوات وأمهات القرويين.

(٧)

الانتفاضة الثانية حدثت إثر ابتسامة فلاحة خلف كومة القش الضخمة، تحت السماء اللامعة بالنجوم. عندما ابتسمت خفضت بصرها. في اللحظة التالية، فإن كل ما رآه مراد مرتسما فوق النظرة المنخفضة كانت صورة زوجها، زعيم الجماعة! الرفيق! ولم يستطع أن يفعلها بزوجة رفيقه الشابة، ولو توقفت حياته عليها. لم يستطع أن يخون شرف الرفيق الذي كان عندها يجري لاهثا فوق الكثبان الرملية مع الجمال. نصف عقله يقول له: يا مغفل، إذا لم.... فإن شخصا آخر سيفعلها. ولم يتحرك فيه شيء سوى إصبع ضخم محذرا إياه وصوت هادر يقول: شرف أخيك.... إلخ. ذلك كان صوت أبيه، أو جده، أو جده الأكبر، أو كلهم مجتمعين بواحد. الأخوة تتسرب في الأرجل وتذيب عظام الرُّكب. والصداقة الحميمة تؤكد نفسها من خلال العنة التي أصابته! والقروية تبتسم بازدراء. وكانت ابتسامة لا تنسى....

منفى

جميلة هاشمي

في الملحمة الهندية الرامايانا، لحقت سيتا بزوجها راما في منفاه، فخطفها الملك الشرير رافانا. لكن سيتا فضلت أن تنفى إلى أحد الأدغال في المملكة على أن تتزوج الملك الشرير والتمتع بكل مزايا الملكة. وعندما تمكن راما أخيرا من إنقاذها والعودة بها إلى مملكته، أرغمت على الإبعاد لأن الناس في مملكتهما طعنوا في شرفها بسبب عيشها بعيدا لزمن طويل.

طارت الطيور وهي تضرب بأجنحتها أسرع فأسرع، واصفرت الشمس وهي تهبط فوق مدرجات بحيرة «أوجال» الواسعة وحولت أشعتها الغاربة ألوان أعمدة المعبد إلى الأبيض المذهب. وفي الجانب الآخر من المعبد، بدأ مهرجان «الدوسيهرا» ينفض. خلال وقت قصير، سيتم إشعال النار في تماثيل الشيطان رافانا. وسيحدث الناس صخبا وجلبة وهم يتراكضون هلعا في كل اتجاه. وفي ضوء الفجر الأزرق، ستبدو الجمرات كالمشاعل المتساقطة. ويستمر ارتفاع اللهب لزمن طويل، وسيبدو الهلع على وجوه الناس المتواجدين في ضوء النار، وكأن كل واحد منهم هو رافانا متنكر يبحث عن سيتا ليتأمل في وحدتها خلال إبعادها الثاني.

الإبعاد أمر قاس، لكن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئا حياله. من الذي يتحمل المعاناة باختياره؟ أخي الأكبر كان يقول: «بيبي، لماذا تحلمين دائما! هذا الحب الذي تتمتعين به، وهذا الجو المرح حولك، ستقل هذه الأشياء تدريجيا. الزمن يقلل كل شيء، لكن التدهور يتم ببطء لدرجة أننا نتعود عليه. «أين أخي اليوم؟ هذا النسيم الذي يسافر معي وهو يحمل رائحة مسقط رأسي، لو كان يعرف مكانه لكنت أخبرتكم، «اسأله، هل يمكنك أن تسأله، لماذا لا يقلّ هذا الألم؟ لماذا يظل الناس يحلمون؟ حتى بعد أن سحبوا أحمالهم لسنوات عبر الممرات الشاقة لماذا يحنون للسلام ولماذا يحبون النور؟

لماذا كانت دعوة سيتا الوحيدة في المنفى هي أن تلتقي رامشاندرا ثانية؟ أليست المصائب هي ما يجعل الناس أكثر قسوة فيتخلون عن تطلعهم لأوقات سعيدة؟ ومع ذلك، لماذا لا نستطيع أن نستسيغ الظلام؟ لماذا؟

شجرة الكمثرى أصبحت تزهر منذ السنة التي ولدت فيها «موني». تتغير الفصول وأغصانها تتلحف بالبراعم، وتنحني الشجرة تحت وطأة أزهارها. الاتحاد بين الشجرة والتربة يصبح أقوى. جذورها تمتد في الأرض لمسافات أبعد. ولا يمكن لأحد أن يقطع تلك العلاقة.

لقد كبرت موني الآن. كم كانت هادئة خطوات الزمن وهي تمر بي. اليوم قالت الجدة لغوربال: «كاكا،* خذ كنتي والأولاد إلى معرض دوسيهرا. إنها لم تغادر القرية منذ سنوات.»

قال غوربال بحدة، «أمي، متى طلبت مني أن آخذهم ورفضت؟ ليست غلطتي أنها لم تذهب لأي مكان منذ سنوات.»

من الذي يمكن لومه على ذلك؟ عندما يطلق علي أحد اسم «كنة» (باهو)، فإني أشعر بأنهم يسيئون إلي. منذ سنوات وأنا أسمع تلك الكلمة، منذ تلك الليلة عندما دفعني غوربال إلى الفناء ووقف يتحدث إلى الجدة وهي جالسة على الكرسي العالي.

«اسمعي يا أمي، لقد أحضرت لك كنة (باهو)، جميلة ومبهجة. إنها أفضل غنائم اليوم.» واقتربت مني الجدة وهي ترفع لهب الفانوس. جحظت عيناي من الجوع والهلع. السير المضني على الأقدام حافية لأميال طويلة جعلني واهنة ولا أستطيع رفع إصبعي. سقطت متكومة عند

* كاكا: لقب الابن بلغة أهالي البنغال.

قدميها. البقرة والجاموسة المربوطتان في الفناء تركتا علفهما ووقفتا تحدقان بي. نظرت الجدة إلي من أسفل إلى أعلى مرات عدة ثم قالت، «لو أن غوربال أحسن صنعا، لما كنت في هذه الحالة اليوم. انظري إلي، أكاد أصاب بالعمى من كثرة ما هوّيت على النار. وكل الخادمات لم يعدن يتصلن لأن حصادنا لم يحن وقته. أخبريني كيف يفترض بي أن أتعامل مع أعباء هذا البيت. ليتك تبدئين بالزراعة.. سأكون في قمة السرور.»

قال غوربال، «ولكن اسمعي، لن تضطري إلى التعامل مع كبرياء الخدم وغرورهم بعد الآن. لقد أصبح لديك خادمتك الخاصة بك الآن. أرسليها إلى المجلخة، دعيها تحضر المياه، وكل ما تريدين. أنا لست ملزما بها. إنها كنة أحضرتها لك».

إن «سانجراو» كلها مليئة بالكنات، لكن لم تغن أي واحدة منهن أغاني الزفاف على وقع الطبول، ولم تطلق الراقصات النكات الداعرة أو تتمايل خصورهن وهن يسخرن. لم يزيّت أحد شعري الذي يبس من الغبار، ولم يقم أحد بتجهيزي للزفاف. أصبحت عروسا ولكن يداي لم تتزينا بالحنة، ولم أرتد ثوب العرس الأحمر ساعة الزفاف، ولم تأت محفة لتأخذني.

استمعت الجدة إلى غوربال وهي تنظر إلي كأنني عبء كان حفيدها قد حمله من مكان ما، ثم دخلت المنزل ثانية وهي تحمل الفانوس، دون أن يهتم أحد بي. ياله من استقبال لـ كنة!.

منذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا لا أزال أنا سيتا. إنني أتحمل النفي وأنا سجينة في سانجراو. راح رجال السيرك يقتلعون أراجيحهم وهم يداعبون بعضهم ويدخنون السجائر، وأخذوا يلقون بأدواتهم ومعداتهم بخشونة فوق

ظهور الحمير وكأن تلك الحيوانات مصنوعة من خشب. عربات الثيران الخاصة بممثلي «الرام - ليلا» تقف على أحد الجوانب، والممثلون الصبيان يأكلون الكولفي* والباكورا** مع الصلصة غير عابئين بملابسهم البراقة. البقع على تلك الملابس الملونة كأنها بقع من روث الحيوانات. موني تقف وهي تحدق بهم. لم تدرك أنه يمكن أن تضيع. ما الذي يفعله الإدراك؟ إذا كان مقدرا لأحد أن يضيع، فبإمكانه الاختفاء من منزل مليء بالسكان.

ها هو غوربال يشدها، وكلا الصبيين المرهقين يبكيان، ويطالبان بشيء يشتريانه من كل بائع أمامهما. هل هذا عدل؟

الزحام يدفع الأمهات هنا وهناك، وهن غير مباليات بأطفالهن، ولابانفصالهم عنهن. أطفال صغار، يحدقون بكل الوجوه، يبكون بصوت عال ويواصلون المسير. قل لي، هل يلتقي الناس الذين ينفصلون عن بعضهم في الأسواق المحتشدة ثانية؟ الانفصال يصبح حاجزا بين الجيلين. عيوننا لا تكتحل أبدا برؤية الوجوه التي نتوق لأن نلقاها ولو لمرة واحدة أخرى. ودروبنا تنغلق خلفنا انغلاق اللحمة والسداة أثناء النسيج. فليس باستطاعتنا رؤية آثار خطواتنا على الطريق الذي مشيناه. لا شيء يعود. والناس في الاحتفالات يتحركون حشودا إلى الأمام، دائما إلى الأمام.

الزمن لا يرجع أبدا. أخي الأكبر كان يقول: «بيبي، اللحظة التي تمر تمحى. تصبح غبارا.» لم أكن لأبالي، وعوضا عن ذلك، كنت أنغمس في اللعب ببيت دميتي مع صديقاتي حالما أعود من المدرسة. وكان أخي الأكبر يحاول أن يواسيني.

(*) كولفي : حلوى شبيهة بالآيس كريم.

(**) باكورا : تشكيلة خضار مغطاة بالطحين ومقلية.

كان أبي قد اشترى لي بيت الدمية، اشتراه من معرض. موني تتشبث بقطعة قماش كبيرة بحنان. وغوربال يراقب زحمة الناس في الأعلى. وبين حين وآخر تنحني موني لتنظر إلى دميتها. كلا الصبيين يحملان تماثيل لرافانا ويحدقان بكل وجه يمر بملامح تملؤها الدهشة. عينا موني تحملان الكثير من الحب لدميتها. عينا الدمية وأنفها محددون بخياطة غير متقنة على وجهها الواسع المصنوع من القماش. هناك خاتم في أنفها. عباءتها المطرزة حاشيتها بلون الذهب قد ثبت طرفها إلى رأسها، بينما أمسكت يدها بتنورتها الطويلة. ذلك يجعلها تبدو كأنها راقصة. والآن سترقص. طريقنا إلى سانجاراو يمر عبر شاطئ بحيرة يوكال. قافلة الحياة تواصل سيرها عبر ممرات ملتوية وأخرى مستقيمة وعبر آثار خطى متشابكة، وحتى لو وصلنا إلى الهدف، ينبغي أن نواصل المسير. إلى الأبد... إلى الأبد، حتى لو تجرحت أقدامنا وخوت قلوبنا. زرقة الغسق تزداد حلكة. لا أعرف لماذا، يجعلني المساء أشعر بحزن كبير. تقفز إحدى النجوم في بحرها الأزرق الخالي، ترتجف، تخفق مثل فتيل الفانوس. وحدتها تذكرني بمنفاي، بوحدتي. أنا كشجرة منفردة لاتثمر ولا تزهر. تلك النجمة تذكرني بالسفينة التي رحل أخي على متنها. بينما كان يستعد للسفر، وهو محاط بالمتاع المتكوم، تبلل صوت أمي بالدموع لكنها حزمت الأمتعة بهدوء وصلّت. كان أبي خارج المنزل منهمكا بترتيب بعض الأمور وأخي الأكبر كان كئيبا. أختي الكبرى راحت تمشي جيئة وذهابا في الفناء الداخلي بخطوات صامتة، وكنت أنا أثب في أرجاء المنزل وأنا أصفّر لحنا، من منا يشعر بحدة الألم قبل أن يجرح؟

كنا قد ذهبنا جميعا لوداعه في الميناء. أخي الأكبر ذهب ليكمل أوراق عفش أخي. انحنيت فوق الحاجز أراقب الماء المالح وسألت أخي، «لماذا يبدو الماء هكذا؟ لماذا يبدو ملطخا بالزيت؟ لماذا توجد قوارب إنقاذ هنا؟

لماذا هذه المجاديف؟ لماذا المرساة؟ ألا يخيفك منظر القوارب وهي تتأرجح فوق الأمواج؟» وكان أخي يقول وقد أزعجته الأسئلة: « عندما تكبرين ستعرفين كل الإجابات بنفسك يا بيبي. » واليوم أصبحت أعرف. السفينة التي لا مجاديف لها تغرق. حتى القوارب يمكن لها أن تغرق عند الشواطئ. موجة واحدة تكفي لإغراقها. الآن كبرت، واكتشفت الأجوبة، ولكن أخي ليس هنا. انطلقت صفارات الباخرة، وعانق أبي أخي ومسح بيده فوق رأسه وقال، «حسنا إذن يا بني، إنني أسلمك إلى الله» ثم عانقه أخي الأصغر بينما راحت أختي الكبرى تبكي عند كل حركة وكلمة. عندما رأى أخي دموع أختي وسمع شهقاتها قال، « انظري كم تبدو بيبي سعيدة، وأنت ما الذي يجعلك تبكين؟ سأعود بعد سنتين. الوضع ليس كما لو أنني لن أعود أبدا». ثم ضمني إلى قلبه وقال، «سأحضر لك هدايا من باريس. ما عليك سوى أن تواصلي الكتابة لي». وهززت رأسي إيجابا بشدة. انطلقت الصفارة ثانية وسار مبتعدا، بلاكلفة ولا مبالاة، وكأنه ذاهب إلى شيء خلف ناصية الشارع. لوحنا بمناديلنا طوال المدة التي بقيت بها الباخرة في مجال بصرنا. وفي سديم الماء، تراقصت أضواء الميناء على صفحة الماء. أما أضواء الباخرة، فقد ارتعشت كأنها نجمة وحيدة ثم تلاشت. بعد ذلك، غرقت كل الأضواء التي من حولي إلى الأبد. ولم تعد أية أضواء تتوالد على صفحة الأمواج.

لكم كان صراخي عاليا وأنا أتشبث بأمي. كان في داخلي من يقول لي: «لن تلمحي ذلك الوجه مرة ثانية. لن تتمكني من رؤية أخيك ثانية». كان قلبي يرتعد خوفا مثل تلك النجمة الوحيدة في الغرب، المرتعشة فوق الغسق الأزرق.

ظلام الليل ينشر أجنحته فوق الحدائق البعيدة. حمل غوربال الصبيين فوق كتفيه وسار بهما أمامنا فوق ممر كان يبدو كالخطوط البيضاء. كانت

موني تمشي ببطء. سيسبقوننا بنحو ثمانية حقول ثم ينتظروننا، لأنهم كانوا يقفزون فوق المحاصيل الناضجة. كان غوربال يحكي للصبيين حكاية رافانا. كيف له أن يعلم أنني أنا سيتا، التي تتبعه، وأنه هو نفسه رافانا؟

تقول لي موني، «أمي، ساروب أهداها خالها بعض الملابس الملونة والجميلة. إنها من الحرير وملمسها ناعم. أمي، أليس لديك أخ يستطيع أن يرسل لي أشياء جميلة؟ أمي، لماذا لا تقولين شيئا؟ لم يعجبك المعرض؟ هل أنت تعبة؟» فأجيب «نعم يا موني، أنا تعبة. لقد شخت. وكان علي أن أمشي كثيرا».

«أنت لست كبيرة مطلقا»، قالت موني بثقة متزايدة: « أنت كتمثال لإحدى الأمهات، حتى جدتي تقول ذلك أيضا».

كيف لموني أن تعرف كم علي أن أمشي؟ كم هي الفجوة واسعة بين حياة وأخرى؟ وإننا إذا تحجرنا، فلن يتبقى لنا أمل في قلوبنا. عندئذ نصبح لائقين للعبادة. لقد تحولت عيناي إلى حجر، وهما تراقبان، تنتظران هؤلاء الذين تفرقوا في الدرب نحو سانجراو. قلبي فارغ. يطلقون علي اسم لاكشمي، إلهة الثروة، ولكن قيود الألم لا تزال غير قابلة للكسر. مستمرة في التصاقها بقوة وبعمق.

وتعود موني لتسأل ثانية. «أمي، أليس لديك أخ - خال لي؟ » ولاأعرف ماذا أقول لها أو بم أجيب؟ وأقف عند المفترق، مفكرة.

لقد أحببت أخي كثيرا ولكني كنت أخاف منه أيضا. عندما كان يدخل المنزل، كان حجابي يبدو وكأنه يسرع من تلقاء نفسه بتغطية رأسي. كنت أمشي باحتشام أكبر، وكنت أسيطر على مرحي. عندما كنت أقف إلى جانبه، كنت أشعر بأنه أطول إنسان في العالم. أخي بمشيته الحذرة،

بحديثه المهذب، وخطه الجميل. كان يكتب بخطوط نظيفة مستقيمة، لا خربشة عند الحواشي، لا أياد ملطخة بالحبر. كان يقول لي، «بيبي، عندما تكبرين، ستكتبين مثلي أيضا». ما عسى أخي صاحب الخطوط المستقيمة والنظيفة يظن لو رآني اليوم؟ هناك حبر كثير على أوراق قدري بحيث لا يوجد أي خط مستقيم في الصفحة كلها. لم أتعلم أن أكتب بترتيب.

في تلك الأيام، بينما كنت أرتب بيت الدمية، اعتقدت أنه بإمكاننا العيش فيه. أمي وأبي وأنا. أخي الأكبر والأصغر وأختي أيضا. نعيش في ذلك المنزل فقط. الحياة أغنية حلوة، لا نحتاج إلى شيء، ليس هناك شيء ينقصنا. وعندما تزوج أخي قلت إن منزلنا هو الفردوس، الفردوس المطلق. عندما رفعت يديَّ بالصلاة في تلك الأيام، لم أعرف ما عساي أن أطلب. وبالتالي، كما الآن، لم أكن أطلب من الله شيئا. الألم والفرح يحتلان النقطة نفسها في دائرة الحياة.

عبر أخي المحيط وتهشمت أحلامي بالفردوس. تناثرت أجزاء حياتي هنا وهناك، ومثل قطع الزجاج، فإن أحرفها الحادة ستجرح كل من يمر بقربها. أقدام الجميع جرحت، لم يتبق أحد يمكنه العبور إلى الناحية الأخرى. لا أحد هناك على بعد أميال. من يستطيع سماع صوت سيتا المشتاق في تلك الأرض الأخرى؟ يالصعوبة ذلك، ألم الوحدة والحياة. غوربال ينادي علي من بعد. ينادي على موني. نسير ببطء. لم يتبق إلا العيدان في حقول القطن. يجمع الناس الورود الباسقة ويأخذونها. القطن لم ينضج للآن، ولم تتشكل البذور. هبات من الريح ترغم النبات الغض على الانحناء. يجب أن ينحني أمام الريح. الكل ينحني، الكل يطأطئ.

لا بد أن الجدة تشعر بالقلق الآن. خوف غير معروف كنهه يرغم قلبها

على الدق بعنف. الطريق إلى الأرض التي تفكر فيها ملتوية ومتعرجة. وبعد المسافة التي مشيتها مع غوربال، فلم يعد لدي القدرة على المشي لأبعد من تلك. ثم إنه إلى متى يستطيع الإنسان مواصلة المشي، خصوصا إذا لم يكن هناك مكان ليذهب إليه؟ إلى أين يمكنني أخذ قلبي الجريح، وشعري بفرقه الذي لم يعد أحمر؟ إن موني تقف في طريقي. موني هي الفاصل بيني وبين الماضي. كم من المسافات تفصل بيني وبين أحبائي. كيف يمكن لي أن أسترق نظرة خلفها؟

فرقة الغناء تقترب من ورائي وهي تغنيَ أغاني دينية. المعرض المقام على شواطئ بحيرة يوكال قد انتهى، وانتشر الناس في الطرق المجاورة. أطفال يبكون، رجال يتحدثون بأصوات عالية وهم يمرون بي وبموني. نساء في أحسن ملابسهن وممسكات بطرف وشاحهن فوق جباههن يحملن صرر الحلوى التي اشترينها من المعرض، ويضعن أطفالهن على أكتافهن وهن يسرن برشاقة بأقدام حافية. أحذيتهن تتأرجح خلفهن وقد ربطت في أوشحتهن. هناك صلة عميقة بين التربة والأقدام. لماذا نخلق عوائق؟ وعندما يبتعد الناس يبدون كالبقع البيضاء. أحد أتباع اليوغا يدخل الطريق المؤدي إلى سانجراو وهو يداعب أوتار الإيكتارة*. لكم كان صوته مؤثرا! إنه على حق أليس كذلك؟ عندما يقول إننا نتوق إلى النور حتى مع علمنا بأن ذلك شيء خيالي. إنني لا أسمع اللحن من أوتاوه، وإنما أسمع فقط بعض كلمات أغنيته.

«أمي، لم أنت صامتة هكذا؟ قولي شيئا، إنني أشعر بالخوف»

موني تجد صعوبة في الإمساك بدميتها أثناء محاولتها القبض على يدي بقوة أكبر. صوتها مشبع بالدموع، ولا تتمكن من طرح سؤال آخر.

(*) آلة موسيقية ذات وتر واحد.

ستدرك موني هي الأخرى أيضا عندما تكبر بأنه لا فائدة من الخوف من الظلام. عندما تبدأ شعوذة الظلام، فإنها لا تقاوم. كان أخي يقول: «بيبي، الماء يحتوي على القوة، إنه يشق طريقه بنفسه». لم أفهم كلماته آنذاك. من أين يحصل الماء على قوته؟ الزمن يشق طريقه بنفسه إذ ينساب. عندما تناديني الجدة، أضع علامة التزيين في منتصف جبهتي وأرد بصوت رقيق وباحترام، «نعم». أحاول إنجاز أعمالها على أكمل وجه لكي أبقى مشغولة، وحتى لا يكون لدي وقت للتفكير والتحليل.

عندما كان لدي الوقت، لم يكن لدي الفهم. الآن لدي الفهم، ولكن ليس لدي الوقت. دائما هناك نقص، ذلك لا ينتهي أبدا. هذا الشيء أو ذاك يبقى دائما غير مكتمل. اليوم، إذا أغمضت عينيَّ فإن قلبي يقول «إخوتك سيكونون هنا بعد لحظات»، وحالما يراني أخي فإنه سيقول: «بيبي، ماهذا التنكر؟ تلك العلامة على جبينك لا تلائمك أبدا. أزيليها. القي بها بعيدا. انظري إلى ما أحضرته لك. تخلصي من كل ذلك. تعالي هنا إلي. اجلسي. الإجازات قصيرة وتمر بسرعة. أرجوك لاتذهبي إلى أي مكان عندما أكون قادما للزيارة».

ونجلس في الغرفة الواسعة، ننظر إلى الصور، نتحدث، نشرب الشاي، وندفئ أنفسنا بالكانون* . عندما كنا نضحك بصوت عال، كانت أمي تقول بصوت خامل« يجب أن تنهضوا مبكرا في الصباح. اخلدوا إلى النوم يا أولاد».

ويرد أخي الأكبر بصوت أعلى ، «أمي، إنني أعيش بعيدا عن المنزل طوال السنة، وأهرب من بؤسي بالنوم. فلم العجلة؟ وأخيرا سننام ياأمي». وأفكر أنا، «هذه الأوقات ستصبح غبارا. الفردوس الذي خلقناه من الحب سيطمسه الغبار والغفلة ولن نجده ثانية، ولا في أي مكان» مثل الصور،

لسنا سوى انعكاسا للواقع. قلبي كان مجنونا دائما، وأفكاري غريبة، أفكار متمردة . قلبي كان دائما منغمسا في الأوهام وينبض بلا هدف. عندما أحاول أن أقنعه فإنه يرد بتساؤل « ما الذي ستخسرينه يا بيبي؟ لا أحد يستطيع أن يسيطر على الخيال. ما هو الضرر من الأحلام إذا كانت تقرب إليك كل من أنت في انتظارهم؟» وأرد بقولي إن كل ما تبقي لي هو حقوقي. ويقول قلبي إن فقدان الأمل يعتبر معصية، ولكن ما الذي يمكنني أن آمل به؟

تمسك موني بوشاحي وتسأل. «أمي، اخبريني، لماذا لا يأتي خالي إلى هنا؟ هل يمكننا أن نذهب إليه في ديوالي؟ كل البنات يذهبن. إن قلبي لم يعد له وجود في هذه القرية يا أمي. ولم أستمتع بالمهرجان. إنني حزينة. أريد أن أزور بيت خالي». من يمكنني التوسل إليه لإعطائي عنوان منزل خالها؟ جميع القرى خارج سانجراو تبدو لي مثل بيوت الدمى، لا واقعية، مجرد ظلال لسانجراو، كلها خيالات.

ومع ذلك تظل روحي تهيم، من يعرف أين؟ تبحث عن أشياء في لا مكان، تواقة لأصوات لن أسمعها ثانية أبدا. لماذا ظل قلبي ينبض كل تلك السنوات التي قضيتها وأنا أحمل تلك السلال الملوءة بروث البقر فوق رأسي، وبحلب البقر، وبتحميص الروث للوقود؟ في كل مرة تحمل فيها الريح تلك الرائحة إلى أنفي، فإنها تعيدني إلى مئات الذكريات التي تقترب مني أكثر. تحملني إلى أماكن بعيدة، والآن أصبحت أعرف أين هي. وكالطريق المؤدية إلى سانجراو، فإن كل الطرق تتقاطع مع بعضها بعضا. فما الفائدة من البحث عن مدينة القصص الخيالية؟

ضوء الفوانيس يرتعش داخل الأبواب المفتوحة للمنازل الزاهية فتبدو لي كأرض الأحلام. غوربال والأولاد وموني وأنا نسير مع بعضنا الآن.

* موقد للتدفئة.

أكواز الذرة المصقولة على عيدانها تمسح شعري، وفيما تداعب الريح وشاحها الناعم ثم تبتعد لتتام. عندما أفصل نفسي عن وحدتي، يصبح الطريق أسهل. تقول موني: أمي، إني تعبة، لا أستطيع المشي أكثر. يبكي الولدان ويثقل أعينهما النوم. لا يستطيعان عندها أن يمسكا بلعبتيهما الرافانا فنخرج من الطريق نحو حائط منخفض لأحد الحقول. تريح موني رأسها في حضني، ويقول غوربال، «انظري إلى غباء النساء. لقد ضاع العديد من الأطفال اليوم. النساء يفقدن عقلهن في المهرجان وهن ينغمسن في مشاهدة عروض الـ «رام - ليلا» ويغفلن مراقبة صغارهن».

«الصغار يفترقون عن أمهاتهم حتى خارج المعارض». أقول وأنا أمسح بيدي على رأس موني. «هل يمكنك أن تنسي تلك الحادثة؟ تلك الأوقات كانت مختلفة، لقد تغيرت الآن». يقول غوربال برقة.

كيف أستطيع أن أقنع غوربال بأن الزمن لم يختلف، وأن الناس قد حكم عليهم بالعذاب لأنهم لا يستطيعون أن ينسوا؟ في ذاكرتي أنا، المشهد لا يزال حيا.. النار في كل جانب، كانت البلاد قد استقلت للتو، كانت قد تقسمت . أبي وأمي قالا،« كل هؤلاء الناس الذين يطيرون إلى بلدان أخرى مجانين. هل يستطيع الألم أن يمس أقرب الناس لهم.» أمي وأبي كانا بسيطين. إن الألم يأتي دائما من الأقرباء والأعزاء. لقد فقدت الحياة جمالها وأصبحت كل الوجوه مقنعة بالدم.

هؤلاء الذين تبرعوا باسم «بهاجوان»* أو باسم الله، قد ضربوا بسيوفهم أعناق بعضهم بعضا. هؤلاء الذين ماتوا في سبيل شرف أخواتهم وبناتهم قد تخلوا عن ارتيابهم. كلمات الأشقاء والأقارب تقطعت مثل قيود القرون بسبب الاستقلال والتقسيم، وأصبحت كالغبار تحت أقدام القطيع. كانت أمي تقول لأبي،« يجب أن نأخذ البنات ونرحل. إنني خائفة. لا فائدة

من الوثوق بأي كان» وكان أبي يقول بهدوئه المعتاد، « يا أم بيبي، أنت قلقة للاشيء، مثل الآخرين. اخبريني، ما الضرر الذي يمكن أن يحدث؟ كان لابد من التقسيم. هذا الصراخ والبكاء سينتهي خلال أيام قلائل. لاتقلقي، سيعود كل شيء كما كان.»

في الظروف المعتادة، كان ردا كهذا يمكن أن يطمئن أمي، ولكنه لم يفعل ذلك في ذاك اليوم. « حياتنا وشرفنا كلاهما في خطر. لدينا بنات صغار.» قالت: «اسمع: أرسلني إلى أخي.»

ويقول أبي، «الطرق ممتلئة بالمتشردين الذين نزحوا من قراهم. إنهم يحطمون السيارات. الخروج فيه خطر أكبر. الأفضل أن تبقي في المنزل وتلتزمي الهدوء. الله سيحمينا». لا بد أن أبي كان قلقا من الوضع ولكنه لم يطلب المساعدة من أحد سوى الله. غلطة أبي الوحيدة أنه وثق بالقيم القديمة. وكان ذلك هو السبب الذي جعل غوربال يسحبني بعيدا. رأيت رأس أبي الأبيض وهو مستلق على ضفة القنال. كان جسمه في الماء. وقد تمكن من جمع ما تبقى له من قوة متحملا جراح رأسه الدامي وراح يصلي. هل كان هذا هو الوقت الذي تستجاب فيه الصلاة؟ قل لي أنت. كان رمحا لامعا قد اخترق صدر أمي فسقطت حيث كانت تصلي لله من أجل حياتها وعفتها. تتداعى إلى ذاكرتي أحيانا صرخات أبي في أصوات العاصفة، وها أنذا اليوم عاجزة، كما كنت عاجزة في ذلك اليوم.

كان غوربال يسحبني بعيدا. لم يعد وشاحي فوق رأسي، ولكن يظل أملي هو في لقاء أخي في هذه الطرقات! لو كان أخي معي فهل كان أحد ليجرؤ على لمسي؟ هل كان لأحد أن يسحبني عارية الرأس هكذا في موطن مولدي حيث كل ذرة في طرقاته تعتبر مقدسة لنا؟ هذه الطرقات

---

* بهاجوان: إله الهندوس.

التي أريقت بها دماء أبي. وفيها مرغوا شعره الأشيب في التراب. لو استطعت أن ألمح هذا الغبار الذي علق برأسه لقلت إنه كان أوفر حظا مني. لدي الكثير لأقوله لأبي. كم أزعجت أمي وكم ضايقت أخي. وعندما كنت أُسحب بلا محفة إلى سانجراو، لم يكن لدي أحد من إخوتي لأشكي وأبكي عنده لفقدي لمنزل والدي. بعد المعاناة، إذا كان هناك توق للسلام، وأمل ضئيل، فالعبء سيكون أخف وطأة، ورحلتي لن تكون أقصر. هل أذكر أم أنسى يا غوربال؟ أنت لم تسمح لي أبدا بأن أدير رأسي لألقي نظرة أخيرة.

لقد تحملت ضرب الجدة، وسوء معاملة غوربال، وقسوة الجوع، وتركز نظري على أمل بعيد، مثل شعلة الفانوس المرتعشة، باحتمال عودة أشقائي إلى سانجراو للبحث عني، فأبتسم بتشف للجدة وأذهب مع إخوتي حتى دون النظر إلى غوربال. في ذلك اليوم، كان النسيم سيغني وهو يتلاعب بورق أشجار الليمون، وسيحتفل جميع من في القرية. لماذا نعتبر أنفسنا مركز الكون؟ من يعلم؟ نحن نرمش ونحن نبحث عن النور، إلى أن تتعود عيوننا على الظلام وعلى الأحلام. الآمال، مثل الأفكار الشاردة، تدور في قلبي. كانت موني قد ولدت، فارتخت السلاسل التي كانت تطوق فؤادي. تشتتت جموع الآمال المحيطة وبدأت أصحو حتى في أحلامي. وبين فترة وأخرى تتردد بعض كلماتي في أغاني سانجراو.

عندما توصلت الدولتان إلى اتفاق، اكتأب غوربال وانتابه القلق. جلس هو والجدة في الفناء يتحدثان، لا أعلم عن ماذا، ولكن أحدا منهما لم يقل لي شيئا. في تلك الأيام ابتدأت موني بالمشي وابتدأت تلثغ. طارت الأخبار بصخب ثم هدأت، مثل الزوبعة. ولم يأت أي جيش للبحث عني.

ثم سمعت بأن جنود الدولة الأخرى كانوا يبحثون عن بناتهم وكانوا

يسترجعونهن. لكن إلى أين؟ إلى أي بلد؟ ثم إلى أي شعب؟ كنت أتساءل هكذا حينها. ربما سيأتي إخوتي للبحث عني. لقد كانوا يتوقعون وصولي إلى باب أرض السحر منذ زمن طويل. يجب أن أذهب، حتما. لملمت صرة آمالي في كل يوم وكنت أنظر بشوق نحو المنعطف في نهاية الشارع.

في شتاء تلك السنة جاء الجنود إلى سانجراو ليبحثوا عني. بالإضافة إلى كوني أختا لأشقائي الاثنين، فأنا أيضا أم موني. وتساءلت، «من يعرف من يكون هؤلاء الناس، وما عسى تكون تلك البلاد؟» ولأول مرة في حياتي، تزعزع إيماني. أرض أحلامي انهارت أمامي وأصبحت كالغبار. لقد ضربت جذوري عميقا في تربة سانجراو. من يريد لنفسه أن يجف، يذوي ويدمر؟ كل فتاة عليها أن تترك منزل ذويها وتذهب إلى منزل زوجها. كل عروس تتزوج وتنتقل إلى مكان آخر. وما الفرق، إذا لم يتواجد شقيقاي عند مغادرتي؟ لقد فرش لي غوربال سجادة ترحيب مليئة بالجثث، وصبغ بالدم الأحمر طريقي، ونهب مدينة بعد أخرى ليزين عرسي بالألعاب النارية. لقد احتفل الناس بزفافي بالصرخات والزعيق والجري والفوضى. كان الجو كله مشحونا برائحة الغبار والدخان والدم، تمشيا مع التقاليد الجديدة. لقد أحضرني إلى سانجراو عبر حقول القمح، إلى كوخ طيني حيث سأقضي بقية حياتي في بيت مملوء بالدخان الأزرق الناتج عن روث البقر.

وبعد كل تلك السنوات، كم أمضيت من الوقت وأنا أنظر إلى كلمات الكتاب الذي أحضره غوربال ليقرأه لموني. ونبضت الكلمات في عيني. وفجأة تذكرت القصص التي كان يحكيها لي شقيقاي. كانا يقولان لي: «بيبي، هناك كتب بها قصص حتى أفضل من هذه. ما عليك سوى أن تكبري وسترين الأشياء المتاحة للقراءة كم هي سارة!». عندما جاء الجيش لينقذني مثل أميرة الأساطير، اختبأت. لماذا أذهب مع الغرباء؟ إنني

أسألك. لماذا لم يأت شقيقاي لأخذي؟ بدأت أشعر بأنهما خذلاني. ولا أزال منزعجة من ذلك.

وتسألني موني وهي مستلقية بالقرب مني، «أمي، لماذا لا تذهبين إلى منزل خالي بل إلى ديوالي؟ لماذا لا يرسل لنا خالي الحلويات؟» فأجيبها، خالك حتى لم يبدأ البحث عني يا موني. لم يأت لينقذني. من يستطيع أن يجد الوقت ليهيم وهو يبحث عن شخص آخر؟ وببطء سيجد الحب عكازات له. لابد أن أولاد شقيقي الآن في عمر موني. عندما يطلبون زيارة خالهم فلن يضطر لتغيير الموضوع مثلي، ليبقيه سرا. أحيانا توجد هناك قصص في الداخل لا يمكن استحضارها على اللسان. لذلك، فعندما تقوم العرائس في هذا الشارع بالعمل على مغازلهن وهن يغنين الأغاني تحت ظل شجر الليمون، سأبقى صامتة.

كم كان فناء دارنا مفعما بالحياة! كم من الحلاوة كانت هناك في ألحان الوالدين. والفصول تتغير، سنة بعد سنة. الآباء والأشقاء يأتون ليودعوا العرائس. وأقدام النسوة، آشا، رخا، بورنا وشاندرا، لا تلمس الأرض. كلماتهن لها وقع الأغاني. وتظل الفصول تتغير.

تخرج الفتيات من غرفهن ويسألن عن وصول أشقائهن. يدق قلبي في حنجرتي ويشتد توتر أحد الأعصاب قرب قلبي.. لربما ينفجر. أمد يدي لأطرد غرابا فيسقط ميتا بقربي. الجدة تأمل مني شيئا. عندما قطعت كل صلاتي بماضي حياتي، شكلنا أنا والجدة رابطة أعمق. أصبحت أنا زوجة الابن المحظوظة. إنها تفتخر وتتباهى بالنسيج الذي حكته. وعندما تشتكي النساء الأخريات من زوجات أبنائهن، فإنهن يتعمدن إغاظتهن وهن يتغنين بمدحي. رائحة الحبوب وعبق القمح الجديد الرطب تفوح من خلال الحقول وتمتزج بالدخان الأزرق وتصبح أغنية.. السماء التي تحمينا

ممتلئة بالنجوم، فرادى ومجموعات، والماء في الينابيع يتلوى كأمواج صغيرة.. هي كل كلماتها.

إذا وصل فارس شاب يوما ما من خلف الفلاحين الذي يحملون أكوام الأعلاف فوق رؤوسهم من أجل الجاموس، وترجل عند بابي المفتوح، سأصرخ: «أخي!» وأعانقه. من الذي كنت أقف في انتظاره عند هذا الباب؟ إلى متى يتعين علي حمل الجثث بعد موت أعزائي؟ وفيما أنا أنظر إلى الطرق الملتوية، فإن الدموع تتدفق من عيني بتلقائية. لو سقطت تلك الدموع على موني فإنها ستستيقظ وتسألني بقلق. «أمي، لماذا تبكين؟» كيف سأفسر حزني لموني إذا سألت. «أمي، لماذا تدمع عيناك، حتى في ليلة معرض دوساهرا؟ هل أنت مرهقة؟».

كان غوربال يحمل الولدين على كتفيه. أنا وموني ذاهبتان إلى سانجراو. لقد رضيت سيتا بحرم رافانا عوضا عن منفى ثان. من أين يمكن لي أن أحصل على جريمة أخرى من عدم التصديق لأستخدمه كعكاز أسند به إيماني؟

أضواء الحياة ابتعدت عني مثل أنوار المدينة التي خلفي، لكنني لاأزال غير قادرة على حب الظلام، من يعرف لماذا؟

يجب علي أن أواصل السير. الإرهاق مثل الألم يغمر كل أجزاء جسدي. ومع ذلك، فيجب أن أواصل السير، في معرض الحياة. المنفيون وساكنو البساتين مرغمون على مواصلة السير. وأذعن وأنا أتساءل ماإذا كان شقيقاي يشعران بالحزن علي.

أكثر ما يخيفني هي موني. غدا ستسألني هذا السؤال ثانية. وللمرة الثانية لن يستطيع أحد أن يجيبها. لا غوربال ولا أنا، ومن المحتمل حتى

الجدة أيضا.

لماذا هناك الكثير من تلك الأسئلة الشاقة والصعبة، التي لا يمكن لأحد الإجابة عنها؟ ألم ليل الشتاء الطويل يضرم فيَّ نارا ويسترجع أحلاما قديمة ويصغي للحكايات. قل لي، هل يمكن للحكايات أن تصبح حقيقة؟ قلبي عنيد لدرجة أنه لن ينسى الماضي.

هل هناك ثمة معرفة في ما وراء سانجراو؟

في الشوارع الكبيرة والصغيرة للقرية، تمتزج رائحة البول وروث البقر برائحة الحبوب وتتدفق مع سيل الحياة. لقد انتهى هذا اليوم. الأيام تنتهي مثل عصفة ريح. من يعرف كم بقي من الرحلة؟

بـاريـاتـي

فرخاندا لودهي

«اقتل!» هل كان ذلك صوتا أم صدى يتردد في الذاكرة؟

«اقتل!» كانت الصرخة تتقدم.

دمدمت البنادق .. من الجانبين، من كل جانب ... ومن كل مكان كان النشيد الوطني يتردد: «اقتل!»

مدافع، طائرات، صفارات إنذار، صفارات وقلوب تنبض بعنف. هدوء. ثم صرخة: «اقتل!» تشق السكون، وتشطر الوعي. مرت بها رصاصة كادت تخدش كتفها. انحنت لتحمي رأسها وبدأت تسير. كانت الحدود على بعد خطوات. وكان يجب أن تصل إليها. لا صوت وإنما صمت مخيم، عاصفة في القلب ودمدمة في قلب الأرض. أحكمت قبضتها على كل من ذراعيها.

رصاصة أخرى جاءت من أحد الجوانب، من كل جانب. مطر، ضجيج، نار، حرارة، عطش ...

تقدمت للأمام ببطء وهي تغطي أذنيها بيديها بينما حافظت على توازنها وارتكزت على ذراعيها. عبرت الحدود قبل ولوج الفجر. هدير المدافع توقف، لكنه عاد الآن بصوت أعلى وبعناد أكثر. لم يزل هناك وقت قبل انبلاج الفجر. رائحة البارود المميزة تحاصرها، وللحظات كان الدخان يحجب نور الصباح.

ظلَّت راقدة وهي تختبئ خلف بعض الشجيرات وحاولت التنفس بعمق. لم يكن هناك خطر من احتمال مرور أحد هنا. هجست، «إذا سمعت صوت خطوات، أو رأيت أي أحد قادم، سأقفز في القناة على اليمين».

قررت ذلك بهدوء تام. قضت وقتا طويلا وهي تائهة في أفكارها،

وعاضة على شفتيها المتورمتين الموجعتين. أمامها الكثير من العوائق التي يجب مواجهتها. الجروح في ركبتيها كانت تنز دما طازجا، كما أنها كانت تدرك أنها مصابة بجروح في صدرها، ولكنها تيبست لكثرة ماتراكم عليها من التراب. «إلى أين أذهب وأنا في هذه الحالة؟» ظل عقلها يتساءل.

طيور الصباح لم تبدأ غناءها بعد. لماذا هي صامتة؟ النار والرعد أخرسا كل ما لديها من رضا وسعادة فبدت الدنيا مقفرة. يا للسرعة التي تغير بها جمال الدنيا إلى حداد. خنقها الخوف والكره، وسرت في داخلها موجة من الاشمئزاز نحو أحبتها ونحو الغرباء وحتى نحو نفسها. غاصت أفكارها في ظلام عميق. أبت الشمس أن تشرق. قذائف المدافع ترعد، ويضيئ الأفق للحظات ومض ينشر النور في السماء ثم يختفي فجأة. في كل مرة تسمع تلك الأصوات يصيبها خوف من أن تقع القذائف فوقها.

لقد اختارت بقعة غير مناسبة للتوقف. الخطر كان وشيكا. تحركت إلى الأمام. أبعد فأبعد. الصمت المفزع يئن ويصرخ بصراحة بينما يتيتم الأطفال ويسلب شرف الأرامل الغالي. قرقعة الدبابات والسيارات والشعارات، قديمها وجديدها، الصخب ... استيقظ الناس وانهمكوا في كفاحهم من أجل الحياة، ولكن عقلها كان لا يزال نائما. عقلها مشلول بالكامل. كيف يمكن لها أن تندمج مع هؤلاء الناس؟ كادت أن تكون شبه عارية ومغطاة بالدم. قميصها معلق كالأسمال فوق صدرها. خجلت من حالتها، ترددت لوهلة، ثم تحركت إلى الأمام بإصرار متجدد.

أصبحت تشعر بجروحها وهي تنبض، ازداد إدراكها وهي تعود ببطء من حالة اللاوعي. الآن أصبح بمقدورها أن تتعرف إلى ماهية الأشياء

التي من حولها. الأشجار الواقفة كالأرواح في ما يشبه الظلمة هي فعلا أشجار، والشمس على وشك أن تشرق. إنها تبزغ على الرغم من الدخان. على الحياة أن تواصل دورتها. في القرية القريبة، تحدى الموت الحياة، وقبلت الحياة التحدي فأصرت على التقدم إلى الأمام. الحياة لايجب أن تتوقف.

واصلت سيرها. القرية على بعد خطوات. لا أثر حتى لنملة. كلاب القرية الضالة والغاضبة كانت تنبح. أين ذهب الناس؟ الصمت يلف كل شيء. وصلت إلى حدود القرية.

لا شيء يبدو واضحا خلف الجدار المتساقط. لم يكن هناك شيء في القرية يستحق أن يبقى الناس من أجله. أرادت أن تبكي وهي ترى الدمار الذي حل بالقرية، وهي ترى عدم حيلة الإنسان وقصر نظره، أو أن تعود من حيث جاءت، ولا تخطو خطوة ثانية في هذا المكان. كان هناك يأس كبير يتملكها. فكرت: الأرض هي أمنا فانظر إلى اللهب الذي يحيط بصدرها ... فكيف لا تموت؟ أبناؤها يدمرونها ويدمرون أنفسهم، ومع ذلك فالهواء يردد صرخة واحدة: «اقتل».

تلك هي اللعبة التي فكر فيها أبناؤك الحكماء يا أمي! وأنا ربما سأقتل في هذه اللعبة. فإذا عشت سأفكر كثيرا في حالتك. ليس لدي الوقت الآن. الوقت المطاطي ينكمش ويتمدد كما في اللعبة.

على بعد مائة ياردة يمكن رؤية السيارات العسكرية وهي تصل ثم تغادر. غيوم من الغبار والدخان تعم المكان. بعض الأعشاب الجافة لاتزال تحترق. سنابل القمح الشامخة قد أضرمت بها النار وراحت أغصان الأشجار الخالية من الأوراق تطقطق بفعل اللهيب. رطبت شفتيها بطرف لسانها. كم هي عطشى. لن تستطيع أن تعيش. حلقومها

به ما يشبه وخز الشوك. أصابها الجفاف والظمأ. انهارت وهي على وشك الموت فوق الحطام. صوت وقع أقدام ... تقترب... تقترب أكثر .. ثم صوت يأمر آخر «اقتلها».

«نعم، نعم، اقتلها!»

جلست بسرعة البرق وحاولت عبثا أن تغطي جسدها. أمامها وقف جنديان مسلحان وهما يحدقان بها بقصد. نظراتهما المدققة نفذت من خلال ثيابها إلى لحمها، وراحت تبحثان في عقلها وفي قلبها. تجمد جسدها من الخوف ومن الخطر المحدق بها. قدرتها على النطق قد اغتصبت وبدت حدقتا عينيها كما لو أنهما قد تحولتا إلى حجر.

«لماذا لم تغادري مع باقي أهل القرية؟ حالتك ليست على ما يرام؟»

نبرة الصوت طمأنتها. عيناها تدمعان.

«ماذا ... ماذا أستطيع أن أقول؟ لقد أنقذت نفسي من تلك الحيوانات المتوحشة في القرية السابقة. لقد واجهت القسوة والعنف لكي أمتزج بتراب أرضي. أنتم إخوتي. اقتلوني. اعملوا لي هذا المعروف».

تكلَّمَتُ بتلقائية وأصبح الجنديان في مأزق: هل يسكتان هذه الببغاء الناطقة أو يسمحان لها بأن تموت وتموت معها قصة محنتها؟ أحدهما ذهب مسرعا وعاد ومعه بطانية قطنية غطى بها جسدها. الجنديان كانا قلقين، مترددين في الإغارة على جسدها الجميل. كانت السماء تمطر حمما والهواء مشحون بالدخان.

سألها أحدهما: «هل لك أقارب؟»

وهز الآخر رأسه «دعها يا أخي، ولا تضيع الوقت»

وأصر الأول: «الحياة أم الموت؟»

وجاء صوتها بنبرة من التحدي وبوضوح «افعل الذي تختاره منهما. ذلك بيد الله».

نظر الجندي الأول خلفه. كان زميله قد غادر منذ فترة. ابتعد هو الآخر دون أن ينطق بكلمة أخرى. لقد نجت. استلقت بين الحطام .. لم يجئ أحد ليسعفها أو لينهي حياتها. المدافعون عن بلدها كانوا يقاتلون. هل هناك شيء يطمئنها أكثر من ذلك؟

مرت فترة الظهيرة. أنهكها العطش والجوع. توقفت قافلة صغيرة بالقرب منها بعدد قليل من الرجال وعدد أقل من النساء والأطفال. وقفوا تحت شجرة «الشيشام» بوجوه يملؤها الرعب. الأطفال يبكون في حضن أمهاتهم وشفاههم جافة وشاحبة.

ثم جاءت شاحنات وسيارات أخرى، واقتاد البوليس العسكري المجموعة إلى داخل الشاحنة كالقطيع. رجل بدا عليه أنه ضابط أعطى تعليماته بصوت منخفض. لم يكن يبدو عليه أي إرهاق وهو يتلفت حوله بثقة. كان الجنود يقومون بأعمالهم بنشاط وخفة. السرعة التي يتحركون بها والنكات التي كانوا يطلقونها تعبر عن الجو المحزن. قال الضابط الذي كان يقف بجانب امرأة عجوز: «إنك تهربين من الموت، أليس كذلك؟ لماذا لا ترجعين إلى الخلف؟ دعي رجلا يأخذ مكانك؟» ويضحك. «لا ، لا يا بني»، صرخت بلهجتها العامية، «سأخبئ نفسي في زاوية». سألها: «هل الحياة غالية إلى هذه الدرجة؟».

«نعم يا بني، لا أريد أن أموت على يد هؤلاء الكفرة. لكن الموت

سيزور الجميع في يوم ما».

«هذه فرصة للشهادة يا أمي»، قال أحد الجنود للمرأة.

«الشهادة هي نتيجة لأفعال الشخص يا بني. أنا عديمة الجدوى. «أي شهادة تنتظرني؟» الجميع كانوا يضحكون واستمر العمل كما لو أن شيئا لم يحدث، كما لو أن الناس قد اسيقظوا من نومهم في الليل ليجدوا أن الصباح عاد حاملا لهم حقبة جديدة وحياة جديدة، وكما لو أن رغبتهم في اكتشاف تلك الحياة الجديدة، وتوجسهم لما سيكتشفونه قد جعلهم يذهلون.

كانت النساء صامتات والخوف يطل من عيونهن.

سعادة الرجال وهرجهم كانا يخفيان قلقا عميقا مما جعل الضابط ينظر نحو الشرق مرارا كما جعل الجنود يسوقون النساء والأطفال أمامهم كقطيع الماشية.

كانت هي مصابة، ولذلك طلب منها أن تستلقي في عربة الجيب. كان وجهها يكتسب شحوب الموت، وكانت في طريقها إلى المستشفى لإسعافها. أخذت تصرخ بكلمات نابية وتقول: «اقتلوني ... لا .. لا، اقتلوني. كيف لي أن أواجه ذوي؟ لا، لا ... لست في حالة أستطيع بها أن أعود ... سينتحر أخي إذا رآني ... كيف لأمي أن تقابل أي إنسان؟ أتوسل إليكم بشرف نسائكم ... أتوسل إليكم بعفة زوجاتكم وولائهن، اتركوني هنا. لقد انتهكتني الحيوانات المتوحشة. دعوا الكلاب تمزقني. ليس لدي أحد الآن. حتى أنني لم أعد أنا نفسي الآن.»

ظلت تثرثر بينما استمرت العربة الجيب في الانطلاق بأقصى سرعة. الرجلان الجالسان في المقعد الأمامي تجاهلاها تماما

واعتبراها كقطعة متاع. مسئوليتهما أن يوصلاها إلى المكان المطلوب فقط لا غير. توقفت عربة الجيب ونزل واحد من الرجال فشغلوا مكانه ببعض الكراتين الفارغة وبعض الصرر. الطريق مليئة بالناس الذين ألهبت مشاعرهم بشعارات كانت تتردد. أولاد صغار حشروا رؤوسهم داخل العربة وأخذوا يحدقون بها. صارت تفكر بضيق، لماذا لا تتحرك العربة؟ لماذا يتم نقلها بهذه الطريقة؟ هل هذه مراسيم جنازتها؟

«هذه مراسيم جنازتي ... » رفعت صوتها غاضبة من عدم الإحساس الذي يبديه الرجل الجالس في المقعد الأمامي.

هل تحوّل الجميع إلى أحجار؟ ما الذي حدث لهم؟ لقد أصبحوا جميعهم لُعبا. لعب يتلاعب بها الزمن والسياسيون. هكذا فكرت، وصرخت في الرجل الجالس بقربها.

«هل أنت أصم؟»

«ليس لدي وقت»

نهضت ومالت نحو المقعد الأمامي. «ليس لديك الوقت، ولا حتى الوقت الكافي للتخلص مني».

التفت الرجل الذي يقود العربة نحوها وهو يشعر بأنفاسها فوق صدغه وقال في تروٍّ: «لن أتخلص منك». لأنك شابة وشكلك لا بأس به.» ثم غير الموضوع.

«لماذا لا تستلقين؟ لا تزيدي من مشاكلي»

هاهي تطرح عليه الأسئلة، تحاول أن تكلمه، ولكنها لا تحظى بأي رد.

واستمرت العربة في تثاقلها. الهواء النقي أنعشها قليلا.

«ما الذي ستفعله بي؟»

سأجعلك كبيسا مخللا»

صمتت. لم يكن هناك داع لتقول المزيد.

دخلت العربة الجيب في مبنى لمجمع ضخم وتوقفت.

تقدم حاملو النقالة من العربة. نزلت وهي ترفض المساعدة. «حسنا، السلام» وتوقفت.

«وعليكم السلام» رد عليها رجل ارتدى نظارات سوداء وراح ينظر إليها: امرأة متشحة ببطانية قطنية، الغبار يغطي وجهها، وشعرها شعث، والدموع تسيل على وجهها المتسخ. وتبدو كأنها مجنونة.

قلب الرجل امتلأ بالرأفة لتلك المرأة، سألها «ماسمك؟».

«لا شيء ...»

رد مستغرباً :

«لا شيء ليس اسما»

«برفين»، أجابت بعد وهلة وهي غارقة في التفكير.

«برفين» ردد الرجل الاسم.

ابتسمت متسائلة «ماهو مصيري الآن؟».

رفع الرجل نظارته وتأملها بنظرة عميقة، «أنا حسن. هل أستطيع عمل شيء لمساعدتك؟»

«لاشيء ...»، ردت برفين بغضب. فقد خيب حسن أملها.

خيبة أمل غريبة.

«حسنا، بحفظ الله» وابتعد حسن.

«بحفظ الله». وراحت برفين تلوح بيدها لوهلة قصيرة. لقد رقت نحوه ثانية، واستغرب الناس وهم ينظرون إلى تلك القرية التي تبدو كالمتسولين وهي تقف ملوحة بيدها بطريقة محترمة إلى أن غابت عربة الجيب عن النظر. ولكن كان هناك رعب على وجهها، رعب حقيقي.

عندما استعادت صحتها، نقلت من المستشفى إلى المعسكر. كانت تتضايق عندما يسألها الناس عن أقاربها ومعارفها. أحيانا كانت تنتابها حالة من الهيجان وكأن عالمها الداخلي قد تم سحقه نظرا لما عانته من فزع وظلم. وبالتدريج امتنع الناس عن السؤال. في المعسكر، تقربت برفين من أرملة أحبتها واعتبرتها كابنتها. كانت تقضي يومها بكامله وهي تعلّم النساء والأطفال. وكان بعضهم ينظرون إليها بشفقة.

أصبحت أختا للجميع. في الصباح، وحتى في المساء، أصبح من المعتاد أن تجلس مع الأطفال الذين كانوا يستمتعون بدروسها.

الأمهات المتلهفات اللواتي أبعدن عن بيوتهن كن يجلسن ويتفكرن بلغتهن البنجابية مع بعضهن بعضا. «يالها من فتاة لطيفة! ما الذي سيكون من شأنها؟» تساءلت إحداهن.

كانت امرأة أخرى ذات شعور مرهف نحو برفين تلطم على صدرها بكلتا يديها وتصرخ «أوه، لماذا عبث الكفار بشرفها؟»

كان يتم تزويج فتيات في المعسكر يوميا. هؤلاء النسوة اللاتي كن

يرتبن أمور زواج الفتيات، كن أيضا يبحثن عن زوج لبرفين، ولكن الزواج بها كان يحتاج إلى شجاعة. كانت نظرات الشباب تلاحقها طوال اليوم كله، ولكي تهرب من ذلك، فقد كانت برفين تنهي واجباتها اليومية، وقبل أن يعم الظلام في المساء، تغادر إلى الحقول وتجلس هناك وهي تفكر في المجهول لساعات. تجلس وعيناها تبحثان في المسافات البعيدة أمامها ... ثم تعود مطأطأة الرأس، صامتة، تسير مترنحة كالمتسول الذي عاد إلى المدينة من مخبئه. برفين كانت صديقة للجميع. كان الآباء والأمهات يقلقون عليها وهي تمشي وقد أرخت حجابها إلى ما فوق عينيها وخفضت نظرها، فكانت تجذب انتباه البسطاء. الرجال الناضجون كانوا يتنحون جانبا ليجعلوها تمر. أصبحت الآن في مكانة تسمح باحترامها.

لم تكن لها رغبة بتحقيق الشهرة في عالمها الصغير في المعسكر كانت نادرا ما تلتقي بالكبار، وتقضي وقتها كله مع الأطفال. الكل أدرك ما الذي يضايقها. هؤلاء الذين تحطمت قلوبهم، والذين مازالت جروحهم طازجة كانت تنقصهم الشجاعة ليتحققوا من جروحها.

في إحدى الأمسيات، وبينما كانت عائدة من المعسكر كالمعتاد، قابلت زينب.

كانت قد التقت بزينب من قبل في المعسكر وأصبحتا صديقتين. كانت زينب في حوالي الثامنة عشرة أو في العشرين من العمر وهي من أصل قروي وأب مفقود. بعد أن فقدت عائلتها الصغيرة وجدتهم ثانية في المعسكر. كانت تشاهد كثيرا وهي تهيم خارج المعسكر، عيناها تبحثان وقدماها تسرعان بلهفة على الطريق المؤدية إلى الحقول توقعا لرؤية والدها. عندما يعود، سيكون بإمكانهم الاستقرار في مكان ما،

وستصبغ زينب كفيها بالحنة الحمراء. كانت تلك أوقاتا صعبة. فالأمهات كن دائما متخوفات، حيث زينب، وعدد لا يحصى من الفتيات، ينتظرن برغبات دفينة عودة آبائهن وأشقائهن وأحبائهن الذين بحضورهم ستتأمن لهن حياة حرة كريمة.

بنات حواء لا يرغبن في أكثر من هذا، التفكير في أبعد من ذلك غير وارد لهؤلاء القرويات البسيطات. عندما تصل أخبار الموتى فإنهن ينتحبن. وعندما تصل أخبار الانتصار والحياة، يبتسمن. تلك هي حدود عواطفهن وعالمهن.

ذات يوم اعترضت زينب طريق برفين وقالت: «أختاه، لقد توقفت عن الكلام عن أهلك، ولكن هل تظنين أنهم قد توقفوا عن البحث عنك؟ تعالي، هناك من ينتظرك.»

ذهلت برفين لوهلة ولاحت ظلال من الرعب على وجهها الهادئ.

«تعالي، لماذا توقفت؟»

أخذت برفين بعض الخطوات المترددة ولم ترد على زينب.

«أختاه، لماذا أنت خائفة؟ أقاربك لن يبتلعوك. إنها لم تكن غلطتك...» وكانت زينب قد توصلت إلى تلك النتيجة بسبب ارتباك برفين.

دارت بها الأرض والسماء وهي ترى حسن أمامها. الكون كله ابتدأ يتدمر.

كان هناك تساؤل واحد يتردد في عقلها: «لماذا أتى؟ لماذا أتى؟ لماذا أتى؟»

ودون أن ترفع عينيها أو أن ترد على تحيات حسن فقد وقفت هناك وهي ترتعد. فقدت عزيمتها دون أن تدرك حتى اللحظة أنها ستكشف بذلك مدى ضعفها. وبالتدريج انفرجت شفتاها وارتفعت عيناها، «السلام»، فرد عليها: «لماذا أنت مضطربة؟»

«أنا بخير»

ثم ابتدأ حسن بالكلام فقال: «ذهبت إلى المستشفى لبعض الأعمال في أحد الأيام».

سألت عنك وقيل لي إنك أرسلت إلى المعسكر. ومصادفة مررت في هذه الناحية وهذا كل شيء. ذلك شيء حسن. تحدث في جمل مقتضبة.

«نعم أنا مسرورة..» أجابت برفين دون مجاملة.

وكانت زينب قد غادرت.

«أنت تعرفينني، أليس كذلك؟ تذكرين اسمي؟» سألها حسن ثانية.

«نعم، جيدا ... أعرفه جيدا جدا»

صمت حسن برهة ثم تكلم: «لا أعرف لماذا أشعر بأنك لغز وأريد أن أحل هذا اللغز على الرغم من أن ذلك ليس من حقي. وحتى مع ذلك...»

ابتسمت برفين ورمقت حسن بنظرة لا تستطيع سوى امرأة القيام بمثلها. نسيت ما كانت تريد قوله له. عيناها كانتا تتساءلان. ثم قالت: «كل امرأة جديدة هي لغز للرجل. حسنا، لنتحدث عن شيء آخر». كانت نبرتها صافية.

«برفين، أريد أن أتحدث إليك، ليس عن الحرب. الحرب هي بلاء من الله. أريد أن أتحدث عن الرحمة وعن المغفرة. أريد أن أحلم بالسلام وبالصداقة معك...»

ثم صمت حسن. برفين كذلك كانت صامتة. تحدث الصمت وكلاهما استمع وأدرك.

«حسنا، سأذهب الآن. وسأعود ثانية إنشاء الله...»، قال ذلك وهو يغادر. ظلت برفين ثابتة في مكانها تكتنفها الحيرة وراحت تحدق.

أصبح حسن يأتي في زيارات قصيرة. كانا يجلسان في البستان وهما يتبادلان قصص حياتهما وما يجري في العالم. تحدثت برفين عن إخفاقاتها وعدم كفاءتها وراحت تحاول إقناع حسن بذلك. كان من المقلق جدا محاولات حسن للتقرب منها، وكانت هي تفكر فيما عسى أن يكون حسن يبحث عنه. مع ذلك، ففي مكان ما في قلب برفين، وفي أعمق أعماق روحها، كانت هناك سعادة مختبئة. تلك السعادة كانت تفر من عينيها أحيانا، واستطاع حسن أن يستشفها على الرغم من محاولاتها إخفاءها.

بينما كان حسن يستعيد ذكرى حادثة في صغره قال: «انظري، هناك بعض الأمور تجعل الإنسان يبقى طفلا. عندما كنت في الخامسة أو السادسة، كنت ألعب في الخارج. أحيانا يستطيع الإنسان أن يكتسب الكثير من الأشياء الرائعة من خلال اللعب، أليس كذلك؟»

كان يريد لمستمعته أن تتجاوب مع قصته، ولكن انشغال برفين بالقصة أنساها دورها.

براءة الإنسان تحظى بعناية الله. في أحد الأيام عثرت على لؤلؤة

مغطاة بالتراب والطين. كانت جميلة جدا... على الأقل هكذا بدت لي. نظفتها بأن بصقت عليها ومسحتها بطرف قميصي. كم لمعت! ثم وضعتها في فمي ولعبت بها.

إلى الآن لا أفهم لماذا يريد الإنسان أن يبتلع الأشياء التي يحبها كثيرا. هناك عفوية في رغبات الأطفال يقوم الكبار بكبحها، ولكن الرغبة في العفوية تبقى. أذكر أن والدتي عنفتني لذلك السلوك، حتى أنها صفعتني. كانت تقول: «الله وحده يعلم ما هي الأوساخ التي يلتقطها ويضعها في فمه». بكيت لمدة طويلة وأنا أحكم قبضتي على اللؤلؤة. لماذا لم تحترم أمي رغبتي؟ إدراكي الصغير صحا في ذلك اليوم وانهمرت مني دموع من الدم. أقنعت أختي الكبرى أن تخيط اللؤلوة في ياقة معطفي واحتضنتها بقربي لأيام عديدة. يحتمل أن الآخرين لم يرق لهم ذلك، ولكني كنت في غاية السعادة.

أظهرت برفين تقديرها لتلك الحادثة غير المهمة بضحكات قصيرة، بينما انتشى حسن بسحر أنوثتها المستمر وهو يتساقط عليه بنعومة تساقط المطر.

الدولة المجاورة هاجمت على غير توقع في الليل منتهكة جميع الأعراف والمواثيق. فتحت جبهات كثيرة وكان على حسن التنقل من واحدة إلى أخرى. الجيش كان صغيرا بينما كان حجم العدو ضخما. والرجل الواحد كان عليه أن يقوم بأعمال أربعة رجال. كان حسن ضابطا برتبة ملازم أول، وقد سقط الكثير من الضباط شهداء مما جعل القلق الشديد يساور برفين خوفا على حياة حسن فراحت تدعو له: «يارب أرجعه بسلام. أرجوك يا الله.»

كانت تشعر أحيانا أن حسن أصبح المعنى لحياتها، ومن دون ذلك

المعنى لم تكن هناك حياة لها. كان يتحدث كثيرا عندما يعود: رجاله كانوا يصدون هجمات العدو ويرغمونه على التراجع في جميع الجبهات، وأنهم يهزمونه وما إلى ذلك. كانت برفين تجلس صامتة وهي تحدق إلى السماء غير متأثرة بالنتائج. لم تكن تستطيع أن تسمع شيئا سوى صوت حسن.

أصيب حسن بطلق في ذراعه وأعطيت له إجازه لمدة خمسة عشر يوما، فأخذ برفين معه إلى منزله. كان يعيش وسط الحب والحرب غير عابئ بما كان مسموحا به وبما كان ممنوعا. على الموت أن يتراجع في حالة الحب أو الحرب. لم يكن حسن مستعدا لا للموت الحسي ولالمواجهة موت حبه. كانت بلاده تنتصر في الحرب وكان هدفه الشخصي هو الانتصار في الحب. بعد أيام قلائل تزوج حسن.

في يوم الزفاف، فرضت برفين على نفسها الصمت وجلست غارقة فيه. وعلى الرغم من إلحاح حسن، لم تستطع أن تصف شعورها. ثم بالتدريج طرأ عليها تغيير شامل.

ركزت كل اهتمامها على بيتها وراحت تضحك وتغني طوال اليوم. ذلك كان بيت حسن، بيتها. عندما يكون حسن في العمل، فإنها تجلس على سجادة الصلاة وتقوم بالصلاة والتعبد.

كانت لديها آيات قرآنية وأحاديث للرسول وضعتها في أطر وعلقتها على جدران البيت. عندما عاد حسن وجدها وقد زاد اهتمامها بالدين مما جعله يتساءل أكثر فأكثر عن ذلك.

هي امرأة عادية من الطبقة المتوسطة، نصيبها من التعليم متواضع، تسكن في مجتمع صغير، فما الذي تفكر فيه ولماذا تتصرف هكذا؟ لماذا

تقرأ منشورات دينية وتعليمية؟ لماذا وهي في هذه السن تصبح مهتمة لدرجة مفرطة بالدين؟

وبينما ازداد لديها التعبد والوضوء للتطهر، فإن وجه برفين ازداد نضارة وإشعاعا.

وفي ما بعد، أُعلن السلام وكشفت الأرض عن نفسها كأم تحتضن الجميع.

في أوقات احتساء الشاي، كانت برفين تبدو مختلفة في نظر حسن. وبدأ ينظر إليها فيسبب لها الحرج بسبب تحديقه المستمر. أخذها في حضنه ودفنت هي رأسها في صدره حتى بدا وكأن الكون كله قد اختزل في ذلك النفس الدافىء الوحيد الذي يجمع بين حسن وبرفين. كانت عيونهما تستحم في ينابيع عواطفهما فتلألأت مأخوذة بسحر تلك اللحظة .

كلاهما كان مسحورا. وكسر حسن ذلك بسؤالها، «لماذا تغيرت يابرفين وأصبحت متدينة لهذه الدرجة؟ إنني مندهش.»

«إنني أحاول أن أشكر خالقي الذي أعطاني الكثير.» ، قالت برفين بصعوبة. «أعطاني الكثير». ظلت تردد «أعطاني الكثير ... أعطاني ....».

نظر حسن في عينيها وابتسم، «ما الذي أعطاك؟»، تساءل مداعبا.

وانخفضت عينا برفين خجلا.

«آه، فهمت» وراح يقبل عينيها مشبعا إياها بعواطف جياشة من الثقة والحميمية. ومثل نجمة الصباح، راحت كلمة واحدة تتردد في

عقلها، «النصر.. النصر.. النصر..»

في الربيع يتغير نوع الهواء. وقد حصل حسن على ترقيتين في تلاحق سريع، فنسب حسن نجاحه إلى برفين وفألها الحسن.

تلك المرأة لها حظ جيد، ووجودها يؤمن مستقبلا باهرا له. أصبح حسن عابدا لبرفين. تلك المرأة ذات البشرة الداكنة والأطراف الناعمة قد امتلكت حواسه، قلبه، وبيته. وفي الوقت نفسه تصرفاتها وطريقة إدارتها لشئون البيت غمرت مشاعر حسن فلم يعد يكترث بالعالم. ولقد جمعت برفين في شخصها كل أدوارالنساء. كانت تعرف كيف توبخه كأم، وكيف تداعبه وتطلق له العنان كأخت، وتضحي من أجله وتفتخر به كزوجة.

بعد ترقيته، تم تعيين حسن في مدينة أخرى فانتقل ومعه برفين إلى منزل جديد بعيدا عن العالم الذي تعرفت فيه إليه. كلاهما كان سعيدا بالتغيير. وقد تبدل نظام ليلهما ونهارهما الروتيني، وها هي عن قريب ستتفتح زهرة في حديقتهما.

هل هناك أحد أوفر حظا من حسن؟ السعادة وملذات الحياة تغمر كل جوانب حياته. على مائدة الإفطار، انتاب القلق برفين وهي تلاحظ أن حسن لا يبدو سعيدا ومرحا كعادته. منذ زواجهما لم يلتزم الصمت هكذا. عيناه بدتا مثقلتين. شعرت برفين برعب عميق. «حسن ما الذي حدث لعينيك؟ لماذا هما مثقلتان هكذا؟»

وضع حسن فنجانه على الطاولة وظل صامتا. كذلك فهو لم ينظر إليها. أمسكت بكلتا ذراعيه وهزته ودموعها على وشك أن تنزل من عينيها. «لماذا أنت صامت؟ لماذا لا تخبرني؟»

«لم أستطع النوم في الليل»، قال حسن بصوت ضعيف. «لماذا؟»، سألت برفين بنفاذ صبر، «لماذا لم توقظني؟»

«أنا نفسي لم أكن بكامل وعيي. لم أكن أعرف بأي وضع كنت. ظللت أحلم بحلم مزعج جدا. كنت أبكي منذ ذلك الوقت.»

ألقى حسن برأسه إلى الخلف ونظر إلى السقف. دمعت عيناه ثانية. حسن يعرف الدموع؟ برفين كانت مندهشة. هذا الرجل الذي لعب بالدماء في ساحة الحرب، الرجل الذي رأى أكواما من الجثث أمامه وقفز فوقها مثل المحارب المنتصر، مثل الجندي الشجاع. هل يمكن أن يكون ضعيفا ورقيقا لهذه الدرجة؟

«أخبرني عن الحلم. سيخفف عنك ذلك»

«لماذا تريدين أن تعرفي؟»

«يجب عليك أن تخبرني»

بدأ حسن يتكلم بتردد. «كانت هناك حديقة، وكان الوقت ربيعا، كان حسن يتحدث الآن وهو يفكر وكأنه يرتب صورا فوتوغرافية في ألبوم للصور بينما يحاول استذكار أسماء كان قد نسيها. صوته أصبح أكثر عمقا.

«ضل طائران طريقهما وبنيت أنا لهما عشا بدآ يعيشان فيه سعيدين. ثم بطريقة ما، اشتعلت النيران في العش بينما هما وأولادهما فيه. برفين»، توقف ثم تابع:

«ارتفع اللهب ووقفت أبكي. عندما استيقظت كانت وسادتي رطبة. كنت أشعر وكأنني أنا الذي أشعلت تلك النار بيدي الاثنتين، بأنني أنا

المذنب الذي تسبب في إضرام النار وتعريض كل شيء للهب. وبعدها، لم أستطع العودة للنوم».

ضاعت برفين وهي تستمع للقصة وموجات الأسى تلوح على وجهها. أخذت ترتعش ولكنها ظلت صامتة. ليلة البارحة، بينما كانت نصف نائمة، سمعت صوت خطوات حسن وشعرت به وهو ينحني فوق وجهها مرات عدة، ثم استدارت إلى الناحية الأخرى وعادت إلى النوم. الآن حسن يروي القصة وكل شيء في المنزل قد أصبح فجأة صامتا كئيبا.

لم يتحدث أي منهما للآخر إلى أن غادر حسن إلى مكتبه. خوف ثقيل احتواهما وتردد كلاهما في النظر إلى وجه الآخر.

هل يمكن للناس أن يتحولوا فجأة إلى غرباء عن بعضهم بعضا كأشباح لاوجوه لها؟ ها هو الزمن يعكس حال اثنين من هذه الأشباح التي ترتعش يائسة وحزينة.

ذكرها حسن وهو يغادر، «استعدي. سنقوم أنا وأنت بالخروج في نزهة طويلة. لا أريد أن يعود إلى ذلك الحلم الليلة. ربما سيساعدني ذلك في التخفيف عني. أنت تبدين متعبة كذلك؟»

ثم انحنى ليطبع قبلة على جبين برفين قبل خروجه ولكنه غادر دون فعل ذلك. كان هناك حزم في خطواته لم يكن متواجدا لديه من قبل. شعرت برفين بوخزة ثم بموجة من أمل مجهول وانتابها الحنين.

بدأ نزهتهما مبكرين في المساء. كان حسن يقود عربة الجيب بنفسه. وكان قمر المساء يتحول ببطء نحو الغرب. جلست برفين ساكنة وهي تمسك بقلادتها في قبضتها غارقة في أفكارها. كان حسن قد أحضر لها تلك القلادة هذا المساء منقوش عليها كلمة «الله». اسم الله

في قبضتها بينما في قلبها عالم من الخوف ومن الخطر.

في الطريق عمهما سكون رهيب وصمت حسن.

سألته أخيراً: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

«أنت تعرفين أنني أفاجئك دائما» قال حسن وهو يختصر ما أمكنه.

رده طمأنها فقالت «نعم، لطالما أدهشتني ..»، كانت قد تعودت على طريقة حسن لدرجة أنها لم تحاول أن تخوض في التفاصيل.

«نامي». ووضع حسن رأسها على كتفه. استمرت العربة الجيب في الانطلاق وبدا أن برفين قد نامت فعلا. أوقف حسن العربة وبحرص شديد ساعد برفين على النزول وكأنها مصنوعة من زجاج هش. ابتدأ بالمسير معها وهو يسندها. ربما كان هذا هو المكان المطلوب. كان الوقت متأخر ا في ليلة باردة. الآن هما يسيران. كان الرمل يتحرك تحت أقدامهما وراحت اللحظات تنقضي ببطء.

«إلى أين تأخذني يا حسن؟» سألت برفين مرة أخرى وعيناها تكادان تدمعان. كانت حاملا ولم تكن تستطيع السير لمسافة كبيرة. وكانت قدماها غير ثابتتين على الرمال، ولكن حسن كان يسحبها الآن.

كان الهدوء يعم الصحراء ولم يكن هناك صوت سوى حفيف الريح في الشجيرات وصوت الرمال المتحركة. في الأعلى، كانت هناك حقول من النجوم وقد انتشرت في السماء.

توقف حسن وضم برفين إليه بقوة ثم قبلها وتركها. كان يتنفس بسرعة من أثر المسير ومن الحمل الثقيل الذي يحمله بداخله. فاجأها قائلا: «بارباتي: اذهبي. بحفظ الله» وابتعد. انطلقت صرخة من

بارباتي. الظلام جعل من الصعوبة أن يقرأ أحدهما تعابير الآخر.

«بارباتي، لا تنسي. أنت تحتفظين بشيء يخصني لديك»

توقف وهو يتكلم ثم اختفى في الظلام خلف الشجيرات.

«حسن! حسن!» ركضت بارباتي في إثره ثم سقطت. كانت ذراعاها تلوحان في الهواء، ثم راحت يداها تغطيان فمها كي تكتما صرختها خشية أن تمزق تلك الصرخات قلب السكون. لقد ولّى حسن.

«شيف» قد ترك بارباتي. آدم قد يدفع حواء إلى خارج الجنة.

في هذه اللحظة، لم تكن هي بارباتي ولم تكن برفين، ولكنها امرأة فقط. عابدة للحب وللأرض الحاملة للزهور. تستلقي على بطنها وهي تنحب في الصحراء بينما راحت قلادتها التي نقشت عليها كلمة الله تتدحرج على الرمال. كانت هي مضيعة بثالوث الصحراء: الله وآدم وحواء. وهؤلاء قد تفرقوا بسبب السياسة.

«حسن ! حسن ! حسن!» انتهى حلم بارباتي الذهبي. الليل كان على وشك أن ينقضي، وانتشرت أشعة الفجر الجديد فوق الأفق.

كان رجل ينحني فوقها قائلا: «اضربها حتى الموت ياصديقي»

وأعلنت بحضور ذهني، «أنا بارباتي. زوجة العقيد مهتا». لم ترد أن تموت. في هذا الجانب من الحدود كانت برفين هي السيدة مهتا ثانية.

السيدة بارباتي مهتا، زوجة العقيد مهتا. كان لونها داكنا صافيا، كانت ضئيلة الحجم لكنها متناسقة جدا. وكان لها خال على خصرها الأيسر بالإضافة إلى أثر جرح مائل نحو الحاجب. وكانت ملامحها هادئة لا يشوبها الغموض. وقد عممت الحكومة أوصافها على الصحف

ووزعتها في نشرات توزع باليد.

كانت بارباتي قد أُرسلت لتتجسس على معسكر الأعداء خلال الحرب. ولفترة وجيزة، كانت تخبرهم بمكانها ثم تغير عالمها. عواطفها وحماسها، مثل الجدول الشفاف، وجدت قنوات طازجة تسلكها وتربة خصبة جديدة تحتضنها.

ذلك الطريق فتحه لها حسن. حسن هو الذي روى حديقتها، وهي الآن أم طفله الذي لم يولد بعد.

فكرة الأمومة رفعت من قيمتها لدى ذاتها. شعرت بأنها مهمة وشعرت بالعظمة، كما شعرت كذلك بأنها عادت إلى نفسها، وبأنها قد اخترقت أسرار وجودها. بارباتي كانت إنسانة ولها كل الحق في أن تشعر بذلك، ولكنها هي أيضا التي كان يعيبها الناس على أنها غير ولود، كالأرض الجدباء. والآن فإن صدرها يمتلئ بالكنوز.

عندما تزوجت مهتا كانت صغيرة ومندفعة. مهتا أعطاها كل شيء عدا الثقة. كانت مقتنعة بأنه من الممكن أن يكون لها بيت حتى ولو دون أطفال. بارباتي كانت فخورة، ولها الحق في ذلك، بالعقيد المبجل مهتا. إن كونها زوجته أعطاها مكانة اجتماعية، ولكنها ظلت ضحية لحسد الناس وأطماعهم. ثم، وإلى الآن، ظل الناس مستعدين لتزويج بناتهم من العقيد مهتا. عشر سنوات من الزواج مضت. كانت هي بالنسبة للناس امرأة متزوجة في الثامنة والعشرين، ولكنها بدأت تشعر بأن هناك الكثير من الإنجازات التي تستطيع المرأة أن تقوم بها غير الأمومة. واستمرت تتملكها فكرة واحدة: فكرة أن تنجز شيئا ما قبل أن تموت.

نشبت الحرب بين الدولتين الجارتين، وبدأ الكثير من الأبناء الأعزاء

على أمهاتهم يسطرون التاريخ بدمائهم. فقد كانت الحدود بحاجة للدم من أجل الأمان .... دم طازج متقد في إهاب شباب ولدوا من نساء ثم ضحين بهم دون أسوار المدن. وبينما تتساقط فلذات أكبادهن، فإن هؤلاء النسوة يرفعن رؤوسهن بفخر، وتقول كل واحدة منهن : «إنني أمتلك جزءا من هذه الأرض. لقد سقيتها بدمي. هذه الأرض الخصبة هي وجودي ... أنا الأرض نفسها. أنا التي ولدت هذه الجواهر وأنا التي أبتلعها أيضا.»

تزايد قلق بارباتي، وجرى الدم في عروقها بقوة وحماس. كانت دائما على وعي بحالتها المتواضعة. وهي ستحرم دوما من شرف إضافة قطرة إلى النهر المتدفق. قطرة من دمائها ووجودها. ما مدى استحالة ذلك؟

كانت تستطيع كسب ذلك الشرف بالتضحية بزوجها، ولكن ذلك يبدو مستحيلا، فهي لا شيء من دونه. فكرت: الآن والنيران تستعر في كل مكان، والحياة مشكوك بأمرها، يمكن أن تصلني أخبار وفاة مهتا في أي لحظة. من ستستطيع أن تعتمد عليه بعد وفاة مهتا؟ ستكون أرملة مهتا، بلا أوسمة ولا شرف ولا معاش تقاعدي، لا شيء. واستقر رأيها على أنها بدلا من ذلك العيش الذي سيكون بلا هدف، فإنها ستفعل شيئا تخلد به اسمها للأجيال اللاحقة.

عندما لا تستطيع المرأة أن تصبح أما فيكون لها رغبات أخرى كثيرة. حبها لمهتا قد فقد مركزيته السابقة ووفرته. ومع أنهما يعرفان بعضهما، إلا أنهما ظلا غريبين.

أصبح مهتا يشغل نفسه بالعمل في المكتب معظم الوقت بينما تنشغل الزوجة بالعمل الاجتماعي. يذهب الاثنان إلى الفراش ليلا وهما

مرهقان. وقعت الحياة في الروتين الممل وفقدت كل معانيها، ولكن الحرب جاءت بمطالب وطموحات جديدة في حياتهما. فتحت نوافذ جديدة تطل على صور ساحرة. وأصبح هناك العديد من الفرص لبارباتي. اقترح مهتا عليها أن تصبح ممرضة، ولكن بدلا من تضميد جراح الآخرين، فإنها فكرت في أنها بحاجة إلى من يضمد جروحها هي نفسها. ودت لو أنها تسرع إلى الخطوط الأمامية لتشد من أزر الجنود وتخوض المعركة وتشق صفوف الأعداء. استمرت في إلحاحها برغبتها على مهتا. المنفذ الوحيد الذي وجده لرغبتها هو أن تذهب لتتجسس داخل أرض العدو. أن تستغل جمالها وذكاءها، وإذا جاء الوقت وحان قدرها، حسنا، فذلك ما أرادته هي على أي حال. ذلك سيخلدها.

حقنة المورفين جعلتها تتحمل الجروح التي أصيبت بها، ومن أجل بلدها، عبرت الحدود ليلا، ثم بدأت حياتها تتغير. بالتدريج، دخل حسن بحديثة الناعم إلى محراب قلبها واتخذ له مكانا فيه. كانا روحانيا شخصا واحدا. بعد زواجها من حسن فإن بارباتي ولدت من جديد. ربما إنها كانت قد خلقت من أجل حسن، وإنها سافرت تلك المسافات لتصل إلى هذه النقطة.

لكم عانت من أجل أن تجعله لها، وكم قاست من الاستبداد إلى الآن، قلبها فقط هو الذي يعلم. بعد الظفر بحسن فقد اعتبرت حياتها السابقة فترة من السجن كانت تقضيها في انتظار الحرية. حسن كان الملاذ المطلق بعد الاضطراب الذي عانته روحها، وليس فقط من أعطاها الثقة بنفسها. هي ذاتها التي كانت مجرمة في نظر الجميع، أصبحت الآن كيانا شاهدا على وجودها وعلى فخرها وعلى روحها وعواطفها ... الآن تستطيع القول بأنها لم تكن أقل من الآخرين. هي أيضا لديها أهداف محددة.

حملوها من الحدود ونقلوها إلى العقيد مهتا بكل حرص واهتمام. استقبلها مهتا بالحب والاحترام، ولكن بارباتي لم تكن كما كانت. لقد كانت مسكونة بالخوف من اكتشاف مهتا لما حصل لها، وذلك شيء وارد ولا بد منه، وبأنه لن يعاملها معاملة حسنة مطلقا. لم تطلع بارباتي زوجها على ما حصل ولكنه قدر الوضع. احمرت عيناه من الغضب وأصبح كالضبع الهائج.

«لم أتوقع منك ذلك» صمت لوهلة ثم واصل قوله: «من أجل الوطن... حسنا ... لم يكن لك خيار.» لانت نبرته. تذكر التضحيات التي قامت بها بارباتي ووضع رأسه على كتفها. استلقت بارباتي على السرير وقد كورت جسدها دون أن تجيب على أي أسئلة، ولكنها راحت تراقب تبدل أمارات وتعابير وجه مهتا. جلست بصمت وكأنها مهاجرة من بلد بعيد وتوقفت عند نُزل على جانب الطريق لبضع ساعات. على الرغم من كل ما قاله مهتا، لم تكن تحمل أي شعور بالذنب. فهي لم ترتكب جرما، وكانت متأكدة من ذلك. واصل مهتا حديثه، وفي محاولة منه لتهدئتها قال: «لا تقلقي. سنتخلص منه».

« لا أطفال لديك ... يمكننا أن نتبناه» نصحت بارباتي.

«طفل عديم الجدوى .. طفل منبوذ غير هندي ٠٠ ، لن أسمح بوجوده في بيتي. هل تفهمين يا بارباتي؟ لقد قبلتك لحبك وولائك، وإلا فإنك غير نظيفة.. يجب أن تتخلصي منه الآن، اليوم، أو غدا»، بنفس واحد، طالب مهتا وهدد وأنذر. كان متألما لفقدان زوجته شرفها ومدركا ما حرم منه. لقد عادت بارباتي من وراء الحدود بشيء لطالما رغبا فيه. لكن مهتا لم يكن جزءا من ذلك الشيء، والآن بارباتي، وهي المرأة المغلوبة على أمرها، كانت قد عقدت عزمها بأن يكون لها اليد

الطولى. يستطيع هو أن يهزمها بالعنف، وقد قفز نحوها فعلا، فصرخت بارباتي.

«لا يمكنك فعل ذلك. لن أمكنك من فعل ذلك ...»

«سأقتلك..» وتقدم نحو بارباتي ويداه الاثنتان مرتفعتان.

«اقتلني إذن»

وقدمت عنقها، لكنها شعرت بضربات مهتا تقع على صدرها فجلست تتألم. ضمت رجليها لتحمي بهما بطنها وظلت تتلقى الضربات رفسا ولكما. لحمها وعظامها تحملا الضرب لتنقذ الحياة التي احتمت في داخلها، لتحمي العرق الذي هي أمه. كانت هي الأم والأرض والحدود وما أبعد من الحدود. الحياة مستمرة، جيل يعقب جيل. الحياة التي تنمو وتزهر يجب أن تتم حمايتها . لا .. لا .. لا لن أدع ذلك يحدث.

وخسر مهتا. خسر بكل معنى الكلمة. بعد ذلك ازداد التوتر بينهما. وقت الولادة أخذ يقترب أكثر. بدأ مهتا يختفي من المنزل لأسابيع.

كانت بارباتي هادئة أثناء غيابه، بينما كان هو بعيدا، تستطيع أن تنتظر بأمان اللحظة التي تلقى بها مكافأة العمر في حضنها. أمومتها ستكون رمزا للأمل الجديد، ستكون مغمورة بالسعادة.

في غياب مهتا ذهبت بارباتي إلى المستشفى. لم تبلغ عائلتها ولاعائلة زوجها، لكنها خطت بعض الأسطر لمهتا. كان له الخيار في الإبقاء على العلاقة بينهما أو قطعها. لم تكن تعقد الآمال على أحد، ولاعلاقة لها بأحد. لقد خذلتها الدنيا بأسرها، حتى حسن. لقد نما الحب ونمت العواطف بينهما لفترة، ولكن عندما واجها متطلبات

الواجب أو أهدافا أخرى، فإنهما إما أن تزهق أرواحهما من قبل الآخرين، أو أنهما يدمران نفسيهما. الإبقاء على العلاقة يصبح لعنة. وقطع العلاقات هو عمل يستحق النظر. وكانت بارباتي تقطع علاقاتها كلها دون أن تسأل ما إذا كان ذلك في صالحها أم لا. كانت تلك هي فقط بداية الرحلة لها. كانت في منتصف المسافة. لم يكن اتخاذ قرار نهائي بالأمر الممكن وقتها. لقد رأت حلما، وتحقيق ذلك الحلم لم يكن سهلا، يبقى عليها إلى الآن أن تلمسه بشفتيها، وبعد ذلك ستفكر. بعد ذلك، سيناديها الواجب وستستمع وستتخذ القرار. اللحظة الحاسمة كانت تقترب ببطء. كانت تنتظر بأمل. كان الوقت يمضي.

براعم غضة تفتحت وبزغت أوراق جديدة على شجرة البيبال العتيقة في فناء المستشفى. تتغير الفصول، وتبزغ النباتات والبراعم الجديدة التي توفرت لها الحماية من صقيع الشتاء. حضن الأرض أخضر وكذلك حضن بارباتي.

لاح الفجر وكان مغتسلا بالندى.

ومع تغير الفصول، يكون الصباح حزينا لكنه مندفع. الشمس شاحبة لا هي واضحة ولا هي ساطعة. ينتشر جمالها الناضر فيدخل قلوب البشر. كان ذلك هو أول أيام الربيع ويوما جديدا لبارباتي.

أخبرها رسول بأن العقيد مهتا قد وصل. رفعت بارباتي رأسها بثقة. لا يمكن لمهتا أن يقطع كل صلاته بها. كان متأكدا من المصالحة. أعتقد أن رجوعه سيعمل على تسوية الأمور. جلست والطفل ملتصق بصدرها. دخل مهتا الغرفة مبتسما، ولكن بدلا من أن تبدو عليه الرقة وتقديره لحالها، كانت عيناه متقدتين. كانتا تقدحان شرراً. ردت بارباتي على ابتسامته بابتسامة وظلت صامتة.

«هيا بنا»، أمر مهتا فور دخوله.

«إلى أين؟»

«إلى البيت، فإلى أين يمكننا أن نذهب؟ هيا بنا الآن، لقد أحضرت السيارة»

«هل جننت؟ ألا ترى ابني؟»

قاطعها، «لقد جعلتني أفقد صوابي يابارباتي» وتقدم إلى الأمام.

«من أجل الرب، اقتلي تلك العواطف. ابدئي حياة جديدة. تعلمي أن تعيشي معي. لقد لوثت شرف الجميع. إنك في مهمة انتحارية ..»

لم تجب بارباتي. كان عقلها خاليا من الأفكار. لم تكن حتى تفكر، لذلك، وبخنوع الماعز، تبعته. لو أنها خلقت اضطرابا وهياجا في المستشفى فما عسى أن يقول الناس؟ بهذه الأفكار خرجت مع مهتا. طوال الطريق كان مهتا في حالة من الانعزال. كان يغمغم بأشياء وكأنه في حالة سكر.

«بارباتي. أنت امرأة. المسلمون يطلقون اسم النار على المرأة. إنهم محقون. أنت امرأة. نار. لقد التهمت كل شيء. حرقت كل شيء وجعلته رمادا. ولا أستطيع حتى أن أهجرك. ما الذي علي أن أفعله يا بارباتي؟ بارباتي! لقد انحرفت بالإله شيف عن جادة الصواب. لقد أهنته..»

عندما وصلا إلى المنزل أُعطي لبارباتي سرير مريح. اختفى الخدم وقام مهتا بنفسه بتسخين الطعام ثم إطعامها الحليب الدافئ والبسكويت. لم يكن يشعر بأنه بحاجة لأن يشرح التغيرات التي لاحظتها هي في المنزل، أما هي نفسها فقد سئمت من لعب الأدوار. الآن هي

تريد أن تسترخي وتراقب كمتفرجة. كانت هنالك متعة في ذلك بدأت لحظتها بإدراكها ... بأن تجلس باسترخاء ومن دون قلق. وليكن ما يكون. لقد سلمت أمر سفينتها للأمواج وتريد أن ترى ما سيحدث.

تحول العصر إلى مساء وحل الليل، ثم اقترب الفجر. كان وقت إطفاء الأنوار قد حل وكانت تستلقي بعينين مفتوحتين. ظلت مستيقظة طوال الليل، عيناها مفتوحتان، تحدق .. ستمتد يد إلى الأمام لتغلق النور في عينيها الآن ... الآن.

مرت الليلة مثل الحية التي ولدت وتبحث الآن عن صغارها لتبتلعهم. من هم أبناؤها؟ النجوم ... لم تستطع بارباتي التفكير كثيرا. إن لها الآن ابناً كالنجوم ولن تسمح لأحد بأن يبتلعه. إنه جزء من القمر. سيسطع أكثر ويتحول إلى شمس ... لا يزال هناك وقت قبل طلوع الشمس. بدأت أطرافها تسترخي... لماذا تثقل أجفانها؟ النوم. النوم اللذيذ. الستائر. الستائر الثقيلة. النسيان. كانت تحلم. إن مهتا هنا... إنه يبحث عن شيء بجانبها. بدأ الطفل بالبكاء... لم يكن حلما. صفعات ... خطف .... كفاح بين الحياة والموت .... دموع وتوسلات ... حقد. حسد واختناق. هزيمة. وشعور بالذنب.

«قلت لك، يجب عليك قتله». زأر مهتا كالقطة المتوحشة التي بطمعها تفصل رؤوس أطفالها عن أجسادهم.

«لا . لا.» راحت تنشج وهي تخبئ طفلها تحت صدرها. ستدافع عنه بكل ما تملك. جسدها كان كافيا.

«سأغادر حالما يطلع الصباح ... سأرحل بعيدا جدا». كانت ترتعش بانفعال حتى وهي تعلن هذا القرار السري. تخرج الكلمات منها

متسارعة وبغضب شديد. بعد ذلك فقدت شعورها بما فعلته. غادرت المنزل.

قبل أن يحل الظلام. وجدت نفسها تسير نحو الحدود. عاصفة من الانفعالات أفقدتها صوابها. امرأة مجنونة تمشي فوق صدر الأرض. الأرض الأم. كيان متحد، ممتلكات بشرية عامة.

لقد نسيت أن هناك دولا فوق هذه الأرض وأن تلك الدول لها حدود وأن الحدود لها حرس. واصلت السير.

أمامها راحت الشمس تغطس رويدا رويدا في المحيط في الغرب. الأرض والسماء مغمورتان بالدم. ظلت تسير قُدما ببطء .. ببطء.. وتقترب أكثر .. وأكثر.. مرت رصاصة بقربها فكشطت كتفها. صالبت بقوة ذراعيها عبر صدرها وأحنت رأسها. رصاصة أخرى .. ثم أخرى .. والآن فقد ذهبت هي بعيدا. ارتفعت أصوات كثيرة حولها. اقتل ... وانهمر الرصاص من كل جانب ... عاصفة. رصاص كثير نحوها بمفردها ... الدخان يتطاير. سبحت الظلمة أمام عينيها. صوت يرتفع وينخفض. التربة عند الحدود .. دمها، أحمر، دافئ، شاب نضر ... ثم سلام، صمت وصوت هادر: «اقتل!».

خطيئة البرىء

أومي يومارا

كان يوما شتويا قارسا. عندما فتحت عينها، كان القطار قد توقف في مكان ما، وراحت تسمع أصوات الباعة والعمال قادمة من بعيد. رفعت زجاج الشباك بهدوء واختلست نظرة إلى الخارج. كانوا في تقاطع كبير للسكك الحديدية. لفحة من الهواء البارد جعلتها ترتجف فأنزلت الزجاج على عجل واستلقت في مضجعها آملة أن تعود إلى النوم.

«لا تنامي. لقد وصلنا». راحت ماما تداعب شعرها برفق. كانت تلك تجربتها الأولى في رحلة طويلة بالقطار. قبل ذلك، كانت جميع رحلاتها برفقة «بابا». كان والدها يعمل في مكان بعيد، وكانت إدارة المنزل هي مسؤولية أمها. هي نصفه الآخر، وقد أثبتت أنها كذلك في جميع المهام. كان الأبناء يدرسون في أفضل المدارس، والأراضي معتنى بها عناية فائقة، والأقرباء والأحباء يلقون كل اهتمام ولم يتذمر أو يشتكي أي منهم.

ولكون الأب بعيدا عن المنزل، ربت هي الأولاد بطريقة جعلتهم لايشعرون بغيابه. غمرتهم بالحب لدرجة أنهم أطاعوا كل أمر تصدره وهم مؤمنون بالجنة التي تقع تحت قدميها. عيشتهم اليسيرة بلاخطط واضحة جعلتهم يرسمون لأنفسهم طريقا للمستقبل المشرق.

عندما يعود أبوها، بعد سنة، إلى المنزل من رحلاته في البلاد البعيدة والغريبة، سيجد حديقته الغناء مزدهرة وسيسعد بذلك كثيرا. كلهم كانوا يحبون بابا. كان تواجده يضيف إلى سعادتهم ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافونه. عندما يكون متواجدا، كانت أمها تناقش كل شيء على وجه الأرض معه من أمور العائلة والجيران، ولم يكن الأب يمل من الاستماع لها.

كانت تسدي له النصح في كل خطوة وكان هو يثمّن ذلك. في مرات

عدة، كان والدها يعاني من مشكلة ما وتكون حلوله ليست على مستوى الحدث. حينها ، تتدخل أمها وتعرض خدماتها فيحول أبوها المسؤولية إليها ويشعر بالراحة. كانت أمها متقدة الذكاء، وكان أبوها يؤمن كلية بأنها لن تخذله. ولم يكن هناك ثمة شك في قدرات أمها الهائلة، وكانت العائلة بأكملها تثق في بعد نظرها.

مع ذلك ... ومع ذلك فإنه لما عاد أبوها من البنغال وأعلن قراره، فقد فقدت أمها شجاعتها واختفى عنفوانها. أصبحت تنظر بقلق فيما حولها، تحدق إلى العتبة وجدران منزلها، يداها تداعبان كل لبنة من اللبنات برفق وكأنها أشخاص أعزاء عليها. وأحيانا تبدأ في جدال غاضب مع الأب. كانت تحاول إقناعه بأسبابها، ولكن الأب في هذه المرة لم يكن ليتأثر ببعد نظرها ولو بأقل القليل.

كان يكرر ويعيد رأيه حول النقطة نفسها: إنهم لم يعد باستطاعتهم العيش هنا. لم يعد بإمكانه تحويل نقود من مكان عمله، وإذا لم يكن بإمكانه فعل ذلك فكيف سيتمكن من تعليم أبنائه، والأبناء بلاتعليم يصبحون عديمي الفائدة، مثل الخشب غير المصقول. والأهم من كل ذلك فإنه لايرى أي مستقبل لأبنائه هنا، وأبناؤه هم كل شيء في حياته. سعادتهم هي سعادته.

«إذن ، وماذا عن هذا المنزل، هذه الأراضي، قريتنا وناسنا؟»، تقول أمها بنبرة كسيرة ثم يختفي صوتها مع انهمار دموعها. إنها بذلك ستفارق كل إخوانها وأخواتها.

«لماذا لا تفهمين؟ لم تعد الحياة ممكنة لنا هنا. هؤلاء الأبناء هم كل

ما نملك. حتى لو كانت تلك رغبتك، فلم يعد لهم مكان هنا. لن تجني أي شيء من هذهِ البـلاد. إن الأمـر يتـعلق ببلد غـريب، ولم يعـد بإمكاننا العيش فيه.»

لأول مـرة، ولربما الأخيـرة، فـقـد كان على مـامـا أن تقـبل الهـزيمة. راقبوها وهي تحزم متاعها بحزن بينما عيناها تتلألآن بالدموع لرؤيتها أشيائها البسيطة. وعندما تكون في هذه الحالة من القلق، فإن أباها يشعر بالضيق، ولكنها كانت تخوض كفاحا فاشلا وهي تحاول أن تفهم ما تعنيه كلماته : كيف يمكن لمنزل المرء أن يتحول إلى أرض أجنبية؟

هذا المنزل، عتبته وجدراته، فناؤه الواسع «الذي يتعب الإنسان وهو يسير من أقصاه إلى أقصاه»، أشجار «النيم» و «البيبال» الراسخة التي لعب الأولاد تحت ظلالها، وتلك الغرف الثلاث الواسعة المفتوحة التي هي فخرها وسعادتها، هي الأماكن التي عاشوا بها منذ أن فتحوا عيونهم على الدنيا لأول مرة. كانت تردد دائما، «محفة زفافي دخلت من البوابة الكبرى ووضعت هنا، وإن شاء الله، ستخرج جنازتي من هذه البوابة نفسها. كل امرأة سعيدة تعتز بهذه الرغبة.»

والآن ... الآن فإن أمها هي نفسها، والمنزل هو نفسه، والقرية نفسها. فكيف إذن تحولت هذه الدنيا إلى عالم من الغرباء؟ والمكان الذي يعيش فيه الأب، ذلك المكان غير المرئي، كيف أصبح هو وطننا؟ كانت تقلب ذلك في عقلها بلا كلل ولكنها ظلت غير قادرة على استيعابه.

ستظل نهاية شلة الخيوط متشابكة كما هي، وبعد أن تتعب نفسها، تتسلل بوهن إلى الغرفة العلوية لتنام لساعات طوال. الإخوة والأخوات الآخرون يحلمون بالمستقبل المشرق وهم يحزمون أمتعتهم ويتحدثون

ويخططون لغدهم السعيد. لم يكن أحد ليفكر فيها، بينما هي تتقلب براحة وتدعك عينيها وتواصل نومها وعندما تتذكرها أمها فجأة فإن كل شيء ينقلب رأسا على عقب. عند ذلك يتواصل البحث في كل أرجاء المنزل وحتى المنازل المجاورة، وعندما يتعب الجميع، فإن قلق أمها يجعلها تتذكر الغرفة العلوية فتهتف بأن «موني راني» لابد وأن تكون في مأواها الصغير.

ومن ثم يذهب إما الأخ الأكبر أو أمها لإحضارها من هناك. في تلك الأيام، عندما كان الكل يهتم بالآخر، كانت هي تهتم فقط فيما إذا كان لبيت بابا غرفة علوية... وعندما عاد بابا سألته مرارا وتكرارا فيما إذا كان للبيت الذي سيذهبون إليه غرفة علوية أم لا. وبدلا من أن يجيبها، كان أبوها يبتسم. لماذا كان بابا يصدها بعيدا بابتسامة بدلا من أن يجيب على سؤالها؟ من المؤكد أنه لاغرفة علوية هناك. وإذا لم يكن هناك غرفة علوية، إذن .. إذن ما نوع ذلك المنزل؟ وكيف ستجد أمتعتهم مكانا لها؟ وهكذا تظل تفكر وتكافح من أجل الوصول إلى أجوبة من داخل نفسها، وتمر الأيام، الواحد تلو الآخر، فتبتلع دموعها وتبدأ بحزمِ أشيائها. وفي أحد الأيام، وقفوا جميعا على رصيف المحطة ينتظرون القطار الذي سينقلهم من الأرض الأجنبية إلى وطنهم. وبعد رحلة طويلة تستغرق يومين وليلتين، هاهي تقف هناك على رصيف محطة ضخم.

راح العمال يتدافعون بخشونة. الأخ الأكبر، وبشعور بالمسؤولية، كان يساعد العمال في تنضيد الأمتعة. لم يكن متاعهم قليلا. بدا وكأنها قد حملت كل المنزل معها. أخيرا تم جمع الأمتعة وأصبح موكبهم الصغير جاهزا للانطلاق. لكنها كانت متجمدة. ريح ديسمبر (كانون الأول) الباردة حولت قدميها إلى حجر وكان يصعب عليها أن تخطو ولو خطوتين.

«أخي الأكبر، أرجوك استأجر عربة، لا أستطيع السير»

«من أين يَمكن أن نجد عربة هنا يا صغيرتي؟»

«ولكن يمكن لكما استئجار حنطور » قال عامل وهو يمر بهم.

«إذن لنأخذ سيارة أجرة. ما رأيك يا أخي الأكبر؟»، إذ لم تعجبها فكرة الحنطور.

«حقا، يا صغيرة! ليس هناك حتى عربة هنا وأنت تريدين سيارة أجرة»، قال أحد العمال كان يستمع لحوارهما.

«فكيف أسير إذن؟ قدماي متخدرتان» ونظرت بيأس إلى أخيها الأكبر .

«تعالي يا صغيرتي، سأحملك» قال ذلك وهو ينحني ليحملها.

«ماذا؟ هل تظن أنني طفلة؟» وتَلوّت تاركة ذراعي أخيها.

منذ أن تزوجت أختها الكبرى وهي تفكر في سنها. فكلما حاول أحد أن يعاملها كطفلة، فإن رد فعلها يكون شديدا وتحاول أن تعطيهم الانطباع بكبرها.

«إذن ياصغيرتي، أقترح أن تسيري بخطوات أسرع. انظري .. مثلي. ولن تشعري بالبرد». و سار العامل وهو يمر بها مسرعا وتبعه الأخ الأكبر. أسرعت هي أيضا محاولة اللحاق بهما ونزلت من الرصيف إلى طريق مغطاة بالحصى.

أزعجها صوت انسحاق الحصى تحت قدميها. لماذا كذب بابا؟ كان قد قال إن الطرق هنا جميلة و لامعة لدرجة أن الإنسان يكاد أن يرى

وجهه فيها. كيف لها أن تعرف أن الحب يحول التراب إلى ذهب ويحول الحصى إلى مرايا؟ لكم أحب بابا هذا التراب... ولكن ذلك شيء لم تدركه إلا مؤخرا. لقد أقنعت نفسها حينذاك بملاحظة أن بابا هو الآخر يكذب أحيانا، وأن هذا الاكتشاف قد جاء بالتجربة وليس من أي شيء آخر. أعجبها ذلك الإحساس بالحصى وهي تسرع فوق تلك الطريق. مازال ذلك الصباح المغلف بالصقيع القارس يلمع في أعماق ذاكرتها. يالها من تجربة مرت بها في ذلك الصباح! سيرها فوق تلك الطريق أعطاها شعور غريب بالحرية. في قريتها، كانوا يتنقلون بالمحفات. وهنا أيضا، لا يوجد ذلك الإحساس بالضيق من العربات التي تجر باليد. وهي تسير فوق حصى الطريق ذلك الصباح، شعرت بالسعادة الشديدة التي لاتزال حية في ذاكرتها. السديم الرقيق، رائحة الأرض الرطبة، الشعور بالندى فوق الأقدام وصوت الحصى تحت قدميها، كل ذلك كان جديدا عليها ومملوءاً بالروائح المثيرة. وعندما غمرت السعادة قلبها، كانت قد وصلت إلى المكان الذي توقف عنده موكبهم الصغير وراح الحمالون ينزلون الأمتعة، ورأت بابا. كان ملتحفا بشال كشميري ويقف بقامته الفارعة الجذابة أمامها. «بابا، إنها أنا»، والتصقت به.

«ابنتي»، وانحنى بابا ليقبلها. «أين تركت ماما وإخوتك وأخواتك الآخرين؟»

«جميعهم قادمون خلفي. أنا فقط ركضت لأصل إليك» . كانت تلهث بسعادة وهي تنظر في كل مكان. وانشغل بابا بالحديث إلى الأخ الأكبر وإصدار التعليمات بتنظيم الأمتعة.

تفحصت المنزل الذي كانت تقف أمامه بدقه. كان هذا نوعا جديدا من المنازل. كان عاليا وله ملحق كبير، و محاطا بالشرفات من الأمام

والخلف وليس له فناء. المبنى كله كان محاطا بسور من الطوب تعلوه الأسلاك الشائكة.

كان ذلك هو بيتهم. كم يختلف عن منزلهم الآخر. هناك، كان لبيتهم فناء كبير به أشجار النيم والبيبال وأيضا أشجار الجوافة الجميلة، وهنا.. هنا مع أشجار المانجو الراسخة وأشجار الجامان راحت أشجار جوز الهند الطويلة تتمايل فوق الرؤوس. أشبعت رائحة الأرض الرطبة الجو بينما هي تتأمل في الضوء الكهربائي المرتعش وفي المنزل الذي سيؤويها. كان منزلهم هناك كبيرا، وهذا ... هذا ليس كذلك، بل إنه «البنغلو» رقم تي/٨٠ . أخذت نفسا عميقا وامتلأ عقلها برائحة الياسمين (هارسينغار) المعتادة. « بابا، بابا» ركضت إليه وهو واقف يتحدث إلى آما وذراعاه تحيطان بالأخ الأصغر.

«بابا، انظر هنا أيضا، أقصد تلك الرائحة الجميلة أيضا !» ، قالت بسعادة.

«نعم ياطفلتي، هذه رائحة «الهار سنغار ». هنا أيضا يطلقون عليه ، شيولي» شيولي أو هارسينغار، هارسينغار أو شيولي، لافرق. قصة الرحلة من هارسينغار إلى شيولي قصة طويلة. سألت والدها مرارا، «لماذا شيولي؟وليس هارسينغار؟»

«لأنه هنا يا طفلتي، في هذا الجزء من أرضك، «الهار سينغار» هو شيولي»

تطوع الأخ الأكبر قائلا «ولأنك ستعيشين وتموتين في هذه الأرض ، فيجب عليك أن تعوّدي نفسك على تسميتها بشيولي وليس هارسينغار.. الهارسينغار كان ماضيك، وهذا هو حاضرك، ومالم تعيشي في

الحاضر، فلن تتمكني من بناء مستقبل واعد لنفسك. لذلك يامليكتي الصغيرة، نصيحتي لك هي أن تعطي اهتماما أكبر لمستقبلك من اهتمامك بالماضي.»

«اسمع يا أخي الأكبر، أنا لا أتفق معك. أخبرني، كيف يمكن بناء علاقة مع المستقبل، أو الحلم بغد مشرق عن طريق نسيان الماضي؟ عندما لا يكون للإنسان ذاكرة عن ماضيه، فكيف له أن يحب الحاضر و..؟»

«انسي الموضوع. عقلك مملوء بالقش. في الواقع أنت متحيزة»

«أخي الأكبر، عدم تحدثي بلغة بانغلا ليست بتلك الجريمة التي تجعلك تتهمني بالتحيز. لا أستطيع كسر عادتي بالتحدث بلغتي.»

«ماذا تقصدين؟ لم أفهم»

«أقصد، ياأخي الأكبر والعزيز، أنني مادمت قادرة على التفاهم وأنا أتحدث بلغتي، فلماذا يجب علي ارتكاب المعصية بتشويهي للغة جميلة أخرى من خلال تحدثي بها بطريقة ركيكة؟ ألا تتفق معي، بابا؟ ليس من طبعي أن أتحدث بلغة غير سليمة..»، وضحكت.

«ومنذ متى كانت الإنجليزية هي لغتك الأساسية؟ لدرجة أنك تتحدثين بها وكأنك تنتقمين لها»

كان الأخ الأكبر مغتاظا: «أنت دائما تتباهين، حتى لو كنت لاتعرفين مبادئها..»

«أعوذ بالله من أن تكون الإنجليزية لغتي. والسبب الوحيد لحديثي بها، هو خوفي من أن يعتبرني أمثالك جاهلة. وبالنسبة للتحدث بها

بركاكة، فإن المساس بها لا يقلقني. إنها ليست رمزا لتحريرنا، وإنما ذكرى لعبوديتنا، ومن الواضح أن المرء لا يحب ذكريات كتلك.. فهمت، ياأخي الأكبر؟»، نظرت إليه ساخرة.

«عدم تعلم لغة المكان الذي يعيش فيه الإنسان شيء غير عادل»

«من الذي يرفض تعلمها؟ أنا فقط لا أكترث للتحدث بها كالجاهلين»

«ولماذا ابتدأت أنا بالتحدث بالأوردية بصورة سليمة إذن؟»، تدخلت باخي.

«ذلك لأن الأوردو هي لغتي» قال الأخ الأكبر.

«إنك تعاني من سوء الفهم»، ابتسمت باخي للأخ الأكبر.

«انكري إن استطعت بأن الأوردو هي لغة الحب»، رد الأخ الأكبر الابتسامة.

«بقدر مايهم صغيرتي موني، هل لغتنا أسوأ من الإنجليزية لدرجة أنها ستعتبر نفسها آثمة عند التحدث بها؟» قالت باخي وقد أخطأت في فهم ما عنته.

«أوه، لا ياباخي. من قال ذلك؟ الأمر ليس كذلك! لغتك هي الهبة التي وهبتنا إياها الحرية، وإلا لكنا ابتعدنا عنها كثيرا .. إنها تعز علينا معزة لغتنا ..»، أجابت مسترضية أختها.

«وأنا ..؟»

«تلك مسألة أخرى بالنسبة لك يامليكتي باخي. هل قمت أنا ، مثلك، بترديد قسم الحب ..؟»، وضحكت.

«ذلك خطأ ياموني الصغيرة. إنك تمدحين شجاعتها، ولكنك تعكسين الوضع وتسخرين منها»

«ها أنت هنا لتطري عليها»

امتد الحديث عن الإطراء بتلقائية لدرجة أن كلا من النطق واللغة تغييرا من «باكاز» إلى «فيرني» ومن «شارم أتاهاي» إلى «شارم أتي هاي» اللفظ المؤنث. في إحدى المرات عندما أخذها الأخ الأكبر إلى «باتنا» ليريها لمحات من ماضيه، استعرض أمامها ماضي العشيرة كلها، وكما قالت باخي، فإن الجميع قد أحبوها كثيرا. كانت تستمتع كثيرا بعبارات مثل: « في الجزء الخاص بنا من العالم»، «في منزل أنسبائي»، «في قريتنا باتنا» و«عندما ذهبنا إلى الله آباد رأينا ملتقى نهري الجانجا والجامونا المتعانقين تماما عناق الشيتا أليخا والديهيلشواري».

«نعم، كما عانقتني». ضحك الأخ الأكبر وخجلت باخي. اعتبرت خجل باخي غريبا. في هذا الجزء من العالم، حتى الزوجات يملن إلى تأكيد حقوقهن.

إيمان الأخ الأكبر بأن «كل شيء سينتهي بالاستقرار» كان صحيحا.. فبالتدريج استقر كل شيء. إن باخي لم تتزوج الأخ الأكبر فقط، ولكن لغته أيضا وطريقته وعاداته وتقاليده، كلها أصبحت خاصتها.

الأخ الأكبر فقد نفسه في باخي لدرجة أنه نسي نفسه. وبمنتهى السهولة استمر هو وباخي يضيفان طفلاً بعد الآخر إلى أعداد العائلة. الوالدان اللذان لم يكترثا إلا قليلا بها، واللذان تقبلا عضويتها في العائلة كواجب مزعج، كانا مسرورين بخصوبتها المدهشة، والبيت نفسه الذي كان يُرى على أنه واسع، أصبح مثالا للسكن المزدحم.

كانت غرفتان تحت السيطرة التامة لباخي، وشغل أمراؤها وأميراتها الصغار الغرف الثلاث الباقية أيضا. كانت هناك غرفة مخصصة للمعيشة، ولكنها كانت كذلك بالاسم فقط. وفي الحقيقة كانت هناك ألعاب الأطفال في جهة منها وزجاجة الحليب في أخرى.

وكان شخص ما يحتل الديوان ويرتل الأبجدية، لأنه لاشيء آخر هناك يمتع السيد الصغير في تلك الغرفة. في مكان آخر، فإن اللعبة راني وكتب الأطفال تحولت إلى ركام. عندما قام الأخ الأصغر بزيارة داكا في إجازته، فإن كتبه ودفاتره تحولت إلى قصاصات ممزقة. ذلك على الأقل ماشعرت هي به. من كانت هي؟ فتاة نحيلة، سمرتها مصفرة، وحيدة حتى وهي تعيش بين الجميع، تحب الحياة والعطور بكل أنواعها، شجاعة على الرغم من هزالها المخادع، وقادرة على مواجهة الجبال في حالات الضرورة. ولكن في هذا البيت ، فالأخ الأكبر لم يكن بأقل من جبل ، وباخي، ومعها صغارها السبعة، كانت في القمة. ولم تستطع مواجهتهم أبدا . كانت تحب الأخ الأكبر الذي كان ذكاؤه الواضح يشجعها على حب الحياة والاستمتاع بمسراتها، والذي كان يقدّر الجانب المشرق وليس الجانب المظلم من الحياة، والذي كان ما أن يتفهم شيئا حتى يدفع حياته في سبيله، كما كان بالنسبة لباخي التي كانت بدورها قد تفهمت أن خلاصها يعتمد على خلق مكان آمن لهم.

لذلك، فقد قامت موني بتنظيف غرفة خارجية كانت قد خزنت فيها بعض أغراضها لتستقل بها. وبعد أيام من العمل الشاق جلست هناك تحيك أحلامها وأفكارها فدخلت باخي وراحت تتحدث عن هذا وذاك، ثم سألت فجأة: «ألا تشعرين بالاختناق في هذه الغرفة المظلمة ياموني الصغيرة؟» نادتها بـــ «موني الصغيرة» مثلما يناديها الأخ الأكبر مع أنها في البدء كانت صديقتها. مع ذلك، فلم تأخذ الصداقة ذلك الشكل

الذي اتخذته صداقة باخي مع أخيها الأكبر. وإلى الآن، فهي عندما تتذكر الماضي فإنها تدرك جيدا التحول الذي طرأ على الأخ الأكبر.

النساء البنغاليات ساحرات. لاتذهب إلى البنغال. منذ الطفولة وهي تسمع ذلك في الأغاني، وبعد أن استقرت هنا فقد شهدت ذلك فعلا: زواج الأخ الأكبر من باخي كان دليلا ساطعا لسحر البنغاليات.

«إيه ياطفلتي الصغيرة، رحت في حلم اليقظة أليس كذلك؟ أين اختفيت؟ ماالذي كنت أسألك إياه؟»، راحت باخي تمسك بكتفها وتهزها.

نظرت إلى باخي بتساؤل دون أن تجيبها.

«هيه، لقد سألتك كيف لا تختنقين هنا في هذه الرطوبة ؟»، قالت وكأنها تتقيأ.

يا لذلك الفرق بين تلك الباخي وهذه الباخي، فكرت، دون أن تعيرها اهتماما. لقد تكلمت بنبرة فاترة. كانت تقوم بالانحناء احتراما وتلمس الأقدام والآن..! نعم، هذا هو السحر الذي تعرفه نساء البنغال. ثم كيف أن هذا السحر لا يتزحزح، ركزت نظرها على باخي التي نضجت نتيجة لتحولها إلى أم للكثير من الأطفال.

ضفائرها التي كانت تصل إلى وسطها أصبحت الآن تتدلى إلى أسفله. وبارتدائها للساري على طريقة الأم، حيث يغطي طرفه رأسها، فقد أصبحت كائنا آخر.

«أوه، ياطفلتي الصغيرة، من أجل من اعتزلت العالم وجلست في هذه الغرفة الضيقة الخانقة ؟» أمسكت بكتفها ثانية.

«لقد تعلمت أن تتحدثي كثيرا يا باخي، أليس كذلك؟»

«نعم، ولم لا ؟ على أي حال فأولادي...»، قالت بعنف ، «أوه يا إلهي، يا لهذه الحرارة! رأسي يدور»

«تقصدين ..»، نظرت إلى باخي بتمعن «حقا يا باخي، ليس هناك نهاية لخصوبتك . أنت الآن في الشهر الثامن، ولكن انتبهي لي جيدا، هذه المرة لن أخلي هذه الغرفة لك.»

أخيرا أدركت ما كانت ماما تقصده عندما دخلت عليها الغرفة الخارجية وصاحت بسرور: «أوه، إذن فقد رتبت هذه الغرفة، يمكن أن تكون مفيدة في وقت الحاجة.»

والآن ، فإن حالة باخي تفسر تلك الحاجة بوضوح. ضعي المتاريس يامونى، فكرت، وإلا فإنك ستجلين عن هذه الغرفة أيضا. في هذه اللحظة بالذات، برز الأخ الأكبر فجأة من مكان ما.

«لا سبب لقلقك يا صغيرتي موني»، قال. «الحالمون سيقيمون في أماكن أخرى»

«كيف ذلك يا أخي الأكبر؟..»

«إننا في طريقنا إلى فولباري. لقد استكفينا من الإقامة هنا، الآن عالم القرية سيتعرف إلينا»، أعلن الأخ الأكبر قراره برباطة جأش.

الوالدان انزعجا للفكرة تلك. «إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟ هل ذلك مكان للعيش؟ سيكون له تأثير سيئ على دراسة الأولاد. ليس هناك حتى مدرسة مناسبة.»

«ما الذي تقوله يابابا؟ ليس هناك مدرسة ثانوية واحدة وإنما اثنتان،

واحدة للبنات وأخرى للأولاد»

«ولكن، يابني، إن لغة التعليم هناك هي البنغالية، وبتلك الطريقة فإننا سنفقد..»

«وما في ذلك يابابا؟ إذا كنا سنعيش هنا، فسيتوجب علينا أن نمتزج بهذه التربة. ذلك سيقوي جذورنا»، قاطع الأخ الأكبر أباه.

«ربما تظن ذلك يا بني. من واقع تجربتي فإن تطعيم أنفسنا بهذه التربة لن يعمل أي فارق. التطعيم سيظل يُنظر إليه على أنه تطعيم»

«لا، بابا. إن وجهة نظرك خاطئة . لا تستطيع التفكير بهذه الطريقة»، تدخل الأخ الأصغر. كان يزور سانتاهار قادما من داكا. كان ذلك حوالى العام ١٩٥٨ أو ١٩٥٩ عندما كانت الاعتقالات تتم بهدوء شديد حيث فكر في أنه من الأفضل له أن يعود إلى موطنه بأقل جلبة ممكنة فتُسر العائلة به وفي الوقت نفسه سيتفادى الخطر.

الآن، ها هو يتجادل مع بابا بمنتهى السهولة.

«هل استطاع أحد أن يضع قيودا على التفكير يا سيدي؟ لو كان ذلك ممكنا لكنت قد شكلتك على طريقة تفكيري، قبل أن تحوّل عاداتنا إلى غبار. أجيالنا القادمة لن تستطيع حتى أن تعرف...»

«لا يحق لك قول ذلك، بابا. لم نبد أي رغبة في الحضور إلى هنا. كان ذلك قرارك. كنت أنت الذي ثار ضد تقاليده.. الآن أي تقاليد تتحدث عنها؟ لقد اجتثثت شجرة راسخة من جذورها وحاولت إعادة زراعتها في هذه التربة. لماذا أنت الآن لم تعد تتحمل هذا العالم؟

«لماذا لم أعد أتحمل.. فهذا أمر يخصني. أما بالنسبة لقدومنا إلى

هنا، فإنني لم أتخذ قرارا أكثر حكمة من هذا القرار في حياتي. إنني أؤمن بأننا لن ننجو في حياتنا الأخرى إذا لم نؤمن مستقبل الأطفال.

ويابني، تستطيعون جميعا أن تروا أنكم لم تخسروا إذا نظرنا إلى الأمور من هذه الناحية.

الثقة بالنفس التي تجدونها بداخلكم، والإصرار على شرح وجهة نظركم، هي هدية الحرية، هدية هذا المجتمع الحر. أن تكون حرا بالاسم فقط فهذه ليست حرية ياسيدي.

ارجع إلى ماضيك، إلى المدينة التي تركتها، ستجد إخوتك لا مبالين، وعلى الرغم من مقدرتهم، فإنهم منكمشون في قواقعهم... ثم انظر إليكم الآن وأنتم تنطلقون كل واحد تبعا لموهبته».

«إنك تسيء الفهم. في زمن الإبعاد هذا لا يمكننا الحديث بحرية، وأنت .. أنت تعتقد أن هذه هي الحرية الحقيقية؟»

تحدث الأخ الأصغر بمرارة «الحكم العسكري هذا، ما رأيك فيه؟»

«من قال لك إنه من الشجاعة أو أنه من الشطارة مساندة هذا النظام؟ لماذا لا تحمل مسؤولية الدولة على عاتقك ؟»

ومن وقف في طريقكم ؟ بابا كان موظفا حكوميا وليس مستعدا لسماع أي كلمة ضد حكومة اليوم.

«يا للأشياء الرائعة التي تقولها، بابا! ما تقوله يشبه انتزاع قصب السكر من الفيل. هل يمكن ذلك في نظام يقمع حرية التعبير؟»

«من الأفضل أن تكف عن النقاش فيما هو ممكن وما هو غير ممكن وتسكت. ذلك من الأفضل لنا جميعا»، قال بابا ذلك بحزم.

«حتى إذا أسكتنا أنفسنا، ألا تظن أن آخرين سيرفعون أصواتهم بالحديث في هذه الموضوعات التي آن أوانها؟ أعتقد بأننا حتى لو أحكمنا إغلاق شفاهنا ، فإن الجدران نفسها ستتكلم»

«ولكني أرى أن تمسكوا ألسنتكم. هل أنتم تستعدون للعودة إلى السجن؟»، نظرت الأم إلى الأخ الأكبر بهلع.

«بالنسبة للسجن، ماما، الناس يتم اعتقالهم يوميا.

في الأمس فقط اعتقلوا شقيق «باخي». بالأمس كان هو، واليوم ربما يكون دورنا. في هذه الأزمنة، من كانت عنده الشجاعة ليتكلم عن الحقائق، فإنه سيلاقي المصير ذاته الذي لاقاه منصور الحلاج»

لا داعي لذلك. لا أريد ذكر منصور ولا المسيح. انظروا كيف لوثتموني أيها البؤساء. لم يدخل أحد من عائلتي السجن من قبل. وبالنسبة لشقيق باخي، فمن يستطيع أن يقول أي شيء عنه؟ إنه يبدو وكأنه يسعد عندما يتم تكبيله. في بلادنا التي جئنا منها، المتشردون. والرعاع هم فقط الذين يدخلون السجون. هكذا، كأي حماة نموذجية، زادت من تأزم الموقف.

«عفوا، ماما»، فتحت باخي فمها أمام ماما لأول مرة.

«ربما في بلدتكم التي أتيتم منها مشردون ورعاع. هنا الأمر يختلف كلية. إننا نحن فقط ، حتى عندما نكون مكبلين.. من يجرؤ على قول الحقيقة. حذار من اللحظة التي تشتد فيها ضراوة العاصفة فتقتلع معها كل شيء» على أي حال، فإن ماما بتعبيرها المتهور، قد حولت إخوتها ذوي السمعة السياسية الحسنة إلى متشردين ورعاع.

«عزيزتي باخي، وهل أنت نفسك بأقل من عاصفة؟انظري كيف أنك

تجرفين معك كل ما هو عزيز علينا». قالت بعد أن أدركت حساسية اللحظة، محاولة إضفاء روح الدعابة على المناقشة.

أغلق الموضوع مؤقتا، وفي خلال أيام حزم الأخ الأكبر أمتعته وذهب ليحتفل بحياته الجديدة في منطقة نائية قليلة السكان بعد مغادرته، بدأت ماما تفقد اهتمامها بالمنزل الذي لا يزال يردد أصواتهم. وقد تم قبول بيبي وراني بالجامعة. كان بمقدور بابا إرسالهما إلى السكن الداخلي، ولكن إرسال ثلاثة كان عبئا لايستطيع تحمله، لذلك فقد فكر في أنه من الأفضل أن يجمعهم ويرحل بهم إلى داكا.

كان العام هو ١٩٦٠ أو ١٩٦١ عندما تخرجت موني من المعهد لتلتحق بالجامعة. اكتشفت أن الأخ الأصغر الذي لايزال يعتبر طفلاً بالنسبة لبابا، كان شخصا مهما جدا في عالم الجامعة. كانت آراؤه الأيديولوجية وطريقته الخاصة في النظر إلى الأشياء قد حببته إلى الجميع. في تلك الأيام، لم يهتم أحد بمن كان أصلا من هذه المدينة أو من لم يكن كذلك. كان الناس يهتمون فقط بطعم الفاكهة، ولم يهتم أحد بعدّ الأشجار.

وبينما كانت تدرس في الكلية، كانت تشعر بأن جذور الكراهية قد هزلت إلى حد بعيد، وأنها فقدت قدرتها على الازدهار. بهجة الحياة نفسها، والكفاح للوصول إلى الحقيقة والثقة المتبادلة ستنهيها إلى الأبد. كانت تؤمن بأنه مع مرور الوقت، إذا ما انتصر التفكير السليم، فإن قيم الحياة الإيجابية ستقوى، وأن الفرق بين المقيمين وغير المقيمين سيختفي. مثال الأخ الأصغر كان أمامها. الأخ الأصغر لم يكن يعرف البنغالية جيدا حيث إن الأوردية كانت لغته، ولكن، لكي يشارك الآخرين صوت الضمير، كان يتحدث بالبنغالية المكسرة والإنجليزية، ولم تمارس العنصرية ضده بل أحبه الجميع.

عندما التحقت بالجامعة، كان الأخ الأصغر قد غادر، ولكن الوعي الذي خلقه، كلماته، شغفه، كل ذلك كان لايزال حيا في أتباعه ومريديه. في كل الأمور، كان يعتبر صديقا للطرف الأضعف. وفي الظروف الأكثر صعوبة، وعندما يكون هناك بصيص من أمل، فإن الناس كانوا يضعون كامل ثقتهم في الأخ الأصغر. «جدران الكراهية تتساقط»، فكرت بسعادة.

الناس يقتربون من بعضهم بعضا بتلقائية، وهي التي كانت تشعر بالحرج من التحدث بالبنغالية أمام باخي أصبحت الآن تتحدث بها بيسر، مهما كانت ركيكة ومكسرة .

عندما جاء الأخ الأكبر إلى داكا عند وفاة ماما، رأت أن من كان يعرف بالذكاء الشديد والبساطة قد اختفى. هو الذي كان مشهورا في العائلة بهندامه الأنيق الذي كان على أحدث الموديلات، والآن بهندام الجزار البنغالي، يرتدي السروال الفضفاض وشعره منسدل ويتحدث متلعثماً بالأوردية. كان هذا هو الأخ الأكبر الذي اعتزلت من أجله ماما الحياة، كانت وهي على فراش الموت تأسف لشيء واحد فقط، وهو أن البنغال قد ابتلعت كلا من ولديها.

أحدهما كان مفتونا لدرجة كبيرة بالسحر البنغالي ومنشغلا بعائلته الصغيرة لدرجة أنه نسي كذلك أنه جزء من عائلة أخرى. والآخر كان مغرما جدا بحل تشابكات البنغال حيث إنه كان يقضي ستة أشهر من السنة في السجن. لذلك فقد كانت ماما من ضمن المحظوظين الذين توافرت لهم كل النعم في العالم ولكن كان أبناؤها ثوارا، ولم يكن مقدرا لها أن تبارك ولا حتى ببعض القطرات من الماء من أيديهما، بينما كانت تموت.

عندما ماتت، كان إتقان الأخ الأكبر للغته الأوردية الراقية ونطقه السليم لها، يعتبر نموذجا حسب تقرير أساتذته، فأصبح الآن ، بيسر شديد وبلا خجل، يخلط بين المذكر والمؤنث ويتحدث إلى أبنائه بالبنغالية السلسة. ألم تكن تلك لغة أم أولاده؟ لقد محى هويته وارتأى أن يمزج نفسه بهذه الأرض. لماذا كل هذا ولم..لماذا البنغالية؟ لماذا لانبحث في عمق الموضوع ، كانت تفكر، وبلاقصد تتحدث إلى باخي والأطفال بالبنغالية المكسرة فيبتسم الأطفال وهم يتساءلون عن سبب عدم استطاعة عمتهم التحدث بشكل لائق. وتنفجر باخي بالضحك وتقول، «دعك من هذا . لماذا يجب عليك التحدث بالبنغالية؟ سأتحدث إليك بالأوردية.»

دهشت لملاحظتها أن باخي الآن تنطق بالأوردية بطريقة أفضل من الأخ الأكبر. وعندما عبرت عن استغرابها، ابتسمت باخي وقالت، «لم لا؟ هذه هي لغة والد أبنائي». مرح باخي ومحادثتها الممتعة جعلاها تشعر بالحاجة للذهاب وقضاء بعض الوقت في منزل الأخ الأكبر. كانت مصادفة غريبة أن ماما عندما كانت تذهب إلى فولباري، فإنها لم تكن قادرة على مصاحبتها. أحيانا يكون لديها أو لدى راني امتحانات ، وأحيانا لا يوجد أحد لرعاية الأخ الأصغر وبابا. الآن أصبح الوقت مناسبا تماما.

بغياب ماما، أدرك بابا فجأة أن راني وبيبي قد أصبحا كبارا. وضعهما في عناية الأخ الأصغر واستعد للذهاب إلى فولباري مع الأخ الأكبر. في هذه المرة لم يكن هناك سبب للبقاء في داكا بعدما حصلت على درجة الماجستير وكانت في انتظار العثور على عمل. وعلى أي حال، فإنها كانت ترغب في الذهاب إلى فولباري. في كل مرة يعود فيها بيبي وراني من هناك، كانا يحضران معهما روائح الياسمين

وقصص باخي المرحة وبحبوحة الأخ الأكبر، ويستمتعون لأسابيع بقصص عن سعادة الأخ الأكبر في حياته وراحته. الصورالتي كانا يرسمانها لها عن سمك الهلسا الذي كانوا يعدونه في مطبخ باخي، وتفتّح براعم الياسمين في الفناء، كل ذلك جعلها تشتاق للذهاب إلى هناك. الورود كانت نقطة ضعفها، خصوصا أنواع الياسمين، وغرام الأخ الأكبر بالعمل في الحديقة جعل اهتمامها يزداد أكثر فأكثر.

عند استماعها لتلك القصص، تذكرت أيامهم قبل رحيلهم إلى داكا، عندما كانوا يعيشون في باتنا، حيث قامت هي والأخ الأكبر بشتل ورود الياسمين في فنائهم الواسع. في أعماق ذاكرتها، تتذكر ذلك اليوم الذي أحضر فيه الأخ الأكبر شتلات الياسمين من المدرسة. تذكرت الحرص الشديد الذي جهزت به الأرض. فصل الحصى عن التربة، وحتى عندما لم يحز ذلك على كامل رضاهما، فقد تم نخل التربة بالمنخل . وهكذا تمت زراعة شتلات الياسمين وريها تحت شمس الريح الموسمية الحارقة، والعرق يتقاطر منهما. استقرت الشتلات في التربة وبدأت البراعم الصغيرة بالظهور، وعندما تفتحت وردة صغيرة من شجيرة الفستق، فإن قلبها الصغير راح يدق بعنف بين ضلوعها.

عندما نقلت الأخبار لأخيها الأكبر شع وجهه بالنور.

لقد كانت لحظة سعيدة لا تنسى أبدا. في تلك الليلة، تخيلا النباتات وهي تعطيهم سلالا كبيرة مملوءة بالورود، بينما كانا يتحدثان، كانت عيناها تعودان دائما للنظر إلى الشجيرات في الفناء. كانت تشعر بموجات من العطر تفوح من الوردة الوحيدة وتحيط بها، وأخيرا، وهي في تلك الحالة المسكرة، غلب عليها النوم. أفاقت في اليوم التالي لتجد الأبواب الثلاثة المؤدية إلى الفناء مغلقة وأصوات عالية وهياج يأتي من

الخارج. أمسكت بالأخ الأكبر. «ماالذي يحدث؟»

«من هنا تنطلق حفلات الزواج .» قال بنبرة مسطحة وتابع سيرة وهو يوازن كتبه.

ولأن منزلهم كان الأكبر في حارتهم، فبين كل يوم وآخر تنزل بهم مجموعة تحتفل بزواج ما .لم تكن تحفل كثيرا بذلك، ولكن، ويا للحسرة، فالجمع المحتفل يأخذ معه عطر الورود.

لم يحتفل الجيران التعساء بالعرس هنا فقط، ولكنهم حفروا المكان بأكمله ليتمكنوا من طبخ الطعام الذي يملؤون به بطون ضيوفهم.

الفناء نفسه كان صورة للجحيم. كل النباتات بدأت تذبل ثم ماتت. أحست بقلبها يخرج من صدرها . الأخ الأكبر أيضا بدا حزينا، ولكونه أكبر منها، وكذلك لأنه رجل ، فقد تمكن من إخفاء شعوره.

أما هي، فقد راحت تثير ضجيجا لا نهاية له مما أفقد ماما صبرها وجعلها تكيل لها بعض الصفعات السريعة.

واساها الأخ الأكبر. «لاتهتمي يا موني الصغيرة. سأزرع حديقة كاملة بالياسمين من أجلك.»

طويت من الذاكرة تلك الحادثة. المنزل والعالم بأسره تغير في الوقت نفسه. ماذا يمكن أن يقال عن حديقة كاملة من الياسمين عندما لايوجد أحد لزراعة ولو شتلة واحدة فقط؟ في فولباري لاحظت أن الأخ الأكبر لم يزرع حديقة منفصلة، ومع ذلك فإن الفناء كان كله مزهرا. ومن خلال روائح الزهور وأصوات الأطفال، فقد كان يحيا حياة راضية. وحيث تعيش مع الأخ الأكبر، فإنها هي نفسها فقدت الشعور بأن الأشياء كانت تتغير وأن أجنحة العاصفة التي كانت تخافها باخي لاشعوريا في

سانتاهار تحوم الآن فوقهم.

في آخر أيامها بالجامعة أحست بأن الخليج قد اتسع بدلا من أن يضيق. كانت أمواج «السارجو» تجرف الأوقات الهنيئة بعيدا. الحماس والعنفوان في الأخ الأصغر، الذي كانت شخصيته وأفعاله مصدرا للأمل عند الناس، قد همدا. وعلى الرغم من جهوده، فالعلاقات كانت تنتهي. الناس كانوا يتفرقون . الشكوك وعدم الثقة كانت تخلق شقوقا في صرح الثقة المتبادلة واليقين. الحب السابق أصبح الآن مجرد أسطورة، وكان زمنا توحدت فيه القلوب والعقول، وفوق سطح هذه الأرض كان هناك فقط يمين واحد ويسار واحد.

ثم، وبمرور الوقت، فإن عناد وتهور القوة جلبا تغيرا في الأهداف العامة فتشعبت الدروب. بدأت تشعر كما لو أن أحدا كان يسمم الجو وأن معوقات كانت توضع أمام تدفق الماء الجاري فتغير اتجاهه عن قصد. لكن الماء هو الماء، وسيجد الطريق الذي يراها مناسبة. رأت في اندفاعه عددا لا يحصى من الجداول المتشعبة. تدفقه القوي الذي كان مندفعا بكل طاقته نحو الحقيقة والنور والحياة، أخذ الآن يتقسم، يتضاءل، يتحول بركوده إلى مستنقعات وأوحال ستتوالد فيها مع مرور الزمن الديدان. لذلك فقد عم الفساد بين الناس. وضعت العوائق في الطريق ونثر الطمع غشاوة فوق الرؤية وفوق الحلم.

خلال حياتها في عالم الأخ الأكبر ذي الورود العطرة والأطفال السعداء، كانت قد نسيت أن تحمي نفسها ضد عيون الشر التي تدمر السعادة. الورود تموت ويتبدد أريجها في الهواء. نعم، لقد كانت غلطة لن تنسى.

تغلب الشر على الخير. هجم العدو بكل قوته وفقد الإنسان

إنسانيته. ابتلعت النيران حديقة الأخ الأكبر.

تشبثت باخي، وشعرها في حالة من الفوضى، يتطاير كالعصفور العطشان، بكل شخص في محاولة منها لإنقاذ بيتها. عندما استعادت وعيها، كانت الحديقة قد تحولت إلى رماد ووجدت نفسها وسط ذلك الرماد. نظرت في عيني الأخ الأكبر المفتوحتين بلا حياة، العينان اللتان حملتا كبرياء العيش ونور الثقة واليقين بالحب إلى النهاية، العينان اللتان محتا هويتهما من أجل غد أكثر إشراقا، كانتا الآن مفتوحتين ذهولا.

نظرت إلى بابا الذي سعى إلى تأمين مستقبل أبنائه، والذي صلّى عند موت ماما من أجل أن تحظى بالدفن في هذه الأرض، بينما راح يراقب بألم جسدها الذي كان يطفو على الماء داخل قبرها. مراقبته لجسد رفيقة دربه جعلت صلاته تنطلق من أعماق قلبه، ولأنها انطلقت من أعماق قلبه، فإن الله قد تقبلها. تحرر جسده حتى من حبس الكفن، وتلاشى جمال باخي متحولا إلى رماد. براعم ورودها الصغيرة، التي لم تتفتح بعد، التهمتها النيران. وهي .. باخي نفسها كانت تفتقر إلى القوة كي تشرب سم الموت، لذلك، فقد تجرعت سم الحياة.

أطواق النار

خالدة حسين

راحت كل واحدة منا تلو الأخرى تعانق سليمة. ذرفنا كمية كافية من دموع التعاطف معها، استعدنا التجارب والشائعات لنقصّ عليها القصص الواقعية وعددا لا يحصى من حكايات الحوادث والأزمات والكوارث.

«لقد حذرتك»، تقول رفعت بأسلوبها المعتاد. «يمكنك مشاهدة ذلك على وجهه، اللعنة عليه»، وتقول زكية وهي تفحص وجهها بمرآة الجيب. «حقا، أرسليه إلى الجحيم، فالأمر لا يستحق أن تشوهي جمالك بالبكاء عليه. وعلى فكرة، هل استخدمت ذلك المستحضر؟ إن جلدك يبدو جافا جدا..»

«ما هذا الهراء؟» تحتد ربيعة. «ما يجب التفكير فيه الآن هو العمل. نعم، خطة...» عمل! وما الذي يمكنك أن تتوقعي فعله الآن، بعد أن انتهى كل شيء، بعد أن حصل ما حصل، ولا يزال يحصل، وسيستمر في الحصول، كان يحصل منذ بدء الخليقة، ويحتمل أن يستمر في الحصول إلى الأبد.

يا الله، كم أنتن مغفلات.

أنا لا أكلف نفسي الكلام. أراقب سليمة المنتحبة، سيل دموعها، وأنا مستغرقة في حسدي لما لها من حظ حسن. يا له من عرض للحزن، مباشر جدا، بسيط جدا، في أيامنا هذه، معاناة كثيرة، وكله بسبب أنها هُجرت. إذن، فالنساء لا يزلن يملكن كنوزا من الدموع، من العواطف.

حلقة من الأنوار الزرقاء والصفراء الساطعة، من الحمم الحارة الصارخة، تدور في رأسي مثل أطواق النار تلك التي ترونها في السيرك، والتي يقفز من خلالها الناس - أو الكلاب - ويرتفع معها

تشجيع المشاهدين، بينما الكائنات عديمة الفائدة، المنافقة، الجبانة مثلي تظل تتساءل عما تشعر به.

أرتعد. انشوطة تضيق حول عنقي. يكفي.

افكر في أن أهنئ سليمة على ثروتها من الدموع، ولكني أقرر الصمت. أهجس: إذن فأنت حقيقة تعانين كثيرا، وكل ذلك بسبب هجران رجل لك؟ وأنت أيضا، هل ستقفزين خلال أطواق من نار وتطلبين التشجيع، بينما منافقات مثلي يتساءلن عن حقيقة مشاعرهن باستمرار؟

«اسمعي يا سليمة: أنت تعرفين فري، أليس كذلك؟ الآن نحن نعرف ما حصل لها. تمر كل هذه السنين ثم يظهر «سين» من الناس ويقول لها إن صلته الثقافية الفريدة في العالم هي معها، وهي لها نصف دستة من الأطفال يسلونها ويبهجون حياتها. ومع ذلك، فإن له زوجة تعد تلك الأطباق الرائعة من الرز. زكية لا تزال تحاول مواساة سليمة.

« نعم، وأنت تعرفين أن فريدة تقيم الآن جمعية؟ « هم م م» ودائما تسألني أن أنضم إليها أيضا.» «جمعية؟»، أقول أنا أخيرا وأنا أكظم تثاؤبي. « نعم، لتتخلص من وباء النساء الذكيات الواعيات في مجتمعنا. إنها تعتقد بأنه ما أن تظهر مظاهر فكرية حادة على فتاة ما، حتى ينبغي منها أن تتزوج إذ تبلغ سن النضج لكي تستطيع أن تنجب الكثير من الأطفال الأصحاء في العمر المناسب، فيتحقق قدرها وتأخذ مكانتها وترتدي الملابس الجميلة وتصدح بالغناء بصحبة النساء في مدح الرسول لآخر حياتها...»

تلوح ابتسامة واهنة فوق شفتي سليمة. تخرج منديلا رقيقا معطرا

من حقيبتها الأنيقة وترفعه إلى عينيها.

«رائع!»، قالت رفعت مسرورة وهي ترى سليمة تبتسم.

«افهميني: لدي ابنتان، إن لم أزوجهما حين بلوغهما السادسة عشرة، لك أن تغيري اسمي. لقد أقسمت...»

«ماذا؟ ومتى أصبحت متدينة؟»، ربيعة تسأل بقلق.

«لا ضرر في القسم، أليس كذلك؟ إذا ما قُبلت صلاتك فإنك الرابحة، وإذا لم تقبل فما الذي ستخسرينه؟»

«فقط انظري إليكن جميعا، تمضين الوقت بالثرثرة والمرح لأنكن ببساطة تستطعن ذلك. لديكن بيوتكن، أزواجكن. أطفالكن. هناك إحساس بهدف عظيم في حياتكن. ولكن ماذا عني أنا؟ أنا جذابة جدا ومازلت عالقة في غرفة وحيدة كئيبة محاطة فقط بالصور. يجب علي أن أقتل الوقت، أقتل الحياة، إنني أقول...»

«لا تذهبي بعيدا يا سليمة. اجلسي. إنك تعيشين في عالم من الأحلام. تعرفين ما يقولون عن الطبول البعيدة... إنها ليست الجنة التي تتوقعينها، تعرفين، أقصد الحياة الزوجية. عندما يعيش شخصان سويا...»

ظهرت إشارة لدخول ربيعة في نوبة من الضحك. «نعم، إن الذي تحتاجينه لهذه اللحظات الخاصة هو مزيل للروائح، أسنان ناصعة، أنفاس طازجة ومعطرة، عيون براقة، والذي يحدث في الحقيقة بعد أسابيع عدة.»، وتمتزج كلماتها بنوبة قهقهة ثانية.

«أوه، وحق الله يا ربيعة...»

«حسن، أنا محقة، بعد أسابيع عدة، يتسلل نحوك شيطان اسمه التقرب من بعضكما ليخنقك، ليمحو هويتك، وستتسين معجون الأسنان القاتل للبكتيريا. وأنت ترين أن شراء العطر ما هو إلا إسراف شنيع، ثم يظهر الاكتشاف الكبير، الرجل الذي بجانبك يعرق بغزارة..»

«أوه، اسكتي يا ربيعة» تكبح رفعت مرحها.

« ولكن على الرغم من كل ذلك، فلا يجب عليك أن تقتلي الوقت وأنت تحدقين بصور صامتة لا حياة فيها. وأيضا ...»، وتتوقف سليمة في منتصف جملتها.

نتخلص من الفناجين النصف المملوءة بالشاي، ونبدأ بالاستعداد للمغادرة. يخطر لي للحظة أن آخذ سليمة معي ، ولكنني أكبت نفسي لأن العالم يملؤه الصخب بحيث لا يمكنني سماع أي كلمة، وإن استطعت فلن أستوعب. سليمة، إنني أعرف هذا المكان الذي تجدين فيه نفسك وحيدة، أعرفه جيدا. أنت مثل جزء من نفسي وقد أطلق سراحه من سجن اللحظة الراهنة. تلك الوحدة التي تتحدثين عنها يمكن أن تكون ملاذا أيضا. لقد ألقيت بسلاحك بأسرع مما ينبغي. العزلة تحمي، تهدئ، مثل صدر الأم. لكنها الوحدة هي التي لا تنتهي.

لا حدود لها فترة الشفق تلك التي تنتشر وتعم كل شيء، والتي يتوجب على كل واحدة منا أن تجابهها بمفردها. نعم، كل واحدة، وسط صور صامتة لا حياة فيها، أو في ظل الآخرين، السعداء، المفعمين بالحيوية. الوحدة في ذلك المكان قاسية لا تلين. تقول لك إنك لا تنتمين إلا لنفسك لأنك منفصلة عن الآخرين، وإنك لست نفسك إلا لأن الآخرين منفصلون عنك.

ذلك هو سبب فقدانك نفسك في موسيقى الانسجام والاتحاد، عندما تحاولين إغلاق الفجوات والمسافات في كل ساعة وفي كل لحظة. ولكن الموسيقى والرابط المبهج لا يمكن تحقيقهما بالقدر نفسه. وإدراك ذلك هو مثل إدارة وجهك بعيدا عن السعادة.

ألتقط حقيبتي وأغادر. ربما كنا كلنا قد أرسلنا إلى هنا في مهمة تكفيرية نسعى لها دون نهاية، ونظل نعرف أننا لم ندفع ثمن أرباحنا أو ثمن خسائرنا. ويظل هذا الثمن يرتفع. اللهم احمنا. ويعود توهج اللهب في رأسي، يدور، يلف، يرتفع، ينتشر. يجب أن أقفز من خلاله في هذا المهرجان الخالي من المستعرضين. فقرة يجب أن أؤديها بمفردي، وبلا أحد يتفرج علي أو يصفق لي. لا أحد يشهد. ولكن بلا هذا اللهب المتوهج فلا وجود لي أنا، لا وجود، هذا هو مجمل القصة: من اللهب الدوار، المرتفع، اللافح، عرفت أنني موجودة لأن اسمي قد نقش على وجه البركان.

أنا جالسة أمام الطبيب ذي الشعر الكثيف الأبيض والصوت اللطيف واليد الرقيقة.

على الطاولة التي بيننا هناك مجموعة من صور الأشعة والتقارير الطبية.

«كل شيء يبدو على ما يرام، مدام.. لا شيء بك.»

«أعرف أنني سليمة ولا أشكو شيئا يا دكتور..»

« حسنا، إذن. أنت سيدة متعلمة»، يقول برقة.

نعم، سيدي. أنا سيدة متعلمة جاهلة، هكذا يقول أطبائي (حسن، إذن يا سيدتي، مادمت حية ، لابد أنها ماتت منذ أكثر من مائة عام).

سيدة جاهلة متعلمة من النوع الذي يخضه المجتمع كل يوم. هذا هو التشخيص، على الأقل.

«اسمعي، إذا لم يكن لديك ما يقلقك، فبإمكانك أن تقومي بأعمال تطوعية، اقلقي بقدر أقل على أطفالك وانشغلي بقضية ما. ولكن قبل كل شيء يجب أن تكفي عن التفكير في نفسك. انظري إلى تعساء العالم. يمكنك دائما أن تنضمي إلى جماعة دينية، ابحثي لنفسك عن مرشد ديني، مرشد روحي..»

«شكرا لك، شكرا جزيلا..» أجمع كومة الأوراق، أقف وأغادر. مرشد ديني، إنك تضحكني. أنا نفسي مرشد روحي. ثم أفكر في تحسينة. مرة عندما التقينا، منذ سنوات، قالت تحسينة وهي تنظر كالعادة إلى نقطة بعيدة من فوق كتفي: «ما هي جذور مشكلتك؟ الخبز؟ الملابس؟ سقف فوق رأسك؟»

كنت أفكر أن تلك المشاكل الفعلية هي التي تجعلك بشرا وتلبسك اللحم. هي التي تربطك إلى الأرض وتبقيك حيا، تبقيك كائنا حيا يتنفس، يحولك من ظل، قشرة، إلى شيء ذي وزن. إن تلك الأمور هي التي تغير خريطة العالم.

«ما مشكلتك إذن؟»، كانت تحسينة مصرة. «مجرد الوجود؟»

إنه ما لا يمكنك إدراكه يا تحسينة. أمر ، لا يمكنك أن تفهميه دفعة واحدة! انعدام الوجود. نفي داخل نفي. رؤية، ربما أنا وحدي من بين أحبائي أستطيع أن أراها، رؤية لا أستطيع إشراكهم بها، على عكس رغبتي بذلك، لأنها تظهر في عزلتها، العزلة التي هي قدرنا جميعا، والتي أعطيت لوالدي ووالديهما وأسلافهم، وهكذا إلى الإنسان الأول،

قبل أن يبدأ الزمن. عزلة يجب أن نواجهها. نعم نواجهها، بمفردنا.

«حسن إذن»، قالت تحسينة وهي منزعجة من صمتي، «ما سمعته صحيح. لقد أصبحت ذات وعي انهزامي، أصبحت تؤمنين بالخرافات، متدهورة ومتشائمة. أقترح أن تبدئي التفكير بالعالم الثالث، وأن توثقي علاقتك بالأمم الرجعية المحرومة المريضة، وهكذا تستطيعين أن تصلحي من أمر نفسك.»

ثم جمعت كتبها وذهبت.

العالم الثالث.. ألست مسؤولة عن هذا العالم وما وراء هذا العالم الثالث الذي يعيش في داخلي؟ مسؤولة عن أرض مقفرة من الكرب والألم حيث صرختي «أنا هنا!»، محبوسة في أضلعي. يجب أن أقفز خلال اللهب المرتفع مع أنه لا شاهد لدي.

والآن، الليلة، يمثل ذلك أمامي. أنهض من سريري، وهو ينتظرني.

«ماذا؟ ما الأمر؟»

يسأل عارف، وهو يأخذ بيدي المثلجة. « إنك ترين أشياء. تتخيلين. تهلوسين»

«لا. إنها ليست هلوسة. ابق بجانبي. يجب أن أقفز». وأتشبث بيده. وأرى الجبال، مثل كرات القطن، تطير في الهواء، وتنفث الأرض كنوزها المخبأة، وتنفتح أبواب السماوات السبع، ثم يظهر الطوق الناري ذو الألوان المحترقة، يرتفع، ينتشر، يهسهس، يقذف الشرر، وأصبح فراشة وأرقص حوله، حول البركان الثائر، أتمايل، حيث إني قد وصلت إلى غايتي، عبر كل الأزمان، للأبد. وأنا لست خائفة، حيث إن النار هي قدري. انظر، إنني أرقص بخوف وأمل، وبالأمل والخوف أنتظر اللحظة التي يتحول فيها اللهب ليصبح منقذي.

المترجم في سطور

عامر الزهير

- حصل على بكالوريوس الفنون المسرحية- جامعة أريزونا ١٩٧٨، كما حصل على ماجستير إخراج وإنتاج سينمائي من جامعة لويولا - كاليفورنيا ١٩٨٨ .
- كاتب سيناريو ومخرج سينمائي.
- له ترجمات عدة منها:
  - مسرحية «رحلة النهار الطويلة خلال الليل» للكاتب الأمريكي يوجين أونيل، نشرت ضمن سلسلة المسرح العالمي - وزارة الإعلام - الكويت.
  - مسرحية «ضحية» للكاتب الأمريكي ماريو فراتي.

المراجع في سطور

شاهر عبيد

- مواليد الجمهورية العربية السورية ١٩٤٩ .
- حصل على إجازة في الأدب الإنجليزي - جامعة دمشق ١٩٧٣ .
- أسهم من خلال الترجمة والكتابة في عدد من الصحف والمجلات والدوريات الثقافية العربية في سورية ولبنان والكويت.
- يعمل منذ العام ١٩٩٢ مترجما في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.